الأخلاق المسيحية

بقلم

جورج منزريذي

نقله إلى العربية

الأب ميشال نجم

المحتويات

الجزء الثاني

الإنسان والآخر

الجزء الثالث
المشاكل الأساسية وأبعاد الوجود الإنساني

1-استقصاء معنى الأخلاق

معنى اللفظة في الأدب اليوناني القديم

دلت اللفظةُ اليونانيةُ في الأدبِ اليوناني القديم على العادة. ولذلك قال أر سطو "إن الفضيلةَ الخلقيةَ تنشأُ عن العادة, بحيث أن لفظةَ الأخلاق تغيرت عنها قليلا."[1] في الجمع دلت اللفظةُ على مكان حضور الإنسان, أي على مكان وجوده. وفـي الوقـتِ نفسِه أشارت إلى مكانٍ أمينٍ نسبياً يتمّتع باكتفاءٍ ذاتي. وفي المفْردِ أشارت ضمناً إلى علاقةِ الإنسان بما هو إلهي أو إلى ميزتِه الداخلية أو إلى النهج الذي يعملُ بـه فـي العالم. وهكذا قال هيراقليطس إن الخُلُقَ هو الإله عند الإنسان, أي الإله الساكن فيـه. فليست لأخلاق الإنسان أحكام أو أراء, أما خُلُقُ ا فلـه أحكـام وأراء. إذاً الخُلُـق الحقيقي هو الخُلُقُ الإلهي وحده, أما خُلُقُ الإنسان فيأخذ محتواه من خلال علاقتِه با . وهكذا تكلّم أر سطو على المودةِ الخُلُقيةِ والفضيلةِ الخُلُقيةِ وكذلك على الشر الخُلُقي.[2] وعند سترافون نجد عبارةَ "الفلسفة الخلقية." أما فيلون الإسكندري فاسـتعمل اللفظـةَ كاسم.

العهد الجديد

في العهدِ الجديدِ دلّت اللفظةُ على العادةِ. ولذلك يتحدثُ العهد الجديد مثلاً عـن "عادةِ الكهنوت"[3] وعن "عادةِ العيدِ"[4] وعن العاداتِ الشخصيةِ والجماعيـةِ والوطنيـةِ الخ.[5] واستُخدمت اللفظةُ أيضا بمعنى التقاليدِ الموروثة.[6] وأخيـراً نـصادفُ اللفظـةَ

---

[1] الأخلاق النيقوماخية 1103,1,2

[2] الأخلاق النيقوماخية 1162,15,8

[3] (لوقا 9:1)

[4] (لوقا 12:2)

[5] (لوقا 39:22) (يوحنا 40:19) (أعمال 16:25) (عبرانيين 25:10)

مستعملةً بمعنى "الأخلاق" مرةً واحدةً عندما يقتبس بولس قولاً لميناذراس: "المعاشرةُ السيئةُ تُفسد الأخلاقَ الحسنة."[7]

الأدب الابائي

سرعان ما أخذَ الكتاب المسيحيون هذه اللفظةَ ليظهروا غايةَ حياةِ المـسيحيين وأسلوبها. فإقليمس أسقف روما يتكلم مثلاً على "خُلُق الضيافة" و "خُلُق الطهارة"[8] عند المسيحيين. وإقليمس الإسكندري يورد اللفظةَ ليظهر تعليم الدينين اليهودي والمسيحي عن نهج حياةِ الإنسان. فالتعليم الموسوي ينقسم عنده إلى أربعةِ أجـزاء: ***التـاريخي والتشريعي والكهنوتي واللاهـوتي.***[9] الجزء التاريخي يحتوي على رواياتٍ من تاريخ شعبِ ا   أو رجالِه المختارين. وهو مع الجزءِ التشريعي يؤلّفان "البحثَ الخلقـي" أي مناقبيةَ الدين العبري. وفي موضعٍ آخر يستخدمها من خلال علاقةِ التعليمِ المـسيحي الخاص بعمل الإنسان فيقول: "ا ُ أزلي ومصدر كاملٌ لكل الأشياءِ وخـالقُ البـدء... وهو مبدأ الأخلاق لأنه هو الصلاح. ولكن بما أنه عقلٌ فهو مبدأ للتفكيـر والتمييـز. ولذلك فالمعلم الأوحد هو الكلمةُ ابن عقل الآبِ ومربي الإنسان."[10]

---

[6] "ونحن سمعناه يقول: سيهدم هذا المكان ويغير التقاليد التي ورثناها عن موسى." (أعمال 14:6)

[7] (1 كورنثس 33:15)

[8] (1 كور 7,21,2,1)

[9] "تُقسم الفلسفة الموسوية إلى أربعة أجزاء: الجزء التاريخي والجزء المسمى بالتشريعي, وهما ينتميان إنتماء موافقا إلى البحث الخلقي. والجزء الثالث هو الجزء الكهنوتي الذي ينتمي إلى العلم الطبيعي. والجزء الرابع والأهم هو الجزء اللاهوتي." (البسط 176,28,1)

[10] (البسط 162,25,4)

يلاحظُ أوريجانس أن أخلاقَ البشر عديمةُ الخبرة ونفوسهم عديمةُ الخبرة كذلك. ا ُ وحده هو العالِم الحاذقُ بها والمدبر الأمثلُ لها.[11] إن التربيةَ الخلقيةَ عند الأممِ تنفع المسيحيين. فكما أخذَ العبرانيون من مصر عند خروجِهم أواني المصريين الذهبية والفضية واستعملوها لبناءِ الهيكل, هكذا يمكن للمسيحيين أن يأخذوا بعضاً من العناصر المفيدةِ عند الأممِ مساهمةً منهم في بناءِ التعليمِ المسيحي. وعلى حدِ قول غريغوريوس النيصصي يمكن للمسيحيين أن يقبلوا الأخلاقَ "وكل ما يسعى إليه بحماسٍ الذين هم خارج الكنيسة... حتى يكون نافعاً في حينه, عندما يزين هيكلُ السر الإلهي بالغنى العقلي."[12] وكثيراً ما يتحدثُ باسيليوس الكبير عن خُلُقِ الإنسان وكذلك عن ازدواجيةِ خُلُقِه عندما يتصرفُ المرء تصرفَ المرائين.[13] وعندما يتناولُ كتاب الأمثال شرحاً يشير إلى أن هدفَ الكتابِ هو تربيةُ الأخلاقِ وإصلاح الأهواء.[14] أما القديس يوحنا الذهبي الفم فيشير إلى علاقةِ التعليمِ الخلقي بالتعليمِ العقَدي فيسأل: "قلْ لي ما هي فائدةُ الإيمان عندما تكون الحياةُ غير طاهرة؟ أيبدو لك أنا نقلقُ عبثاً في سبيل الحياة, ونُبدي اهتماماً كبيراً بالجزءِ الخُلُقي من الفلسفةِ (أي الإيمان المسيحي)؟"[15] وثيودوروس القورشي في شرحِه المزمور الأول يشير إلى أنه مزمور

---

[11] (في المبادئ 14,1و3)

[12] (سيرة موسى 2, مجموعة الآباء اليونانية 360,44)

[13] (مجموعة الآباء اليونانية 385,31)

[14] (مجموعة الآباء اليونانية 388,31)

[15] (إلى الذين يعارضون الحياة الرهبانية, مجموعة الآباء اليونانية 53,47)

عقَدي وخُلُقي.[16] أما جناديوس القسطنطيني فيلحظُ في تعليقِه على رسالةِ بولس إلـى أهل رومية أن هذه الرسالةَ تتناولُ حتى نهاية الفصل الحادي عشر مسائلَ عقَدية, ومن ثَم تنتقلُ إلى التعليمِ الخُلُقي."[17]

أما الآباء النسكيون فوضعوا ما يسمى "بالفصول الخلقية", أي مقاطع مختصرة ومستقلة تتناولُ حياةَ المسيحيين الخُلُقية. استخدم آباء الكنيسةِ تعابير عديدة للدلالـةِ على الحياةِ الخُلُقية, مثل "السير بحسب الروح," "السير في النور," "العيش فـي ا , أو في الروح أو في المسيح," وغيرها. هذه التعابير تُظهر على نحو كامـلِ المـضمون العميق لخُلُق المؤمنين.

وخلافاً لذلك, لا تستطيع الأخلاقُ بمعناها المجرد أن تكون ذات خُلُـق. فمـا الُخلُق من إنتاجِ التجريدِ العقلي. فالأشخاص وحدهم هم ذوو أخلاق. لـذلك تكـشفُ النصوص المتعلقةُ بحياةِ الإنسان اليومية عن خُلُقه أكثر مما تكشفُ عنـه المؤلفـاتُ المنهجية. هكذا تُقدم رسائلُ بولس ومؤلفاتُ آباء الكنيسة ومواعظُهم النـسكية الخُلُـقَ المسيحي بطريقةٍ موثوقةٍ أكثر من المصنفاتِ المنهجيةِ في الأخلاق.

---

[16] "ومع أن بعض مفسري المزامير قالوا إن المزمور الأول يحوي تعليما خلقيا فقد بدا لي بأنه لا يقل عقدية. فالاتهام لا يوجه إلى الخطأة فحسب, بل إلى الكفرة أيضا... فنحن لا نجني منه فائدة خلقية فقط, بل فائدة عقدية كذلك." (تفسير المزمور الأول, مجموعة الآباء اليونانية 865,80)

[17] (مجموعة الآباء اليونانية 1720,85)

2-المصادر والمراجع

أ_ الإنسان مصدراً للأخلاق

من الطبيعي أن تتجه الأخلاقُ المسيحية, كعلمٍ يهتم بخُلُق الإنسان, إلى الإنسان أولا. فالإنسان هو المصدر الأولُ لها. والحق, أن خُلُقَ البشر يجب ألا تحدده مبـادئُ ووصايا تُملى عليهم من الخارج, إذ ينبغي أن يصوغوها تلقائياً بأنفسِهم. لذلك عـدت الأخلاقُ المستقلةُ شكلاً نموذجياً, وذلك ابتداء من عصر سقراط. لكن هـذه الأخـلاق تتطلب مسؤوليةَ الإنسان ونضوجه, بل إنّها تتطلب جامعيةَ شخصِه, بحيـث أنهـا لا تُمثلُ مصالحه الفردية, بل الإنسان الحق. وفي الواقع الخلقي, يظهـر أن الإنـسان لا يدانى خلقيا. فالطرائقُ التي يتجلى فيها خُلُقُه لا تُحد. ولذلك صدقَ إوريجنس في قولِهِ بأن أخلاقَ الناس لا تُحصر, ونفوسهم لا تُحد.[18] فأين هو الإنسان الحقيقي؟ وما هـو خُلُقُه الأصيل؟

إناساتٌ متعددة

كل الأجوبةِ التي أعطيت أو تُعطى عن هذا السؤال تَعتبِر وجود الإنسان وتُقيم له إناسةً خاصةً يحدد بها كيانَه. مثلا تُرجِع ***الإناسةُ المادية*** الإنسان في كيانِه إلى قواه المادية والبيولوجية. أما ***المادية الجدليةُ*** فتُرجعه إلى الوجودِ الاجتماعي الذي تُحـدده العواملُ المادية. ***والإناسةُ المثالية*** تُرجعه إلى مبادئَ لا شخصية أو عدمية, كما هـو الحال في ***الإناسة الوجودية***. وهكذا تعترفُ سلفاً باستعبادِ الإنسان لقوى أو مبادئ لا شخصية وتُكرس عبوديةَ خُلُقِه. فمن خلال الادعاءِ بوجودِ إناسةٍ موضوعيةٍ متحـررةٍ من الدين والأخلاقِ الماورائية تَظهر أشكالٌ ومناهج خُلُقيةٌ مزيفة. لكننـا نُـدرك أن الانتقالَ من الوجودِ إلى الواجبِ أو من الأحداثِ إلى القيمِ مستحيلٌ منطقيا. لذلك قادت كلُ محاولةٍ لجعل الأخلاق مستقلةً عن الإيمان إلى ردبٍ, أو إلى خُلُقٍ ديني بديل.

[18] (في المبادئ 14,1,3)

الإناسةُ المسيحيةُ

في وسطِ هذا الارتباكِ والخلطِ تُقدم الإناسةُ المسيحيةُ الأرثوذكسيةُ جواباً فريداً, لأنها تضع الإنسان في نطاق الحريةِ الشخصيةِ التي تتجاوز كـل حتميـةٍ ماديـة أو بيولوجية أو اجتماعية أو دنيوية. فالإنسان هو خَلْقُ ا ـ الذي أبدعه بحريته ومحبته من العدمِ ليكون "على صورتِه ومثالِه."[19] هكذا يرتفع الإنسان المخلوقُ كيانياً إلـى الإلـهِ اللامخلوقِ والأبدي الذي هو محبة.[20] المحبةُ هي سمةُ ا ـ الكيانية التي لا تخضع لأي ضرورةٍ, لأنها ترجع إلى الشخص.[21] المحبةُ تماثل الحريةَ الكيانيـة. لـذلك يتـصلُ الإنسان المخلوقُ على صورةِ ا ـ ومثالِه اتصالاً كيانياً بمحبةِ ا ـ المثلثِ الأقانيم, الذي هو نموذج لطريقةِ وجودِه وتعامِله.[22] بهذا يحفظُ الإنسان بشكلٍ حي علاقتَه الكيانيـة بإلهِ المحبةِ ويعبر عنها في حياتِه. لكن هذا لا يصح في الإنسان الذي نعرفُـه عبـر التجربة, لأن الأثرةَ توجهه فيعجز عن معرفةِ ملءِ شـركتِه الشخـصية. إنـه يحيـا التصدع في ذاتِه ومحيطِه ويعجز عن أن يجد الوحدةَ الداخليةَ والمحبة. وهذه الحالـةُ توصفُ في اللغةِ اللاهوتيةِ بأنها سقوطٌ وتعتيم للصورةِ الإلهية.

تغرب الإنسان

بالسقوطِ تغرب الإنسان عن ا ـ فاستعبده الموتُ والفساد. وهذا التغرب يقـوده إلى الانغلاق على ذاتِه وإلى الاعتزال عن الآخرين وعن محيطِه. لذلك كان إنـسان السقطةِ نفعياً يتسلح بفرديته ويعجز عن اكتشافِ ملءِ حياتِهِ الشخصية. ومع ذلك تبقى

---

[19] (تكوين 1:26-27)

[20] (1 يوحنا 4:16)

[21] " الكائن ليس من الجوهر, بل الجوهر من الكائن." غريغوريوس بالاماس, "دفاعا عن المتصوفين بقداسة" 12,2,3 سالونيك 1962,ص 666.

[22] انظر يوحنا 17:22-23.

في ذاتهِ "المحبةُ المزروعة"[23] فتساعده على الخروج من فرديته وعلى إقامةِ علاقـةٍ با والعالمِ وعلى اتخاذ دِينٍ له وعلى إنماءِ الحياة الاجتماعية. لكـن هـذه المحبـةَ المحدودةَ وغير الأصيلة لا تعجز عن جعلِه شخصاً كاملاً وعن تجلي خُلُقِه الحقيقـي فحسب, بل تُجمد الحاجةَ عنده لاكتشافِ هويته الكيانية.

الإعلان والإنسان

بما أن الوضع التجريبي للإنسان لا يظهر وجوده الحقيقي, إنما يظهر صـورةً قاتمةً عن شخصه. لذلك يبرز السؤالُ عما إذا كنا نستطيع أن نجد أساساً إنسانوياً أكثر أصالة منه؟ الجواب عن هذا السؤال يقدمه إعـلان ا ِ الـذي يكتمـلُ فـي تجـسدِه وحضوره في العالم. فالإعلان الإلهي لا يدعو الإنسان إلى الخروج من ذاتِـه ومـن العالم, بل يعيده إلى حقيقةِ طبيعتِه وإلى علاقتِه الصحيحةِ بالعالم. في شخصِ يـسوع المسيح يجد الإنسان حياتَه الحقيقية ويستعيد وضعه السابقَ ليعود إلى عظمتِه الأولى. هكذا يشير غريغوريوس النيصصي إلى أن حياةَ الإنسان الحقيقيـةِ "تُـشابه الطبيعـةَ الإلهية."[24] فتغرب الإنسان هو نتيجةٌ طبيعيةٌ لتغربه عن ا .لذلك استحال تجديده مـن دون عودتِه إلى ا . فإذا أعاد صلتَه با التي تتَحققُ في المـسيح اسـترجع كيانَـه الحقيقي.[25]

خُلُق سر الشكر

---

[23] انظر القديس باسيليوس الكبير, القوانين المطولة 1,2مجموعة الآباء اليونانية 31 , 908 .

[24] في كتاب الجامعة 1, مجموعة الآباء اليونانية 624,44 .

[25] "إن تدبير الله مخلصنا للإنسان هو استرجاعه من السقطة وإعادته إلى الله بعد أن تغرب بسبب من عصيانه. لذلك جاء المسيح بالجسد... حتى يحصل الإنسان المخلص على تلك البنوة القديمة من خلال إقتدائه بالمسيح." باسيليوس الكبير, في الروح القدس 35,15مجموعة الآباء اليونانية 128,32 .

في المسيح إذاً تُعلَن حقيقةُ وجودِ الإنسان وحقيقةُ خُلُقِه. وبهذه الحقيقةِ يـشارك في سر الكنيسةِ المميز أي في سر الشكر الإلهي الذي هو سر شركةِ المؤمنين مع ا ـ ومع بعضِهم البعض. هذه الشركةُ الأسراريةُ تُعيد الوحدةَ الكيانيةَ إلى المؤمنين فتكون على صورةِ وحدةِ ا ـ المثلثِ الأقانيم. وتُقدم في الوقتِ ذاتِه المحبة بكونها الإمكانيـة الفريدة التي تُعبر عن هذا الواقعِ أي بكونها القانون الفريد للخُلُق الحقيقـي, فيتجلـى شخص الإنسان في الكنيسةِ وخُلُقُه الأسراري. فالمؤمن يحيا في المـسيح, ويتجـاوز فرديتَه, لا بل إن حياتَه تتجلى بتجاوز فرديتِه. إن الحياةَ المسيحيةَ تبدأ بالمعموديةِ التي هي اشتراك في موتِ المسيح وقيامتِه. وبهذا يشترك المؤمن في حياةِ المسيح ويتميـز كشخصٍ حرٍ وكعضوٍ في شركةِ المتألهين.

الميزة الحية للأخلاق

لم يقدم المسيح لأتباعِه تعليماً منهجياً محدداً, بل قدم جسده الخاص, حتى يجدد الإنسان والعالم بأسره. للإنسان الجديدِ خُلُقٌ جديد يتجلى بقوةٍ في أشكالٍ جديدةٍ وفـي تعاليم خُلُقيةٍ جديدة. وفي التحليل الأخير, يمكن القولُ بأن الأخلاقَ المسيحيةَ لا توجـد إلا كترجمةٍ للحياةِ في المسيح.

لا الحياةُ في المسيح ولا الأخلاقُ المسيحيةُ جامدتين, بل لهما ميزة حية. إنهما لا يتحركان على مستوى واحد, بل على مستوياتٍ كثيرة. وهذه المستوياتُ تـتلخّص في ثلاث: العبيد والأجراء, والأحرار.

في المستويين الأولين تبقى الأخلاقُ المسيحيةُ تابعةً, أما في المستوى الثالـث فتكون مستقلة. وفي المستويين الأولين يكون دافع التصرفِ الخلقي إما خوفـاً مـن العقابِ أو أملاً بالمكافأة, أما في المستوى الثالثِ فالدافع هو الحرية. وفيهما يتـصرفُ الإنسان تصرفاً نفعياً, أما في المستوى الثالث فيتصرفُ بحريةٍ وإيثار. في البدءِ تبقى الحياةُ الخلقيةُ ناقصةً, أما في المستوى الثالثِ فتكتمِلُ وتُصبح أصيلةً, وفيـه تتجلـى الأخلاقُ بصفتها أخلاق الحرية الحقيقية.

منظور القيامة

إن للأخلاقِ المسيحيةِ منظوراً جديداً يميزها عن كل أخلاقٍ أخرى, إنه منظور القيامةِ الذي جاء به المسيح إلى العالم. ولذلك لا يستطيع الإنسان أن يحياها ما لم يضع نفسه في منظور القيامة, وأن يبرز رسالةَ القيامةِ للعالمِ ما لم يحيا شريكاً في قيامةِ المسيح. القيامةُ تُعاشُ في الكنيسةِ بنعمةِ الروحِ القدس. فالأخلاقُ المسيحيةُ, إذاً, هي أخلاقُ اتحادِ الإنسان بجسدِ المسيح وعيشِه بنعمةِ الروحِ القدسِ من خلال منظور القيامة.

الإعلان مصدرا للأخلاق

ولأن الأخلاقَ تلتجئُ إلى إعلان ا وخاصةً إلى شخص المسيح فهي لا تتجاهلُ مصدرها الأولَ والمباشر, أي الإنسان, بل تتجه إلى الإنسان الحق. فعوضاً عن الإنسان المتغربِ الذي هو مضطرب ومفكك خلقياً, يثُبتُ الإعلان الإنسان الكاملَ, أي المسيح, المعلِن عن وجودِ الإنسان الحقِ وعن خُلُقِه. وهذا الإنسان ليس وحدةً بيولوجيةً واجتماعيةً فقط, بل هو أيضا شخص على "صورةِ ا ومثالِه" متحرر حتى من طبيعتِه الخاصة.

ميزة الإعلان

هذا الرباطُ الصميم بين الأخلاقِ المسيحيةِ وإعلان ا يجب درسه درساً دقيقاً جدا. فإعلان ا يتم بطريقةٍ تربوية. وفي إطاره لا نواجه الإنسان مواجهةً فردية, بل مواجهة إنسانية. فكما يربي ا المرء ترقياً, هكذا يربي الإنسانيةَ كلها أيضا فيرفعها منزلة بعد منزلة. فيتضح لنا أننا لا نواجه الإعلان مواجهةً صحيحةً من خلال درسِه درساً جامداً من خلال العقائدِ أو التعاليمِ الخلقية, بل من خلال النظرِ إليه دينامياً في دائرةِ شركةِ ا المحبةِ للبشر.

تؤكد الكنيسةُ الأرثوذكسيةُ هذه الميزةَ الحيةَ للإعلان الإلهي من خلال ذكر القديسين. فالقديسون هم سماتٌ لحضورِ ا وشهود للإنسان الحق وسطَ العالم, غير

أنهم لا يقدمون إعلاناً جديداً للعالم, لأن إعلان ا قد اكتملَ بمجيءِ المسيح. ومع ذلك فلهم ميزة إعلانية لأنهم يحيون ويدركون حضور جسدِ المسيح في وسـط التـاريخ. فتجسد ا يبقى سراً على الدوام. إنه يعاش ويتجلى للعالمِ "على مقـدار قـوةِ الـذين خلصهم."[26]

يتضح مما قيل بأنه عندما ننظر إلى إعلان ا كمصدرٍ للأخلاقِ المـسيحيةِ لا نحسب تلك الأخلاق خزانةً للمبادئ والقوانين الخلقية, لأنها تاريخٌ لحـضورِ ا فـي العالم. وهذا التاريخُ يصفُه الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة. في العهـدِ القـديمِ يظهـر إعلان ا على نحوٍ غيرِ تام, لأنه "مؤدب يرشد إلى المسيح," أما في العهـدِ الجديـدِ والكنيسةِ فيجد تمامه وكماله. ولأن الكتاب والتقليد يتكلمان علـى إعـلان ا فهمـا المصدران الأساسيان اللذان تستقي منهما الأخلاقُ المسيحيةُ مادتَهـا وتبنـي عليهمـا محتواها. وبما أنهما لا يقدمان تعاليم لاهوتية مجردة, بل مذكراتٍ عن حضورِ ا في العالمِ لذلك ينبغي أن ندرسهما على هذا النحو.

a- الكتاب المقدس

العهد القديم

يقدم الجزء الأولُ من الكتابِ المقدس, وهو العهد القديم, المرحلةَ التمهيديةَ من إعلان ا . فالتعاليم الأخلاقيةُ تُصاغُ فيه من خلال علاقتِها بالعهدِ الذي أقامه ا مع شعبِه المختار. وتُصاغُ خاصةً من خلال الوصايا العشر التي تحوي الشروطَ الأساسيةَ التي تستلزم قبولَ شعبِ ا المختارِ لعهدِه. أما المعنى العميقُ للعهدِ القديمِ فيوجد فـي العهدِ الجديدِ, وذلك على ضوءِ ما تَنْظر إليه الكنيسة.

العهد الجديد

يتوجه العهد الجديد إلى الإنسان الممزق, الذي يحيا في عالمٍ ممـزق أيـضا. ويبشّر بوحدةِ العالمِ والإنسان. ففي المسيح يصبح الكثيرون واحداً كما يصبح كل واحدٍ

[26] مكسيموس المعترف, فصول متنوعة 12,1, مجموعة الآباء اليونانية 184,90.

محدداً لظهور الكثيرين. فما يحدثُ للكثيرين يحدثُ في داخل كل إنسان. وما يوجد في تاريخ خلاصِ العالمِ يواجه كتاريخ خلاصِ كل شخص. ولذلك يرتبطُ تعليم العهدِ القديمِ بحياةِ المسيحيين. فالمسيح لم يبطِلْ شريعةَ العهدِ القديم, بل أعلـن تجـاوز العلاقـةِ الناموسيةِ بين ا والإنسان. فالإنسان لم يعد خاضعاً للتسيير الدنيوي, بل اصبح ابناً مدعواً إلى أن يعيشَ وفق إرادتِه ليظهر قربه من إلهه وأبيه. العهد الجديد هو كتـاب الكنيسة, ولن يفْهم أو يفَسر تفسيراً صحيحاً بدون المسلماتِ الجديـدةِ التـي يقـدمها للإنسان. الإنسان مدعو إلى أن يعيشَ مواطناً في ملكوتِ ا مرتقياً في الكمال علـى مثال أبيه السماوي.[27] لكن ملكوتَ ا الذي يكتَتَب فيه المؤمن كعضوٍ فـي الكنيـسةِ, ينتمي جوهرياً إلى الدهر الآتي. فحياةُ المؤمنين في العالمِ هي تذوقٌ سبقي واسـتعداد للحياةِ المستقبلة. فالوصايا والنصائح الخُلُقيةُ في العهدِ الجديدِ لا تَهدِفُ إلى تقييدِ حريةِ الإنسان, بل إلى مساعدتِه في تحريره من كل حتميةٍ دنيوية, وفي إدخالِه فـي حريـةِ ملكوتِ ا . وبهذا تكون الوصايا والنصائح الخُلُقيةُ مؤشراتٍ حقيقيةٍ للحرية.

ب- التقليد الشريف

العقائد ودساتير الإيمان

في التقليدِ عندنا أولاً عقائد الكنيسةِ ودساتيرها. وهي ليست تركيباتٍ منطقيـة, إنما وسائلُ تُعبر عن الخبرةِ العميقةِ للكنيسة. فظهور البِدع والانشقاقاتِ دفعهـا إلـى صياغةِ إيمانِها صياغةً عقَديةً ودستورية. كل عقيدةٍ في الكنيسةِ وكل دستورٍ فيها إنما يعبر عن خبرةِ أعضائها الروحيةِ, القائمةِ على شخصِ المسيح والمُصانةِ فـي سـر الشكر الإلهي. ولذا لا يمكنُنا أن نفصلَ تفسير العقائدِ ودساتير الإيمان وكل النصوص المقدسة عن حياةِ الكنيسة. فعقيدةُ الثالوثِ الأقدسِ وعقيدةُ التجسدِ تعبران تعبيراً خاصاً عن جوهر الإيمان وتُعلنان عن أسسِ حياةِ المؤمنين وغايتِها في العالم, بكونهم أبنـاء

---

[27] "فكونوا أنتم كاملين, كما أن أباكم السماوي كامل." (متى 48:5)

ا   ومشاركين في ملكوته. ومن خلال دراستِنا وتفسيرِنا الـصحيح لعقائـدِ الكنيـسةِ ودساتيرِ إيمانِها نجد مؤشراتٍ مهمةً لحياةِ المؤمن في العالم.

القوانين المقدسة

إن للقوانين المقدسةِ أهميةً كبرى في الأخلاق المسيحية. فعبر الزمن صـاغتها الكنيسةُ لمواجهةِ حياةِ أبنائها وحل مشاكلهم. وهي تحوي, كما هو طبيعي, مادةً غنيـةً للأخلاق المسيحية. والحق, أن اهتماماً بها مناسباً مطلوب هنا لفهمٍ وتفسيرٍ صحيحين للروح الذي قاد الكنيسةَ في كل مرةٍ إلى صياغةِ القوانين المقدسة.

النصوص الابائية

أما المصدر الأوسع, الذي تستقي منه الأخلاقُ مادةً غنية, فهو نصوص آبـاءِ الكنيسة وكتابِها. فإلى جانبِ الاهتمامِ العام الذي تُثيره نصوصهم, هناك نصوص كثيرةٌ تتناولُ مواضيع خلقية خاصة.

عندنا مثلاً في أقدمِ النصوصِ المسيحيةِ الذي هو *"تعليم الرسل الإثني عـشر"* واحد من الكتبِ النموذجيةِ عن الأخلاقِ المسيحية. فهو يتميز بتعليمِه عن الطـريقين, وهذا ما نجده أيضا في *" رسالةِ برنابا"* وفي *"الراعي هرماس."* فالكتاب الأخيـر يقـدم بشكلٍ خاصٍ تحليلاً متناهياً في الدقةِ لمواضيعِ الأخلاقِ المسيحية.

والمحتوى الخُلُقي للتعليمِ المسيحي أكّده على نحوٍ خاصٍ المنافحون المناضلون الذين وضعوا مؤلفاتهم لدحضِ افتراءِ الوثنيين على المسيحيين. فهـؤلاء المنـافحون الذين جاؤوا في كثرتهم الكاثرةِ من أوساطٍ فلسفيةٍ ووجهوا كلامهم إلى الـوثنيين, لـم يهدفوا إلى صياغةِ التعليمِ المسيحي صياغةً دقيقة, بل إلى إظهارِه مرتبطاً بالمفـاهيمِ الفلسفيةِ السائدةِ في عصرهم, التي تأثروا بها إلى درجةٍ معينة.

إننا نجد الأبحاثَ المنهجيةَ في مؤلفاتِ اللاهـوتيين الإسـكندرانيين العظـام. فإقليمس الإسكندري في مؤلّفِه *"المربي"* يقدِم المسيح بصفتِه المربي الأعظم, المجـدد والمغير لوجوهِ الناسِ وأخلاقِهم. وكتاباه *"البسط"* و *"من هو الغني الذي يخلص؟*" لهما

أهميةٌ بالغةٌ في الأخلاق المسيحية. وأوريجنس في الجزءِ الثالـثِ مـن كتابـه *"فـي المبادئ"* يبحثُ مسألةَ الحريةِ الشخصيةِ ويرسم الخطوطَ الرئيسةَ للتعليمِ الخُلُقـي فـي المسيحية. لعظاتِه المتعددةِ أهميةٌ كبيرةٌ في الأخلاق المسيحية, وكـذلك كتابـاه *"فـي الصلاة"* و *"الحث على الاستشهاد."* وفي كتابِ كيرلس الأورشليمي *"التعليم المسيحي"* مادةٌ غنيةٌ, إذ يؤكد الكاتب ارتباطَ حياةِ المؤمنين الخُلُقية بأسرارِ الكنيسة. وهناك مادةٌ غنيةٌ في كتبِ التعليمِ المسيحي التي كتبها مؤلفون آخرون, وكذلك في الفصول الخُلُقيةِ والفصول المختلفةِ التي كتبها نسكيون وصحويون.

يعالج غريغوريوس اللاهوتي مواضيع خلقية في قصائدِه وعظاتِه. ويعالجهـا أيضا غريغوريوس النيصصي في كتبِه الآتية: *"تلقين الإيمان"* و *"سيرة موسى"* و *"في الكمال"* و *"القصد الإلهي"* و *"ما هو اسم المسيحي وعملهم؟"* وفي كتبٍ أخرى. واليهـا نضيفُ مصنفاتِ باسيليوس الكبير الخُلُقية والنسكية ومواعظِه, ومواعظ أمفيلوخيـوس إيكونيوس وسائر الآباء القديسين. إن لمؤلفاتِ يوحنا الذهبي الفم قيمـةً كبيـرةً فـي الأخلاق المسيحية, وعلى الأخص المؤلفات الخُلُقية *"في التوبة"* و *"الصلاة"* و *"المحبة"* و *"اليعازر والغني"* وغيرها. وأخيراً, تُثير نصوص مرقص الناسك ورسائل ايسيذور وس بيلوسيوتي اهتماماً كبيراً.

من بين الآباءِ الذين دونوا بالآتينية تُثير مصنفاتُ لاكتانيوس اهتماماً كبيراً, إذ يتناولُ في كتابِه *"التعاليم الإلهية"* المبـادئَ العامـةَ للأخـلاق المـسيحية. وكتـاب أمبروسيوس عن *"واجبات الاكليروس"* مهم أيضا, لأنه لا يتوجه إلى الاكليروس فقط, بل إلى كل المسيحيين أيضا. ويمكن اعتباره الكتيب الأولَ عن الأخلاق المسيحيةِ في إطارِ العالمِ الغربي.

أما المغبوط أوغسطين فقد دون كتباً عديدةً تتعلقُ مباشرةً بمسائلَ خلقية. فكتب مثلاً عن *"حرية الإرادة"* و *"عن أخلاق الكنيسة الجامعـة"* و *"أخـلاق المـانويين"* و

"الصلاح الزوجي" و *"البتولية المقدسة"* و *"الجهاد المسيحي"* و *"مقاومة الكذب"* و *"في الصبر"* و *"في الإيمان والرجاء والمحبة"* وغيرها.

وعندنا مادةٌ غنيةٌ في مصنفِ القديسِ كاسيان عن *"قوانين الحيـاة المـشتركة وعلاج الشرور الثمانية الرئيسة."* وما يستحقُ الذكر هو *"أخلاقيـات"* غريغوريـوس الكبير التي توضح التعليم الخلقي في إطار تفسيره لكتابٍ أيوب.

وفي الأدبِ السرياني ما يهم الأخلاق المسيحية هو مواعظُ البار أفرام السرياني ونسكيات اسحق.

ومن بين الكتاب الكنسيين هناك كتاب مهم وهو *"سلم الفضائل"* ليوحنا السينائي. وهناك الكتب الخُلُقيةُ ليوحنا الدمشقي, *"في الأرواح الـشريرة الثمانيـة"* و *"الفـضائل والرذائل"* و *"الموازيات المقدسة."* وهناك أيضا مؤلفا جرمانوس القـسطنطيني *"فـي مقصد الحياة"* و *"تلقين الإيمان."* وهناك مصنفاتُ سمعان اللاهوتي الحديث, ومباحـثُ نيكيتاس سيثاتوس. وما يستحقُ الذكر من كتب إفستاثيوس السالونيكي *"كلمـات فـي الصوم الأربعيني المقدس,"* ومن مؤلفاتِ غريغوريوس بالاماس *"الوصايا العشر فـي التشريع بحسب المسيح"* و *"الاتحاد الإلهي والمؤلـه"* و *"إلـى الراهبـة كـسياني"* و *"المباحث"* وعظته *"في الفضائل والأهواء المغايرة لها."* وهناك مادةٌ مهمةٌ في "مناقب" ثيوذوروس مليتيونيتي. أما كتاب نيقولا كباسيلاس *"الحياة في المسيح"* فهـو محطـةٌ رئيسةٌ في الأخلاق المسيحية. وهذا المؤلفُ ينقسم إلى سبعةِ فـصولٍ ويقـدم حيـاةَ المسيحي بكونها حياةً في المسيح. وأخيراً نجد مادةً غنيةً في الأدبِ اللاحقِ والحديثِ حتى القديس نيقوديموس الآثوسي ونكتاريوس البنتابولي.

سير القديسين

إن لسير القديسين قيمةً مهمةً جداً في الأخلاق المسيحية, إذ احتلـت مركـزاً مرموقاً في الكنيسة الأرثوذكسية. فإنْ وصِفَ القديسون بأنهم دلائلُ حيةٌ على الحيـاةِ المسيحيةِ, فإن سيرهم تُعد مذكرات مدونة عنهم. في شخصياتِهم وسِيرِهم تتجلى ميزةُ

الكنيسةِ وخُلُقُها. وإذا ما حافظنا على ربطِ الأخلاقِ المسيحيةِ بسيرِ القديسين عندها لن تتحولَ الأخلاقُ إلى علمٍ للواجباتِ الأدبيةِ أو الظرفية, فتساهم في الحفاظِ على حريـةِ الشخصِ وحريةِ الخُلُق. في سِيرِهم لا نجد المبادئَ النظريةَ للحياةِ المسيحية, بل نجـد الخُلُقَ المسيحي وسطَ ظروفِ الحياةِ المختلفة. ومن المميزِ أيضا أن القديسين اجترحوا العجائب, وبذلك أشاروا إلى أن هذه الظاهرةَ ليست اتفاقية, لأن العجائب تؤكِد إمكانيةَ تجلي الشخصِ وراء حتميةِ الطبيعةِ ومحدوديةِ الضرورةِ الكونيـة. فهـي علامـاتٌ لدخول الإنسان في حريةِ الروح.

غياب المنهج الخلقي

تجدر الإشارةُ إلى أننا لا نجد في تـاريخ الأدبِ الابـائي منهجـاً للأخـلاقِ المسيحية. وما هذا الغياب صدفةً, إنما يعبر عن حقيقةٍ أساسيةٍ, وهي أن المـسيحيةَ لا تُقيد الإنسان ولا تضع تعليمه عنها في أشكالٍ ومناهج مغْلَقة, بل تُقدِّم مسلماتِ الحيـاةِ الجديدةِ وتُبرز الخطوطَ العامةَ لظهورِها في العالم. وهكذا تكون كل محاولةٍ لمنهجـةِ الأخلاقِ محاولةً خاطئة. المحاولةُ هي في عيشِها وإظهارِهـا. ولا يـصِح أن تفهـم الأخلاقَ بالمنطقِ الباردِ, كما يفْهم التعليم الخلقي في أي منهجٍ فلسفي. فهي تبحثُ في أسسِ حياةِ الإنسان في المسيح الذي يحيا شريكاً فـي حيـاةِ ا بالإيمـان والرجـاءِ والمحبة.

اللاهوت والأخلاق

في الكتابِ والتقليدِ تُقدم الأخلاقُ مرتبطةً باللاهوت. فَفَـصلُ الأخـلاقِ عـن اللاهوتِ وتقديمها على نحوٍ مستقلٍ ظَهر بعد التمزقِ الـديني وتفـشي العلمنـةِ فـي الغرب. فبعد هذا التمزقِ فتش الغربيون عن رباطٍ جديدٍ يجعلُ المجتمع متماسكاً بـدلاً من الدين الموضوع جانبا. هكذا أقصي الدين عن نطاقِ الحياةِ الشخصيةِ واعتُبـرت الأخلاقُ عاملاً يوحد المجتمع. والواقع أن هذا الاعتبار لم يكن طوباوياً صـرفاً, لأن الودائع الروحيةَ القديمةَ قَدمت إمكانيةَ التلاقي عبر مبادئَ خلقيةٍ عامةٍ بنيت على أسس

التعليم المسيحي. لكن هذه المبادئَ لم تبقَ ثابتةً بعد أن تـم فـصلُها عـن اللاهـوتِ والإناسة. وهكذا ابتدأت تتزعزع شيئاً فشيئاً, على الرغم من كل المحاولاتِ التي بذلت من أجل تثبيتِها في الحق الطبيعي.

الوضع الأرثوذكسي

على المستوى الأرثوذكسي لا نجد مثلَ هذه الظاهرة. ولكن في الحكمِ العثماني ظهر مؤشر آخر. ففي فترةِ الحكمِ التركي الطويلةِ الأمد عمت روح المحافظةِ القاسيةِ التي كانت نتيجةً طبيعيةً للحفاظِ على الأرثوذكسية. وعندما تحرر الأرثوذكسيون من الحكمِ العثماني واتصلوا بشعوبِ الغربِ تأثروا بهم فأنموا روح التبعيةِ لهـم.وتحـت تأثير الطراز الغربي كُتبت كل الكتبِ الحديثةِ عن الأخلاقِ المسيحيةِ. ولـذلك قامـت محاولاتٌ جديدةٌ لتقويمِ هذا الانحرافِ واستعادةِ التقليدِ الأرثوذكسي وإحيائه

3- علوم مساعدة

الأخلاق والعقائد

ترتبطُ الأخلاقُ المسيحيةُ كعلمٍ لاهوتي ارتباطاً مباشراً بكل الفروع اللاهوتيـة. لكنها ترتبطُ ارتباطاً خاصاً بالعقائدِ, لأن للخُلُقِ المسيحي ارتباطاً صـميماً بالإيمـان. وهذه العلاقةُ تظهر من خلال الأشكال التالية:

1- ارتباطُ الأخلاقِ بالعقيدة.

2- تأسيس الأخلاق على قاعدةِ العقيدة.

3- قيام الأخلاق مقام العقيدة.

الشكلُ الأولُ هو الأصح والأكملُ, لكنه لا يخدمنا منهجيا. والثاني هو الأقـدم والأكثر إلفة. أما الثالثُ فهو الأحدثُ والأكثر جذرية. والانتقالُ من الشكل الثاني إلـى الثالثِ ظهر مؤخراً وقد ارتبطَ بالنظرةِ المسيحيةِ إلى الأخلاق. ومن الضروري هنا أن نُشير إلى أن وحدةَ الأخلاق والعقيدةِ لا تكونان في علاقتِهما فقط, بل فـي أصـلِهما المشترك. فالأخلاقُ والعقيدةُ تترابطان, لأنهما تُعبران عـن تعالـيمِ الكنيـسةِ الواحـدِ المختص بحياةِ المؤمنين وإيمانِهم.

الأخلاق والعلوم الأخرى

وإلى ذلك, يجب أن تكون الأخلاقُ منفتحةً على كل العلومِ الأخرى. فمادامـت تبحثُ في حقيقةِ الإنسان ومعنى وجودِه فطبيعي أن تُراعي نتائج العلومِ المختلفةِ التي تتناولُ النطاقَ الروحي والنفسي والحياوي للوجودِ البشري. وهكذا كانت الفلسفةُ علماً مساعداً للأخلاقِ فضلاً عن العلومِ الأخرى. فأهلُ النسكِ استخدموا الفلسفةَ منذ القرون الأولى, لا من أجل صياغةِ محتوى الإعلان في المسيح والدفاع عنه فحسب, بل مـن أجل إقامةِ نقاطِ ارتباطٍ بغيةَ إنماءِ الحوار مع العالمِ القائمِ خارج الكنيسة. وحتى اليوم تتضح حاجةُ اللاهوتِ, وعلى الأخص الأخلاق, إلى استخدامِ الفلسفة. فالفلسفةُ لا تقدر أن تقدم الخلاص للإنسان ولا أن تُظهر سبب وجودِه وغايتَـه, إلا أنهـا تـستطيع أن

تُساعده على فهمِ ضعفِه واضطرابِه أمام المشاكل الأساسـية للحيـاة, فتـساهم بهـذه الطريقةِ في طلبِ حلها خارج إطارِ إمكاناتِه الخاصة. واليوم نحتـاج إلـى اسـتخدامِ الفلسفةِ لا من أجل إقامةِ نقاطِ الارتباطِ بالعالم, ولا من أجل تقديمِ الحيـاةِ المـسيحيةِ للإنسان المعاصر على نحوٍ قريبٍ ومألوفٍ فحسب, بل من أجـل إعـادةِ اكتـشافِ الحقائقِ الأساسيةِ ووعيها في الأخلاقِ المسيحيةِ التي أمست مبعثرةً أو منـسيةً مـع مرورِ الزمن.

إن علوم التربيةِ والنفسِ والتحليل النفسي, التي أنارتَ جوانب مظلمة كثيـرة وكشفت أسراراً مهمةً في حياةِ الإنسان الواعية واللاواعية, هي علوم نافعةٌ جدا, على الرغم من الانحرافِ والتشويشِ الذين خلقَهما دائماً استعمالُهما غير المـسؤول. وفـي الوقتِ نفسِه يجب ألا ننسى بأن الأخلاقَ المسيحيةَ لا تستند إلى علمِ النفس, بـل إلـى الكيانةِ كما أعلنت في المسيح. أما علم الاجتماعِ وعلـم الـنفسِ الاجتمـاعي وعلـم السلالات البشرية والحقوق فتقدم مادةً غنيةً لمواجهةٍ أفضل للحياةِ الاجتماعيةِ ولبحثِ الحياة الخلقية. المرء لا يستطيع أن يوجد كفرد. ودراسةُ حياتِه الخلقيـةِ لا تقـدر أن تتجاهلَ التقاليد والعاداتِ والأعرافَ وكل العناصر التي تؤلفُ الحياةَ الاجتماعيةَ وتُعبر عنها.

العلم الخلقي اللاهوتي

ومن جهةٍ أخرى تستطيع الأخلاقُ المسيحيةُ أن تجد عناصر نافعة في الإناسةِ والحياوة. ولأن وجوده الجسدي-النفسي فريد, فطبيعي أن تكون المعلوماتُ الـواردةُ من هذه العلومِ نافعةً لعرضٍ وبحثٍ أكمل وانجح في الأخلاقِ المـسيحية. والمـسائلُ الخلقيةُ الناشئةُ عن الحياوة يجب أن تُبحثَ وتُقوم من وجهةِ نظرٍ مسيحية. واجبنا اليوم ألا نُهملَ علم البيئةِ وعلم السياسةِ حتى نقترب من الإنسان المعاصر ونوجه منظـوره توجيهاً صحيحا. وأخيراً يصح أن تستعملَ الأخلاقَ المسيحيةَ كل علمٍ يقدم من بحثِـه عناصر من الحقيقةِ تكون مناسبةً للإسهامِ في معرفةٍ أغنى للإنسان وحياتِه في العالم.

وما يجب ألا ننساه هو أن المعطياتِ غير اللاهوتية لا يمكن استخدامها كأسسٍ لتكوين موقفٍ من الأخلاق المسيحية. فأساسها هو الإنسان الجديد في المسيح والإعلان الإلهي في المسيح. والعلوم التي تستقي منها مادتَها استقاء مباشراً هي تلك التي تستند إلى هذه المعطياتِ وتبحثُ فيها من جوانب متعددة. أما حصيلةُ العلومِ الأخرى فيجب استخدامها كعلومٍ مساعدة, دون أن تحل محلَ الأسسِ الأخلاقية.

الجزء الأول

الإنسان وا

وجهة نظر عامة

مسلمة الموضوع

ليس الإنسان سبباً لوجودِه. فسبب وجودِه موجود خارجه, إنه موجود في ا . والإنسان ذو علاقةٍ با , لأنه خليقةُ ا . أما اللُه فلا يفرض عليه حضوره أو مشيئتَه, لأنه يريده حراً.

الخير والشر

ا خير ومصدر الخير. لكن الخير لا يمارس قسراً على الإنسان ولا يقيد حياتَه الشخصيةَ والاجتماعية. خلافاً لذلك يظهر الخير في حياتِه اليوميةِ أضعفَ من الشر. الشر يسود وينتصر أما الخير فيتبدد ويتقهقر. فالمسيحيةُ لا تتجاهلُ قوةَ الشر, لكنها لا تعترفُ بسلطتِه المُطلَقة. ليس للشر في المسيحيةِ مبدأٌ كياني, إنما له مبدأٌ خلقي. وهو ليس إثباتاً, إنما هو سلب. في الواقع هو أضعفُ من الخير.[28]

الأخلاق وعلم الكيان

ورغم أن الشر ليس له مبدأٌ كياني فهو يخلقُ أوضاعاً ملتويةً فيغرب الإنسان عن مصدر وجودِه أي عن ا . وهكذا تكتسب المشاكلُ الخُلُقيةُ التي يسببها حضور الشر خاصيةً كيانية. فيمتد الاهتمام بالأخلاق امتداداً ضرورياً إلى علمِ الكيان (الكيانة) وعلى الأخص إلى الإناسة.

مشكلة الأخلاق

إن مشكلةَ الأخلاق تكمن في التوجيهِ الصحيح لإرادةِ الإنسان الحرة, لكن هذا التوجيه هو في التحليل الأخير واهن وسطَ حكمِ الفناءِ والفساد. فالموتُ يستعبِد الإنسان ويبقيه أسير الخطيئة. وبذلك تظهر المشكلةُ الخُلُقيةُ بأنها مشكلةٌ كيانيةٌ يعجز الإنسان عن حلها. "لأن ما أريده لا أعملُه وما أكرهه أعملُه... فالخير الذي أريده لا أعملُه,

[28] يؤكد القديس ذياذوخوس فوتيكي بقوله: "إن طبيعة الخير أقوى من ممارسة الشر, لأن الخير موجود, أما الشر فغير موجود إلا في صنعه. (الفصول العرفانية 3)

والشر الذي لا أريده أعملُه. وإذا كنتُ أعملُ ما لا أريده, فما أنا الـذي يعملُـه, بـل الخطيئةُ التي تسكن فيه... وأنا في إنساني الباطن أبتهج بشريعةِ ا , ولكنـي أشـعر بشريعةٍ ثانيةٍ في أعضائي تقاوم الشريعةَ التي يقرها علي عقلـي ويجعلنـي أسـيراً لشريعةِ الخطيئة التي هي في أعضائي. ما أشقاني من إنسانٍ! فمن ينجيني من جـسدِ الموتِ هذا؟!"[29]

الخوف من الموت

يكمن أصلُ هذا التمزق الداخلي عند الإنسان, كما يشير بولس, فـي المـوت. فالخوفُ من الموتِ يمتد إلى الحياةِ كلها ويؤثر في علاقاتِـه بـالآخرين وبمحيطِـه. وحضارةُ الإنسان ونظم حياتِه وفنونِه وعلومِه وعاداتِه وأعرافِه ومتطلباتِه يحددها في التحليل الأخير الخوفُ من الموت. ولذلك يستحيلُ اكتمالُ الإنسان بدون تحريره مـن الخوفِ من الموت. على هذا النحو تُفْهم العلاقةُ العضويةُ بين الحياةِ الخُلُقيةِ والتجـددِ في المسيح.

قوة الأخلاق المسيحية

لا تستند الأخلاقُ المسيحيةُ إلى المعرفة وحدها أو إلى الحفـاظِ علـى بعـض القوانين أو المبادئ الخُلُقية, إنما إلى إعادةِ ربطِ الإنسان بمـصدر حياتِـه, أي بـا . بقربِ ا يجد الإنسان علاقتَه الصحيحةَ بالآخرين وبمحيطِه. فالأخلاقُ الموضوعانيةُ التي بلغت أوجها عند الفريسيين لا توافقُ روح المسيحية, بل تعارضـها معارضـةً مطلقة. أما الأخلاقُ المسيحيةُ فهي أخلاقُ الحياةِ الجديدةِ في المسيح التي لا تُحـددها الأمكنةُ والشرائع, إنما تتجاوزها لتصلَ إلى حريةِ الروح. فأهدافُها ليست اجتماعيـة, إنما معادية. لذلك غالباً ما تظهر في أعين الناس بأنها طوباوية. وهنـا تكمـن قـوةُ الأخلاق المسيحية, لأنها تغير وجه الإنسان ووجه حياتِه في العالم.

محتوى الجزء الأول

---

[29] (رومية 7:15–24)

في الجزءِ الأول سنتحرك ضمن البعدِ العمـودي المتعلـق بـصلةِ الإنـسان با . وسندرس قبلَ كل شيءٍ حضور الخير في العالمِ, ومعرفةَ الإنسان له وتحقيقَه في العالم. ومِن ثَم سنتكلم على خاصيةِ الأخلاق المسيحيةِ ومسلماتِ عيشِها ومظاهرهـا الأساسية. وأخيراً, سنشير إلى الإقتداءِ بالمسيح والقديسين وسننتهي بالإشـارةِ إلـى عمل الروح القدس في حياةِ المؤمنين.

1-حضور الخير

البحث عن الخير

إن رغبةَ الخيرِ فطريةٌ عند الإنسان.[30] وهذا يتضح على نحوٍ سلبي من خلال النفور الذي يشعر به المرء تجاه الشر. ولكن أين يوجد الخير, وكيف يـشارك فيـه الإنسان؟ حتى نتقدم في بحثِنا عن الخير يجب أن نلاحظَ ما يلي: يجب أن لا نُفـتشَ عن الخيرِ وكأنه فكرةٌ مجردةٌ, لأن الخير ليس فكرةً, إنما حقيقةٌ واقعة. وبكونه حقيقةً فهو يرتبطُ بحياةِ الإنسان. لو كان الخير فكرةً لما استطاع أن يرتبطَ بواقـع الحيـاة, ولكان موجوداً خارجها, ليؤثر فيها من الخارجِ إن استطاع. ولكن لما كان الخير حقيقةً واقعة, فهو يستطيع أن يتحد بحياةِ الإنسان وأن يجعلَها متلائمةً معه. فلا نبحثن عـن الخير خارج العالمِ فقط, لأنه لو كان موجوداً خارج العالمِ فقط, لكان بعيداً عنه وغير نافعٍ له. ولذلك ينبغي البحثُ عن الخير داخلَ العالمِ وفي البشر. فلو كان الخير فـي العالمِ دون علاقةٍ بالبشر لَما كان خيراً حقيقياً بالنسبة لهم. فهذا النوع من الخير الذي يقود إلى مطالب نفعيةٍ ويثير الخلافَ يكون سبباً لإلغائه ونسخِه. فحتى يكون الخيـر خيراً يجب أن يكون في متناول الناسِ وقريباً منهم على نحوٍ متساوٍ. وبذلك لا تنـشأُ مشاكلُ في علاقاتِهم عند الاشتراكِ فيه, إنما يكون سبباً لاتحادِهم ولرفعِ الحواجزِ التي تُفرقُ بينهم.

ا صالح وحده

---

[30] "كل فن ومنهج وكل فعل وقصد يحسن إذا رغب في الخير. لذلك كان الخير واضحا جليا, لكنه غير مشتهى كليا"

أرسطو, الأخلاق النيقوماخية, 1, 1, 1094.

والقديس باسيليوس الكبير يقول: "هكذا يرغب البشر طبيعيا في الأشياء الجميلة. فالخير جميل ومحبوب. والله صالح, والجميع يميلون إلى كل ما هو صالح. فهم إذا يميلون إلى الله." (القوانين المطولة 1,2 مجموعة الآباء اليونانية 31, 912)

الخير في التعليمِ المسيحي ليس فكرةً, إنما هو حضور شخصي. الخير هو ا نفسه. وبما أن ا صالح وحده[31] أو انه "الصلاح الحق أولاً, وطبيعتُه الصلاح "[32] فهو لا يوجد خارج العالمِ فقط, إنما في داخِله أيضا. والأولى أنه لا يوجد داخلَ العالمِ فقط, إنما داخل البشرِ أيضا. ويسبغُ على الناسِ أجمعين على نحو متساوٍ, لأنهم كلهم خلائقُ ا "على صورتِه ومثاله."[33] ولذلك كان التآلفُ معه سبباً لاكتمالِهم واتحادِهم به.

الخالق والمخلوقات

ولأن الإنسان مخلوقٌ, فسبب وجودِه موجود خارج ذاتِه. وفي الوقتِ نفسِه يرتبطُ الإنسان بالخليقةِ كلها ولا يفْهم بمعزلٍ عنها. الخليقةُ تصلُ إلى أوجِها في الإنسان وتكتملُ فيه, وهو يسود عليها. فهو قادر على أن يسود الخليقةَ دون الاعترافِ بأيةِ سلطةٍ أخرى سوى سلطتِه عليها. وفي هذه الحال ينسى طبيعتَه المخلوقةَ ويصبح وجهاً لوجه أمام الخليقةِ ويمارس سلطتَه مخضعاً كل مقاومةٍ تظهر أمام إرادتِه الفردية.غير أنه قادر على أن يسوس الخليقةَ دون أن ينسى سيادةَ ا الأولى التي تعود إليها سلطتُه. وبذلك يحافظُ محافظةً تامةً على وعي طبيعتِه المخلوقةِ ويرجع ذاتَه والعالم إلى ا حامداً شاكراً. هذا هو الموقفُ الكتابي والمسيحي من علاقةِ الإنسان بالعالمِ والخالق.

وعلاقةُ الإنسان بالعالمِ الذي يعود سبب وجودِه إلى ا أيضاً هي علاقةُ قربى وتضامن. إن لهذه الحقيقةِ التي أهملَها اللاهوتُ الغربي أهميةً رئيسةً في عصرنا الحاضر. فإبراز سلطةِ الإنسان دون الإشارةِ الموازيةِ إلى مخلوقيتِه وأهميةِ خدمتِه في

---

[31] (متى 19: 17, مرقص 10, 18)

[32] غريغوريوس النيصصي, حياة موسى 1.

[33] التكوين 1: 24.

العالمِ يقود إلى سوءِ فهمٍ مأساوي. لذلك كانت إعادةُ اعتبارِ الحقيقـةِ المـسيحيةِ إلـى الإنسان وعلاقتِه بالعالمِ ضرورةً ملحة.

على صورة ا ومثاله

وعلى مثال الكائناتِ كلها الإنسان هو خليقةُ ا , لكنه يتميز عنها لأنه مخلـوقٌ على صورةِ ا ومثالِه. اللفظتان العبريتان "الـصورة" و "المثـال" تترادفـان, لكـن الترجمةَ السبعينيةَ لهما أوجدت بعض الاختلاف. فلفظةُ "المثال" في السبعينيةِ ليـست تكراراً للفظةِ الصورةِ التي تُبرز وضعاً معطى للإنسان. عند آباءِ الكنيسةِ دلت لفظـةُ "الصورةِ" على الوضع الذي خلق ا الإنسان فيه, أما لفظةُ "المثال" فتدل ضمناً علـى رسالتِه الدينامية. وعندما يصلُ المخلوقُ على صورةِ ا إلى الكمال فإنه يبلغُ المثال.

إلى جانبِ لفظةِ "المثال" التي لها ميزة دينامية فإن لفظـةَ "الـصورة" تُظهـر علاقتَها بالنموذجِ الأصلي. واللفظتان ينظر إليهما من خلال علاقتِهما بما يمثلان, أي با منهل الصلاح. وبما أن الإنسان خُلِقَ على "صورةِ ا ومثالِه" فهو ليس مجـرد كائنٍ طبيعي, بل هو كائن لا يمكن عزلُه عن ا . والخير يظهر من خـلال علاقتِـه با , وعلى الأخص بكلمةِ ا , الذي "هو صورةُ ا الذي لا يرى,"[34] والنموذج الأولي لتكوينِه. فكما يكون النموذج هكذا تكون الصورة. ولذلك لا يوجد كفردٍ بل كـشخصٍ ذي علاقاتٍ حبية. كل الأمور الخيرةِ تتلخص في المحبة.[35] ا الصالح وحده ومنهلُ كل صلاحٍ هو محبةٌ في الوقتِ نفسِه. والإنسان بكونِه مخلوقاً على صورةِ ا ومثالِه يشارك بإبداعٍ في صلاحِ ا الذي يقدم إليه كشركةِ محبة. في إطـار هـذه الـشركةِ تندرج أعمالُ ا كلها التي هي خلائقُ محبتِه ورموز لشركةِ الإنسان مع ا .

الإثبات والتنزيه

---

[34] كولوسي 1: 15

[35] يقول مكسيموس المعترف: "المحبة غاية الخير, فهي عند الله الغاية الأخيرة للخير, وسبب كل صلاح للسالكين فيها, إذ تقودهم وتقربهم وتجمعهم." فصول مختلفة 1, 26 , مجموعة الآباء اليونانية 90, 1189 .

تـوكيداً نقولُ بأن ا صالح ومنهلُ كل صلاحٍ ووجود. لكن ا موجـود وراء كل وصفٍ بشري, ووراء كل صلاح. فمعنى الصلاحِ نسبي تمامـاً مثـل المعـاني البشرية الأخرى. لذلك قد يحملُ صلاح ا انطباعاً خاطئا. ولتجنبِ ذلك يوصـفُ ا بأنه فوقَ كل صلاح. وبذلك يكون ا فوقَ كل ما يعتبر صالحا. في اللاهوتِ الإثباتي نؤكد أن ا صالح وكلي الصلاح. أما في اللاهوتِ التنزيهي الـذي يـتمم اللاهـوتَ الإثباتي فا يوجد فوقَ كل خيرٍ وصلاح. فا ليس صالحاً كأي صلاحٍ فـي العـالم. يقول ديونيسيوس الأريوباغي عن ا : "بأنه سبب الكل وهو في الكل. فهو ليس بـلا جوهرٍ وبلا حياةٍ وبلا عقلٍ وبلا روح. وهو ليس جسماً, إذ لا شكلَ ولا نوع لـه ولا جنس ولا كم ولا حجم... فهو يحيا وليس حياة. ليس جوهراً ولا دهـراً ولا زمنـا. وليس اتصالُه فكرياً. إنه ليس علماً ولا حقاً ولا ملكاً ولا حكمة. ليس واحداً ولا وحدة. وليس لاهوتاً أو صلاحاً أو روحاً كما نظن عادة."[36] أما سمعان اللاهـوتي الحـديثُ فيقولُ بأنه "الوجود اللاموجود" والأقنوم اللامتأقنم" و "الماهيةُ التي فوق الماهية."[37]

ا لا يحد ولا يحصر منطقيا, إنما ننعتُه بالصلاحِ لنلبي الحاجةَ الداخليةَ عنـد الإنسان ليفكر فيه ويتحدثَ عنه. كل وصفٍ كهذا هو وسيلةٌ لعلاقـةٍ حبيـةٍ بـين الإنسان وا .[38] ليس الإثباتُ المنهج المُفَضلَ بل التنزيه.[39] الإثباتُ الذي لـه صـفةٌ تربويةٌ يكتملُ بالتنزيه. والتنزيه لا يعارض الإثبات, إنما يؤكد بعده الروحي.

---

[36] اللاهوت الصوفي 4, مجموعة الآباء اليونانية 3, 1040

[37] المصادر المسيحية, الجزء 122, ص 100

[38] "إننا لا ننسب الصلاح إليه وكأننا نطبقه عليه, إنما برغبة نفهم ونتحدث عن تلك الطبيعة التي لا يعبر عنها, ونخصص لها في الدرجة الأولى أكثر الأسماء وقارا .إننا نتفق مع اللاهوتيين في ذلك فننعم بحقيقة الأمر. فهؤلاء فضلوا الارتقاء بإثبات صفاته... لكنه يسمو على كل اسم وكلمة وعرفان." ديونيسيوس الأريوباغي, في الأسماء الإلهية, 12, 3, مجموعة الآباء اليونانية 3, 981.

يضع التنزيه ا فوقَ كل مخلوقٍ وحتى فوقَ الصلاح. فا يعلو على الحـس ويوجد فوقَ كل معنى للخير. أما الإنسان فيصِفُ الخير دائماً من خلال علاقِته بالشر, وبالأولى من خلال ما يناقضه.لكن الشر ليس نقيض الخير, إنما هو إنكار له. والخير الذي يتماهى مع ا لا نهايةَ له ولا حصر ولا حد. ولكن حتى يدرك المـرء الخيـر يقارنُه بفقدانِه, أي بالشر.[40]

طبيعة الشر

ليس للشر مبدأٌ كياني, لكنه يظهر كتخلٍ عن الخير. وهـذا التخلـي يفتـرض وجود الحريةِ والاستقلالية. وبما أن البشر يتصرفون بحريةٍ فـالتخلي عـن الخيـر وظهور الشر يصبحان ممكنين. "لا وجود للشر في ذاتِه خارج النية."[41] هكذا يتـأقنم الشر غير الموجودِ في ذاتِه في الكائناتِ الحرة التي تتخلى عن الخير. وعلاوةً علـى ذلك, فإبليس لم يكن شريراً منذ البدء, إنما أصبح شريراً بابتعادِه عن ا الـذي هـو صالح ومنهلُ كل صلاح.ما الشر جوهراً, إنما هو عرض يظهر من خلال الانحرافِ عن الطبيعةِ التي خُلقنا عليها.

محاربة الشر

---

[39] يقول مكسيموس المعترف: "إن كان من الضروري أن نعرف بأن الله يختلف عن المخلوقات, فيجب أن ندرك بأن منزلة الفائق على الكائنات تتميز عن منزلة الكائنات, ومنزلة الكائنات تختلف عن منزلة الفائق على الكائنات." ألمسارة, المقدمة , مجموعة الآباء اليونانية 90, 664.

[40] "ليس لكل خير حد بطبيعته, إنما يحد بالمقارنة بما يناقضه, كما هي الحياة بالنسبة إلى الموت والنور بالنسبة إلى الظلمة. وكل صلاح ينتهي عامة بكل ما يفهم بأنه مناقض للخير. فكما أن نهاية الحياة هي بدء الموت, هكذا يكون التخلي عن الفضيلة بدءا لطريق الشر. ولذلك لا يكذب قولنا بأنه يتعذر فهم الكمال من خلال الفضيلة, لأن ما يدرك بالحد والمنتهى لا يعد فضيلة." غريغوريوس النيصصي, سيرة موسى, مجموعة الآباء اليونانية 44, 300.

[41] غريغوريوس النيصصي, تفسير سفر الجامعة 7, مجموعة الآباء اليونانية 44, 785.

إن الفهم الصحيح للشر هو مسلمةٌ لمحاربتِه ومقاومتِه. لا يمكنُنـا أن نحـارب الشر إذا اعتبرناه موضوعاً خارج أنفسِنا. والنظرةُ التي تقولُ بأن الإنـسان الخُلُقـي يصبح عديم الخُلُق عندما يقيم علاقةً بالآخرين هي نظرةٌ مثاليةٌ موجودةٌ عند الفيلسوف كانط. هذه النظرةُ تقود إلى تفريقِ الإنسان الخُلُقي عن المجتمعِ اللاخلقي, وإلى القول بأن الخليقةَ تنمو بمحاربةِ الشرِ عند الآخرين وفي المجتمع. هذه النظرةُ المثاليةُ هـي نظرةٌ لاخلقية تعاكس النظرةَ المسيحية. فالشر المرتبطُ بالإرادةِ الحرةِ تحاربه الإرادةُ نفسها محاربةً جوهرية. ولأن محاربةَ الشر بالإرادةِ الحرةِ لا تتحققُ إلا عبر الإنسان الحر, فكل مواجهةٍ أخرى للشر تكون خاطئة.

هذا الموقفُ لا يدل على أن الإنسان قادر على الانحصارِ في ذاتِه غير مبـالٍ بكل ما يجري حوله, فمتى شارك المرء المجتمع شارك الشر أو الخير فيه. فحياتُـه وثيقةُ الصلةِ بالخيرِ أو الشرِ الموجودين في محيطِه.أما أسباب الـشر الاجتمـاعي أو الخير الاجتماعي فتتأصلُ في كل منا وفي موقِفنا من الآخـرين.فطبيعـي أن يكـون لمحاربةِ الشر أو إنماءِ الخير فينا امتداد اجتماعي. وإذا اقتصر المرء على محاربـةِ الشرِ في ذاتِه غير مكترثٍ بمحيطِه فهو لا يحارب حتى الشر الموجود فيـه بأبعـادِه المختلفة, لأن الشر يرتبطُ بالمجتمع مثلما ترتبطُ ذاتُه به. ما الخطيئةُ علامـةً فرديـةً, إنما تجمع الجنس البشري. لذلك يرى المؤمن خطيئـةَ الآخـرين وكأنهـا خطيئتُـه, فيحاربها في ذاتِه مشاركاً في الجهادِ الإنساني ضد الشر.

ا والتمييز بين الخير والشر

بما أن ا هو فوق التمييز بين الخيرِ والشرِ الذي ظهر بسقوطِ الإنسان, فهـو أيضا فوق التضادِ الجدلي بينهما.يشير غريغوريوس النيصصي إلى أنـه لا نقـيض لصلاحِ ا , ولا نقيض لطبيعتِه.[42]فصلاحه ليس نقيضاً للشر, إنما وراء كل تمييزٍ بين الخيرِ والشر.

[42] "لا نقبل ما هو نقيض الألوهة" في حياة موسى, مجموعة الآباء اليونانية 44, 301.

النظرة الروحية إلى الخير

إلى جانب الإثباتِ والتنزيهِ هناك الصوفيةُ التي تنمو من خلال خبرةِ حـضور ا , أي من خلال رؤيتِه. إنها تنقلُ المرء إلى شركةٍ مباشرة معه, وتجعله شريكاً فـي صلاحِه. عندما لا يشارك المرء ا مشاركةً شخصيةً فإنه يواجهه كخيـرٍ أو كخيـرٍ أسمى ويحولُه إلى صنم. هذا الصنم يوضع في مجموعةِ قوالب القيم الموضعةِ التـي تلْغي ا جوهرياً وتجعلُ الشركةُ معه مستحيلة. لذلك دان المسيح بشدةٍ أصنام الحيـاةِ الدينية والخلقية المشيئةِ وكذلك التقوى والصوم والصلاة التي قدمها الفريسيون بكونها قيماً قائمةً بذاتها, أي بكونها خيراً مستقلا, لا بكونها وسائلَ للعلاقةِ بـا . وبمـا أن نظرةً كهذه للحياةِ الدينيةِ والأخلاقيةِ تُثير الشعور بالاكتفاءِ الذاتي وتسهلُ الحكم علـى الأشخاصِ وتنتشر بسهولةٍ بين الجماهير, وعلى الأخص بين الأتقياءِ, فهي تُنمي فـي الوقتِ نفسِه الرياء.

الفضائل الدينية

بما أن الفضائلَ المسيحيةَ صالحةٌ فهي تحوي قيما. لكن ما هي القيم؟ هل هناك شيء صالح في ذاتِه؟ نعرف من الخبرةِ أن الشيء نفسه يمكن أن يستخدم كخيـرٍ أو كشر. وقد يكون ذا قيمةٍ أو عديم القيمة. مثلا قد تُستخدم القـوةُ النوويـةُ اسـتخداماً صالحا, ولكن يمكن أن تتحولَ إلى شرٍ مشين. وهذا ينطبقُ على كل الأمور الأخرى, بما فيها القيم الدينية والأخلاقية.

لا صالح إلا ا وحده أو ما يتصلُ با , أي الفضيلة. ولا شر إلا رفـض ا والتخلي عنه, أي الخطيئة. "لا شر في الحياةِ إلا الخطيئة, وإن كان مسبباً الأذى وحتى لو كان الموتُ نفسه."[43] للفضائل الدينيةِ قيم عظيمة, عندما توضع في منظور القيامة,

[43] غريغوريوس بالاماس, الموعظة 16, مجموعة الآباء اليونانية 151, 213.

لا عندما نواجه موضوعيا. في التحليل الأخير, تكتسب الفضيلةُ معنى وتُثمِر إذا أنمت التواضع عند الإنسان.[44]

الخير والعالم

إننا نجد ا منهلَ كل خيرٍ فوقَ كل تمييزٍ بين الخير والـشر.وهكـذا يطـرح السؤال: كيف نجد الخير في العالم, وما هي علاقةُ العالمِ به؟ في جوابِنـا عـن هـذا السؤال نقول: الخير الموجود في العالمِ لا يتماهى مع ا , ولكن لا يمكننا فصلُه عـن ا . فهو مدين بوجودِه وحفظِه إلى قوةِ ا الخالقةِ والمُعتنيةِ. فكل الخلائـق تـشارك مبدئياً في صلاحِ ا وتعلنُه في العالم إعلاناً طبيعيا. لكن فوقَ الإعلان الطبيعي هناك الإعلان المباشر الفائقُ على الطبيعة, وهناك مجيء ا إلى العالمِ وتجليه للناس.الخير, إذاً, يظهر في العالمِ وفي التاريخ كثمرٍ لقدرةِ ا الخالقة والمعتنية وكتعبيرٍ عن نعمتِه المُخلصة والمؤلهة.

يصفُ الناس عادةً كل ما يسد حاجتَهم ورغبتَهم بأنه شيء صالح. المواجهـةُ المستقلةُ لخيراتِ العالمِ دون البحثِ عن مصدرِها, أي عن ا , ينمـي الماديـة, أمـا تأليهها فينمي الوثنية. الوثنيةُ والماديةُ ظاهرتان تتغيران وتتبدلان في الوجـهِ فقـط. وبخلافِ ذلك, تتحققُ النظرةُ المسيحيةُ إلى العـالمِ بالارتفـاع مـن الحـسياتِ إلـى اللاحسيات, ومن المخلوقاتِ إلى اللامخلوقاتِ ومن الفانياتِ إلى الخالدات. فـي هـذا الإطار نواجه جمالَ الأرضياتِ كوسيلةٍ للارتفاع والسمو "اشتهاء لذاك الجمال الـذي تُخبر السماء عن مجدِه ويعلن الجَلَد والخليقةُ بأسرِها عن معرفتِه."[45] للوصول إلى هذه الغايةِ لا بد من تحقيقِ شيئين: إرادة الإنسان ومساعدة ا . يتساءلُ النيصصي فيقول: "كيف يستطيع البشر أن يدنو من السماوياتِ إن كان مسمراً في الأرضـيات؟ كيـف

---

[44] يتحدث اسحق السرياني عن مكافأة الفضيلة فيقول: "لا تعطى للمرء المكافأة لجهاده أو لفضيلته, بل لتواضعه المولود منهما, فإن أعوز المرء التواضع كانت كل أموره باطلة." (الموعظة 37, نسكيات اسحق السرياني)

[45] غريغوريوس النيصصي, في البتولية 11, مجموعة الآباء اليونانية 46, 365.

يستطيع أن يرتفع إلى السماءِ إن لم يركب جناح نعمةِ الروح القدس؟"[46] عندما يـ ؤمن الإنسان با   ويواجه العالم في ضوءِ الإيمان تأخذُ الأشياء معنى إيجابيـ ا, حتـى لـ و ظهرت مزعجةً مؤذية. وعندما يبتعد الإنسان عن ا   ويجابه العالم من مركزيةِ أنـ اه تأخذُ الأمور معنى سلبيا, حتى لو اتصفت بأنها خبرةٌ خيرةٌ ونافعه. فالخير لا يحـ دد تحديداً جامدا, إنما ديناميا. والمشاركةُ في الخيرِ هي جوهر الفضيلة.

[46] المرجع نفسه.

2- معرفة الخير

معرفة الخير ومعرفة ا

بما أن الخير مماثلٌ , لذلك تُماثلُ معرفةُ الخيرِ معرفةَ ا . فمعرفةُ الخيِر هي معرفةُ ا , ومعرفةُ ا هي معرفةُ الخيِر أيضا. وبما أن الخير ليس موجوداً خـارج الإنسان, أي ليس موضوعاً ما, وبما أنه ليس شيئاً, إنما هو شخص يتصلُ بالإنـسان, لذلك لا تتحقّقُ معرفتُه بالتجريدِ العقلي وبالقياسِ المنطقي. في الواقعِ معرفةُ الخيرِ هي حدثٌ كياني يتحققُ بالعلاقةِ الشخصيةِ والمشاركة. هذه العلاقةُ الشخصيةُ التي دشـنَها ا عندما أعلن وكشف عن نفسِه, وهذه المشاركةُ الشخصيةُ التـي تنمـو باسـتجابةِ الإنسان لهذا الإعلان يقدمان له معرفةَ ا وبالتالي معرفةَ الخير.

إعلان ا

إن إعلان ا تعبير عن المحبةِ الثالوثية. ومعرفتُه تُصبح ممكنةً عند الاستجابةِ لتلك المحبةِ الثالوثية. والمطْلَب الخُلُقي هو تغيير علاقاتِ الإنسان بـالآخرين لتكـون علاقاتِ محبة وفقَ المثال الإلهي. لكن ا لا يعرفُ في جوهرِه, إنما يعرفُ من خلال قواه وأفعالِه. فقوى ا التي تُكْشَفُ للعالمِ تُسمى نعمة.ونعمةُ ا وقدرتُه همـا غيـر مخلوقتين, لأن ا غير مخلوق. أما خلائقُه التي هي ثمار قدرتِه فهي مخلوقة. وعندما يتصلُ الإنسان بقدرتِه فهو يتصلُ اتصالاً مباشراً بالخيرِ فيكتسب إمكانيةَ معرفتِه.

الطبيعي والفوطبيعي

نميز عادةً في تعليمِنا المسيحي بين إعلان ا الطبيعي وإعلانِه الفائقِ على الطبيعة. فإعلان ا الطبيعي يتجلى في الخليقةِ. أما الإعلان الفائقُ على الطبيعةِ فينكشفُ في قوتِه الخلاصية المجددة والمؤلهة للبشر. إن ا نفسه هو مصدر هـذين الإعلانين. ليس الكتاب المقدس والتقليد الشريفُ مـصدري الإعـلان الفـائق علـى الطبيعة, إنما يحملان ما أعلنَه ا لنا.

يتم الإعلان الطبيعي للإنسان من خلال العالمِ المخلوق أو من خلال الإنسان نفسِه. أما الإعلان الفائقُ على الطبيعةِ فيتم من خلال ظهور ا وتجليه. بناء عليه, تكون المعرفةُ الطبيعيةُ للخير مشتركةً عند البشر جميعاً. أما المعرفةُ الفوطبيعية فتُعطى لمن يقبلُ الإعلان الفوطبيعي. والإعلان الطبيعي عاجز عن أن يخلص الإنسان. أما الإعلان الفائقُ على الطبيعة فيقدم له الخلاص والتجديد.لا يتعارض هذان النوعان من الإعلان, إنما هناك وحدةٌ نابعةٌ من مصدرهما المشترك, أي من ا نفسِه. الإعلان الفائقُ على الطبيعةِ لا يبطلُ الإعلان الطبيعي, إنما يضفي عليه قيمةً وقدراً. فحتى يجد الإعلان الطبيعي معناه الحقيقي, فيجب أن يدرج في الإعلان الفائق على الطبيعة. ومتى يتصل الإنسان با يتحققْ من حضوره المباشر في حياتِه الشخصيةِ وفي العالمِ المحيطِ به. وإذا لم يتحققْ ذلك, فحضور ا في الخليقةِ يبقى غير كافٍ لإعادةِ الإنسان الساقطِ إليه.

في الإنسان وفي العالمِ المخلوق تكمن الإمكانياتُ الأولى لمعرفةِ ا ومعرفةِ صلاحِه.[47] وبما أن منطلقَ تأمل البشر في ا هو شخصه المخلوقُ "على صورةِ ا ومثالِه", فعليه أن يفكر ولو بشكلٍ غير واعٍ في الحق والخيِر وا . بيد أن هذه المعرفةَ تبقى غير كافية. فهو لن يقدر أن يجد ا ما لم يتلقَ العون من لدنه.[48] كل الإمكاناتِ التي تُقدمها الطبيعةُ البشريةُ الساقطةُ لا تكفي, لكنها تُصبح مفيدةً بنعمةِ ا في الكنيسة.فخارج الكنيسةِ تبقى مجرد مؤشراتٍ تشهد لأصل الإنسان السامي, لكنها لا تقدر أن تقوده إلى الحق.

أ-الخليقة واسطة لمعرفة الخير

---

[47] "منذ البدء كان لنا معلمان هما الخليقة والضمير. ولم يترك أيهما صوتا, إنما علما الناس بصمت." يوحنا الذهبي الفم, كلمة إلى حنة 1, 3, مجموعة الآباء اليونانية 54, 636.

[48] "لا تكفيك الطبيعة الإنسانية حتى تفتش عن الله وتجده وجودا واضحا إن لم يساعدك من تبحث عنه." أوريجنس, ضد كلسوس 7, 42.

تقود الخليقةُ البشر إلى إيمانٍ نسبي. ولذلك كتب الرسول بولس: "منذ خلق ا العالم, وصفاتُ ا الخفية, أي قدرتُه الأزليةُ وألوهيته, واضحةٌ جليةٌ تُدركُها العقـولُ في مخلوقاتِه."[49] العالم, إذاً, علامةٌ ومدرسةٌ تقود إلـى الـشعور بالمحبـةِ الإلهيـةِ والصلاح. وهكذا يلاحِظُ القديس أثناسيوس الكبير أن كلمةَ ا خَلَقَ الأشياء وحفِظَهـا, ولذلك "من يتأمل الخليقةَ تأملاً صحيحاً ير بالضرورةِ الكلمةَ الذي خَلَقَها, فبالابن يبـدأ إدراك الآب."[50] فالكلمةُ الآتي من الآب وكأنه ينبوع للصلاح يعلِن للعـالمِ الـصلاح الإلهي. والعالم أيضاً الذي هو عملُ محبةِ ا لهو رمز لمحبتِه للبشر.

إن الخليقةَ صنع ا وفعلُه, وبها يعرفُ الإنسان ا . هـذا يعنـي أن الخليقـةَ واسطةٌ رمزيةٌ لاتصال البشر با , فهي تشهد له من غير أن تكون إلهاً, مثلما يـشهد عملُ الفنان للفنان من غير أن يماثِلَه. الأثر الفنُي لا يظهر خصائص الفنان فحـسب, إنما يظهر بشكلٍ سلبي أنه مختلفٌ عنه. وهكـذا لا تكـشفُ الخليقـةُ خـصائص ا فحسب, بل تُظهر أنه مختلفٌ عنها. فمن خلال الخليقةِ يدعو ا الإنسان إلـى حـوارٍ معه, ومن خلال موقِفه الصحيح من الخليقةِ يقترب من الآخرين ويرتفع إلى ا .

الشعور بالخير وبالشر

تبعثُ الخليقةُ التي تقود البشر إلى معرفةِ ا معرفةً نسبيةً على الشعور بغيابِه. وهذا الشعور يحس به المرء في حياتِه بكونه شعوراً بحضور الشر. لكـن الـشعور بحضور الشر يفترض الشعور بالخير. وهذا الشعور يقوى بمقدار ما يكون الـشعور بالخير قويا. لذلك يتوقُ المرء الذي يملك شعوراً بغيابِ الشر إلى التفتيشِ عنه.

الحق, أن الإعلان الطبيعي لا يوصلُ إلى علاقةٍ مباشرةٍ وشخصيةٍ با . فكثيراً ما يتوقفُ البشر عند حامل الإعلان ويجعلُه موضوع عبادتِه, فيعبد الخليقةَ مـن دون

---

[49] (رومية 1: 20)

[50] "ضد الآريوسيين, المقالة الأولى 12 مجموعة الآباء اليونانية 26, 36.

الخالق.وحتى لو تخطى المرء الخليقةَ بقواه الخاصة فلن يقدر على الاقترابِ مـن ا وعلى مشاركتِه مشاركةً فعلية. فمسيرتُه تبقى غير ثابتةٍ, ولن توصلَه إلى إدراكِ حقيقةِ ا . هذا لا يعني أن الباحثَ عن ا والخيرِ في الطبيعةِ جالس في ظلامٍ كلي, غير أن هذه المعرفةَ المكتسبة تبقى جزئيةً وغير واضحة. وهي لن تكتملَ إلا في إعـلان ا الخلاصي للأنبياءِ والرسل الذي يتحققُ في التاريخ ويكتملُ في المسيح داخلَ الكنيسة.

ب-الإنسان واسطة لمعرفة الخير

الإنسان الناطق

يكتسب الإنسان معرفةً أكملَ من خلال معرفةِ ذاتِه. فمتى تفحص ذاتَه تأكد من صلاحِ ا وحكمتِه.[51] فقربى الإنسان من ا , الكامنة في خَلْقِه على "صـورةِ ا ومثالِه", لم تختفِ بسقوطِه. فحتى بعد السقوطِ لم يكف الإنسان عن أن يكـون علـى صورةِ كلمةِ ا . وهنا تبلغُ منطقيةُ البشرِ قِمتَها. بكلامٍ آخر, البشر كائن ناطقٌ, لأنـه يصور الكلمة.[52] فمنطقيتُه تحافظُ على كمالِه بالقياسِ إلى محافظتِه على صلتِها بكلمةِ ا .فمقامه كسيدٍ على الكائناتِ واشتراكُه في الخَلْقِ وتلخيص الكائناتِ في وجودِه هي ظهور للإنسان الناطقِ بصفتِه صورة الكلمة. لذلك يتوافقُ تجديد البـشر مـع رفـع اللاعقلانيةِ عنه ومع صيرورتِه كلمة.[53]

دعوة الإنسان

ومع ذلك, فهناك فارقٌ جوهري بـين ا والإنـسان, لأن ا غيـر مخلـوقٍ والإنسان مخلوقٌ. ا ذاتي الصلاح, أما الإنسان فيخرج من العـدمِ إلـى الوجـود,

---

[51] "المرء لا يعي وجود الله من السماء والأرض بمقدار ما يعيه من خلال تكوينه الخاص." القديس باسيليوس, ستة أيام الخلق 9, 6 مجموعة الآباء اليونانية 29, 204.

[52] انظر القديس باسيليوس الكبير, في تجسد الكلمة 5, مجموعة الآباء اليونانية 25, 101.

[53] انظر أثناسيوس الكبير, ضد الآريوسيين 3, 33 مجموعة الآباء اليونانية 26, 396

ويصبح صالحاً عندما يشارك في الصلاح. فعظمةُ الإنسان لا توجد في طبيعتِه, بـل في دعوتِه. لذلك لا تكتملُ أهليتُه من خلال إنماءِ قدراتِه, إنما مـن خـلال اسـتجابتِه لدعوةِ ا , التي لا تُرغِمه أو تُكرهه, إنما تتوقع منه استجابةً حرة.

يصفُ آباء الكنيسةِ الإنسان الأولَ بأنه "طفلٌ" في الصلاحِ والخيـر. فهـو ذو طبيعةٍ صالحةٍ, لأن خالقَه صالح ومصدر الصلاح. فالمشاركةُ في الخيِر عملٌ خلاقٌ. وهكذا تكون حياتُه الخُلُقيةُ خلاقةً وحرة. " إننا نصنع الفضائلَ ونحن في الطبيعةِ, لأننا نملك قوةً طبيعيةً لتحقيق ذلك."[54] لكن إهمالَ الفضيلةِ والخضوع للخطيئةِ همـا مـن الأسقامِ الروحية. ولذلك كانت ممارسةُ الفضيلةِ علاجـاً للإنـسان الـساقطِ بأهوائـه واستعادةً لوضعِه الطبيعي.[55]

المعرفة الطبيعية للخير

نقولُ عادةً إن الإنسان يميلُ إلى الشر, وهذا قولٌ صادقٌ. ومن ناحية أخـرى يصدقُ أيضا القولُ بأنه يرغب في الخيرِ الذي خُلِقَ من أجلِه. فالمعرفةُ الطبيعيةُ عنـد كل إنسانٍ ناطقٍ هي من بزورِ الخير.[56] وإذا ما وجِد خلافٌ في تحديدِ هويةِ الخيـر فهذا يعود إلى الضعفِ البشري.فكما تكون صحةُ حواسِ الجسدِ شرطاً للوثـوق بهـا,

---

[54] مكسيموس المعترف, الفصول 1, 72, مجموعة الآباء اليونانية 90, 1209 .

[55] "كل فضيلة هي ترياق لأسقام النفس والأهواء الخبيثة المتأصلة من جراء التواني والكسل. " غريغوريوس بالاماس, الموعظة 52.

[56] اسحق السرياني, المقالة 18 .

هكذا تكون صحةُ حواسِ النفسِ شرطاً للوثوق بها.[57] لذلك قـدم اسـحق الـسرياني المعرفةَ الروحيةَ وكأنها "بنتُ صحةِ النفس"[58]

التدين والتعبد

إن في أعماقِ الإنسان تعلقاً با , وذلك بصرفِ النظرِ عن قبولِه الـدائم لهـذه الدعوةِ الداخلية.وأكثر من ذلك, فالإنسان المخلوقُ على صـورةِ ا هـو ظهـور وتمجيد له في العالم. فمجموعةُ الأديان فـي تـاريخ الـشعوبِ فـي طـول الأرضِ وعرضِها تُظهر حاجةَ البشرِ الفطريةِ للتدين. فما طريقُ معرفةِ ا طريقاً مفارقة, إنما هي طريقٌ داخلية. ولكي تبقى الطريقُ مفتوحةً فيجب على المرءِ أن يحـافظَ علـى تحرره من الأهواءِ والملذات.فالتدين الذي تُعبر عنه طبيعةُ البشرِ هي طريقٌ تقوده إلى ا . فالتغرب عن الإيمان أو رفضه هو تغرب عن الطبيعةِ البشريةِ أو رفـض لهـا. لكن الإنسان الساقطَ يحيا في غربة. وكلما عاشَ في غربةٍ, تدين تديناً متغربـاً. لكـن التدين المتغرب ليس سبباً لمحاربته كليا. إذا آلمنا رأسُنا فلا نقطعه. لذلك كان موقـفُ الفيلسوف فيورباخ من الدين الذي تبناه ماركس باتراً للطبيعةِ الإنـسانيةِ مـن خـلال التذرعِ بشقائها. وإذا ما آمن المرء وأظهر خصائص عالمِه الداخلي إنما يفعـلُ ذلـك لأن طبيعتَه المنتميةَ إلى العالِمِ توجهه.وهذا لا يحدثُ في الحياةِ الدينيةِ فقط, بل في كل مجالاتِ الحياةِ البشرية.

صراع الخير والشر

في أعماقِ أعماقِنا يحدثُ الصراع بين الخيرِ والشرِ وبين الحق والباطل وبـين ملكوتِ ا وسلطان إبليس. وملاقاةُ الخيرِ أو الشرِ لا تحدثُ في عالمٍ فوقي, بل فـي

---

[57] "يجب على أولئك الراغبين في أن يحيوا الحياة المسيحية بكل دقة أن يهتموا بكل قدرتهم بالقسم العقلي والتمييزي من النفس, لكي نكتسب قدرة معرفة الخير والشر معرفة دقيقة ونميز الأهواء المخالفة لطبيعتنا فنعيش عيشة مستقيمة حرة." مكاريوس المصري, المواعظ الروحية 4, 1.

[58] المقالة 38.

الوجودِ الإنساني نفسِه.ورغم أن المرء يرغب في الخير ويستطيع أن يعرِفَه نسبياً فهو يبقى عاجزاً عن أن يحياه, لأنه يبقى أسير الموتِ والفساد. والشريعةُ الخُلُقيةُ المدونَـةُ في قلبِه لا تقدر أن تُخلصه من الموتِ, أو أن تُعيده إلى الحق والحياة. وهكـذا يعـتم الضلالُ الحياةَ البشريةَ فتبدو وكأنها سقوطٌ متزايد. إمكانيةُ الإصلاح تتم عبر التسامي والارتفاعِ إلى ا .فمصدر كل خيرٍ هو ا . والمسيح لم يطوب الفريـسيين لتبريـر أنفسِهم,[59] إنما طوب الذين يفتشون عن البر.[60] فمن جاع وعطشَ للخير وجده وعرفَه أمام ا . فمعرفةُ الخير هي "الشعور بالحياةِ الخالدة"[61] والشعور بحـضور ا . فمـن يعشْ بعيداً عن ا يعجز عن أن يكون صالحا, لأنه بعيد عن منهل الصلاح.ومن كان صالحاً فلا يقدر إلا أن يعرفَ الإله الصالح وأن يعيشَ في شركةٍ معه.

الدرب والردب

عندما أجاب ثيوفيل الأنطاكي في كتابِه "إلى افتوليكوس" عن تحدي الأخير له: "أرني إلهك," قال: "ا يري نفسه للقادرين على رؤيته, أي عندما يفتحون أعينَهم."[62] وبهذا الجوابِ يضع طهارةَ المرءِ فرضيةً لمعرفةِ ا .فحتى يعرف المرء ا عليه أن يكون صالحاً. ولكن كيف يستطيع أن يكون صالحاً, إذا لم يعـرف ا ؟ هنـا تتعقـد الأمور وتدور في حلقةٍ مفْرغَة. المخرج من هذه الحلقةِ يقدمه إعلان ا , الذي أورده بولس الرسول القائل: بعدما عرفتم ا , بل عرفكم ا ."[63] يعرفُ الإنسان ا عنـدما يكشفُ له ا عن نفسِه.فمعرفتُه تجعلُه صالحا. وعندما يصبح صالحاً فإنه يعـرفُ

---

[59] (لوقا 16: 15)

[60] (متى 5: 6)

[61] اسحق السرياني, المقالة 38.

[62] إلى أفتوليكوس 1, 2.

[63] (غلاطية 4, 9)

ا . هكذا يدخلُ إعلان ا حلقةً جديدةً تحل حلقةَ الردبِ المفرغةِ, وهي حلقةُ الحريـةِ والتجدد.

إن في الإنسان بذور الصلاح الطبيعي والضمير الذي يساعده في التمييز بـين الخير والشر. فالضمير الذي هو معلم الإنسان وقاضيه يقدم له معرفةَ الخير الداخليـة والمباشرة. والبذور الصالحةُ تكون نافعةً كاستعدادٍ لإعادةِ العلاقةِ با . مثلاً, قد يتقبلُ الإنسان الفاضلُ البشارةَ بسهولةٍ أكثر من الفاسد. لكن هذا الأمر ليس مطلقاً, لأنه حيث كثرت الخطيئةُ فاضت النعمة.[64] المسألةُ في التحليل الأخير ليست خُلُقيةً, إنما كيانية.

شركة الخير

ليست معرفةُ الخير من نتاجِ العمل العقلي, بل هي نتيجةُ الـشركةِ الكيانيـة. فالخير ليس شيئاً, بل شخص, ليس موضوعاً, بل ذات, وهو يدخلُ فـي شـركةٍ مـع الإنسان. لذلك تبقى معرفةُ الخير عسيرةً بدون الشركةِ الكيانية معه. وأخيراً يفتـرض العثور على الخير والتعرفُ إليه شعوراً بغيابه. فالشعور بغيابِ الخيـر يـستطيع أن ينمي الرغبةُ في التفتيشِ عنه. ولعل رفض ا وجه من أوجهِ المسرى الجدلي عنـد الإنسان للتفتيشِ عن الخير والتعرفِ إليه. أما النظـرةُ الماديـةُ فتجعـلُ معرفـةُ ا والشعور بنعمتِه محالة.

ج-خلاصة الخير في وجه المسيح

تجسد الكلمة

لقد تحققَ ظهور ا الأكمل, ومن ثَم ظهور الخير, في تجسدِ الكلمة وحفِظَ في الكنيسةِ بنعمةِ الروحِ القدس. فكلمةُ ا الذي يتحدثُ عنه العهد الجديد لا يختلفُ عـن كلمةِ ا في العهدِ القديم.لكن إعلان ا في العهدِ القديمِ كان إعدادياً للعهدِ الجديدِ الذي فيه صار كاملاً ونهائياً.

الخلاصة في المسيح

---

[64] (رومية 5: 20)

في العهدِ الجديدِ صار الكلمةُ جسداً ولخص الجنس البشري في الخليقةِ الجديدةِ التي دشنها. فهو يدنو من الإنسان ويدخلُه في جسدِه الخاص. وبذلك يصبح المـسيحي مسيحياً بالنعمةِ وشريكاً في حياةِ المسيح. في جسدِ المسيح الواحـدِ غيـر المنفـصل يتجاوز المرء التمزقَ ويجد الوحدةَ "على صورةِ النموذجِ الأصلي ومثالِـه", فيـصبح إنساناً جامعاً ويتعرف إلى ذاتِه في شخصِ كل بشرٍ آخر. كما صار المسيح لعنة مـن أجلنا, كذلك يصير المسيحي الذي يحيا كعضوٍ حقيقي في جسدِ المسيح لعنةً حتى يحكم في جسدِه - الذي هو جسد المسيح أيضا - على الخطيئة. وهكذا نُدرك لماذا تمنـى الرسولُ أن يصبح مبسلاً ومنفصلاً عن المسيح في سبيل اخوتِه في الجسد,[65] أو لماذا ذرفَ أحد النساكِ الدمع وربتَ بحنانٍ على كتفِ شخصٍ قاتلٍ اعترفَ بخطيئتِه قـائلا: "يا بني, أنا هو الذي ارتكب القتلَ لا أنت!" ولذلك لم يجد آباء الكنيسةِ صعوبةً في نقل تاريخ إسرائيل كله إلى حياةِ المؤمنين, لأنه يصبح من حيث هو تاريخُ الشعبِ المختار تاريخاً لكل بشرٍ, ويحتفظُ محتواه بمعناه الكامل في المسرى الشخصي عند المؤمن في المسيح.

الإعلان والإخفاء

في العهدِ الجديدِ يكتملُ إعلان ا , لكنه يبقى أعلاناً تنزيهيا. والحق, أنه أكثـر صوفية وروحانية. لقد كان الإعلان الأكملُ للكلمة الذي تحققَ في التجسدِ هو الإخفاء الأكبر له. فإعلان الكلمةِ كان إعلاناً للإنسان وقد تحققَ باختفاءِ الكلمةِ في الإنسان.

إن لفظةَ "الكلمة" تُطلقُ على الشخصِ الثاني من الثالوث الأقدس فتُظهر الصفةَ الإعلانيةَ الأبدي في أطرِها التاريخيةِ من خلال الإعلان الإلهـي الـذي أعطـي لإسرائيل في العهدِ القديمِ, ومن خلال التجسدِ في المسيح. عندما يدرج يوحنا الإنجيلي عملَ يسوع التجديدي في إطارِ إعلان كلمةِ ا يفتتح بشارتَه بـذكر أزليـةِ الكلمـة.

---

[65] (رومية 9: 3)

فالكلمةُ الأزلي الذي به خَلَقَ ا الكون يظهر في المسيح كبشرٍ مجدداً الإنسان الـذي خَضع للموتِ والفساد. المسيح هو "الإنسان الجديد" وآدم الجديد الذي أعاد خلقَ العالم.

الوضع الجديد

إن ا الذي "لم يره أحد قط"[66] والذي فتش الناس عنه "وضلوا في تفكيرهم"[67] والذي كلم إسرائيلَ والأنبياء "مراتٍ كثيرةً وبمختلفِ الوسائل"[68] أعلن نفـسه للعـالمِ "وتحدث إليه بابنِه"[69]. فما إعلان ا مرحلةً جديدةً في تاريخ الإعلان الإلهي فحسب, إنما هو تمامه وكمالُه. المسيح هو "ملء" الشريعةِ والأنبياءِ وملء كل إعـلانٍ إلهـي. الإعلان في المسيح يخلُقُ وضعاً جديداً ويقدم باكورةَ الحياةِ الجديدة. والخليقةُ الجديدةُ تجيء بعد وضعِ الإنسان الجديدِ في المسيح موضع الإنسان الذي ابتعد عن ا . وبذلك يجد المرء طبيعتَه الأصليةَ ويستعيد ذاتَه.

يحيا المرء تجديده ليتورجيا في سر الشكر الإلهي الذي هـو "أسـاس الحيـاةِ الجديدةِ في المسيح" أو "الخليقةُ الجديدة". فبشركةِ جسدِ المسيح ودمِه يجد المرء الاتحاد الحقيقي با وبقريبِه. ليس المسيحي فرداً منعزلاً, إنما عضو من أعضاءِ المسيح. وما لخُلُقِه صفةٌ فرديةٌ, بل صفة ليتورجية. المسيح هو رأس الخليقـةِ ومركـز التـاريخ البشري. من هنا نفهم تاريخَ العهدِ القديمِ وتاريخَ البشريةِ في ضوءِ إعـلان المـسيح فقط.

الجديد في إعلان المسيح هو تقديم إمكانيةِ إنماءِ شركةٍ شخصيةٍ مع ا . فـا ليس سبباً لوجودِ العالمِ فحسب, بل هو أب محب للبشر. وهكـذا لا تـدخلُ بـين ا والإنسان وسائلُ مخلوقةٌ, إنما تنمو شركةٌ شخصيةٌ مباشرةٌ بنعمةِ الروح القدس.

---

[66] (يوحنا 1: 18)

[67] (رومية 1: 21)

[68] (عبرانيين 1: 1)

[69] (عبرانيين 1: 2)

3_ الخير والفضيلة

معنى الفضيلة

وبما أن الخير ليس مبدأ موضوعياً غير شخصي, فيجب ألا تكـون الفـضيلةُ, بصفتها تحقيقاً للخير, مظهراً موضوعياً غير شخصي, بل ينبغي أن تكون لها صـفة شخصية دينامية. إن فضيلةَ الإنسان تُظهر علاقتَه بالخير. ولما تماثل الخير مـع ا جاءت الفضيلةً لتَّظهر علاقتَه با . ويمكن القول بصورةٍ أوضح بأن الفضيلةَ تُظهـر مشاركتَه في صلاحِ ا . ومتى تغب هذه المشاركةُ تغبِ الفضيلةُ أيضا. فكل فـضيلةٍ قائمةٌ بذاتها تكون كاذبة, لأنها تتغرب عن منهلِها الحقيقي وتغرب المرء عن صورتِه الإلهية.

خاصية الفضيلة

إن للإنسان خاتماً لصلاحِه يظهر تحت شكل الفضائل الطبيعية. مـا المحبـةُ والفرح والسلام وسعةُ الأناة التي هي في جوهرها ثمر الروح القـدس[70]إلا علامـاتٌ طبيعيةٌ في كل الكائناتِ الناطقة. لكن هذه العلاماتِ قد لا تُستخدم للخير , بل للـشر. فالفضائلُ تأخذُ استحقاقَها بنعمةِ الروح القدس. وبدون هذه النعمةِ تـصبح الفـضائلُ باطلةً غير مثمرة. يقول مكسيموس المعترف: "إن اتحاد الضعفِ الإنـساني الـواعي بالقوةِ الإلهيةِ شرطٌ للفضيلة, فمن حصر نفسه بضعفِ طبيعتِه فإنه لن يصلَ إلى حدودِ الفضيلة."[71]حتى نجد الفضيلةَ الحقيقيةَ لا بد من الحصول على نعمةِ الروح القدس التي تحفظُ شركتَنا مع ا . وبما أن الروح القدس يعطي الحريـةَ للإنـسان لـذلك كانـت الفضائلُ ثماراً للحريةِ الحقيقية.

النحلة الخلقية

---

[70] (غلاطية 5: 22_ 23)

[71] إلى ثلاسيون 56, 16, مجموعة الآباء اليونانية 90, 589.

إن التشديد الأحادي الجانب على بعض الفـضائل أو عزلها عـن موقِعِهـا العضوي في أطر الحياةِ في المسيح هي نحلةٌ خُلُقيةٌ واجتماعيةٌ تُغير معنى الفـضيلة. فما الفضائلُ المسيحيةُ تواضعاً وصبراً وتسامحاً وطاعةً وحلماً فحسب, إنما هي ثباتٌ وشجاعةٌ ورجولةٌ وتمييز وتوبيخٌ أيضا.[72]إن التواضع والفضائلَ المشابهة لهـا التـي يجب أن تسود حياةَ المؤمنين ليست لها قيمة فعلية عندما لا تقترن بالرجولةِ والشجاعةِ وعمل البر. فالتسامح يجب ألا يبطلَ الشجاعةَ المسيحيةَ أو أن يحل محلها عندما يظْلِم أناس آخرون أو تُنفذُ قوانين اجتماعية ظالمة. على المـؤمن أن يكـون سـمحاً وأن يضحي بنفسِه من أجل الآخرين, وألا يسكتَ عن الظلمِ الذي يلحقُ بهم أو بـالمجتمع. لكن يجب أن نُميز التسامح عن الجبن والشجاعةَ عن الوقاحة. فالتسامح, كمـا يـشير يوحنا الذهبي الفم, هو الصبر على الظلمِ الذي يلحقُ بنا, والجبن هو احتمـالُ الظلـمِ الذي يقع على الآخرين. الشجاعةُ هي الجهاد من أجل الآخرين والوقاحةُ هي الجهـاد من أجل المنفعةِ الذاتية.[73]ولأن أسباباً كثيرةً ساهمت في تأكيدِ أهميـةِ التـسامح فـي ضمير المؤمنين كان من الضروري تأكيد أهميةِ الجرأة والرجولة.

خطر الأثرة

---

[72] في حديثه عن الآية الأولى من الفصل الثالث من سفر الجامعة يقول باسيليوس الكبير: " يجب أن نعرف أن للتواضع والسلطة والتوبيخ والتعزية والشفقة والشجاعة واللطف والقسوة وقتا . فأحيانا ينبغي أن نثبت ما يتعلق بالتواضع, وأحيانا أخرى يجب أن نستعمل السلطة التي أعطاها الرب لنا لا للهدم وذلك عندما يتطلب الأمر جسارة." القوانين المختصرة 113, مجموعة الآباء اليونانية 31, 1157.

[73] "ما هو التسامح؟ وما هو الجبن؟ الجبن هو عندما لا ندافع عن المظلومين, بل نسكت. أما التسامح فهو عندما نتألم نحن ونظهر صبرا عظيما . وما هي الجسارة؟ هي الشيء عينه عندما ندافع عن الآخرين. وما هي الوقاحة؟ هي عندما نرغب في الدفاع عن أنفسنا . وهكذا نجد الشهامة مع الجسارة والوقاحة مع الجبن. "موعظة في أعمال الرسل 48, 3 مجموعة الآباء اليونانية 60, 336.

إذا أنمى المسيحي الفضيلةَ فهو لا يقوم بالعمل وحده, إنما يعمـلُ مـع نعمـةِ ا . فالانتصار على الخطيئةِ والشر الذي يحدثُ بتآزرِ الروح القدس يتحققُ في الوجودِ الإنساني فيبرزه أقوى من الشر.[74] هكذا يقْهر الشيطان وتتجلى في الإنـسان الزائـل والمائتِ قوةُ ا , فيصبح شريكاً في انتصارِ المسيح على القوى الشريرة وشريكاً فـي مجدِه الإلهي. ولتحقيقِ ذلك يجب أن نُقصي الأثرةَ باستمرار. وإذا ما مارس المـرء الفضيلةَ من أجل تأكيدِ ذاتِه, فهذا لا يبعده عن ا فقط, بل يجعلُه قاسياً أمامه. الفضيلةُ تفترض تواضعا. والمتكبر لا يقدر أن يكون فاضلا. يقول يوحنا الـسينائي: "الظـلام غريب عن النور, والمتكبر غريب عن الفضيلة." [75] المؤمن يدعى باسـتمرارٍ إلـى إنماءِ التواضعِ الذي يوصف في الأدبِ الابائي بأنه "فضيلةٌ شاملة". فالتواضع فـضيلةٌ تجتذب نعمةَ ا وتحوي بالقوةِ كل الفضائل الأخرى.[76]

الحياد الخلقي

إننا لا نستطيع أن نُحققَ الفضيلةَ بعيداً عن ا . فكل ما يعملُه المـرء لحفـظِ شركتِه مع ا هو جيد وفاضلٌ. وكل ما يعملُه من غيرِ ا لهو شرير ورديء, حتـى لو وصفِ من خلال المقاييسِ الاجتماعيةِ بأنه جيد ونافع. وهذا مـا يظهـره بـولس الرسول بقوله: "كل شيءٍ لا يصدر عن إيمانٍ فهو خطيئة."[77] ومن هذا المنطلق يقـول

---

[74] في سيرة القديس أنطونيوس الكبير التي دونها أثناسيوس نقرأ ما يلي: "من كان يظن أنه سيصبح مشابها لله (إشعيه 14: 14) يسخر منه الآن شاب, ومن افتخر على اللحم والدم يغلبه إنسان يحمل جسدا . فالرب كان يعمل معه, لأنه لبس جسدا لأجلنا وأعطانا بجسده النصر على الشيطان, حتى إن كل من جاهد قدر أن يقول: "لا أنا بل نعمة الله التي هي معي." (كورنثس 15: 10) . سيرة أنطونيوس 5, مجموعة الآباء اليونانية 26, 849.

[75] سلم الفضائل 23, مجموعة الآباء اليونانية 88, 969.

[76] سمعان اللاهوتي الحديث, الفصول اللاهوتية والعملية 3, 100.

[77] (رومية 14: 23)

غريغوريوس النيصصي: "إن خَرج المرء من النور لا يمكن إلا أن يكون في الظلام, وإن ابتعد عن الحياةِ لا يمكن إلا أن يكون في الموت."[78]هكذا لا توجد حقبةٌ من حياةِ المؤمن غير مندرجةٍ في علاقتِه با وصلتِه به. وحتى عنـدما يأكـلُ أو يـشرب أو يؤدي أي عملٍ فإنه مدعو إلى أن يتصرفَ كابنٍ . "فإذا أكلتُم أو شـربتُم, أو مهمـا عملتُم, فاعملوا كل شيءٍ لمجدِ ا ."[79]وإذا ما تَصرف كذلك فـي الأمـور الزمنيـةِ, فطبيعي إن يثابر أكثر على التصرفاتِ الأكثر ديمومة. من الطبيعي أن يظهر تجديـد الإنسان في المسيح من خلال مواقِفه تجاه الحياةِ ومشاكِلها ومن خلال إعطاءِ مظاهر حياتِه اللون المناسب. وفي التحليل الأخير, لا يمكن أن يكون المـرء لامباليـاً مـن الناحيةِ الخلقيةِ, فبه ينمو تجدده في المسيح أو يتوقف.

الأثرة والإيثار

يستحيلُ فهم حياةِ المؤمن الخُلُقية بعيداً عن تجديدِه في المسيح. فكلما كان المرء متأثراً بالفسادِ والموتِ كانت أفعالُه آثمة. فما الأثرةُ ظاهرةً عرضـيةً تُحركُهـا قـيم خارجيةٌ وثانوية, إنما هي نتيجةٌ لتغريبه الكياني. وهي تصيب المرء بسببِ تغريبه عن ا . إن استبدالَ الأثرةِ بالإيثار لا يمكن تحقيقُه على صعيدِ الخُلُق دون الأخذِ بفرضيةِ الكيانةِ الجديدة. فحتى يحيا المرء المحبةَ والإيثار فإنه يحتاج إلى أن يتحرر من خوفِ الموتِ والفناء. وكلما تحرر من هذا الخوفِ أصبحت أعمالُه أعمالَ محبةٍ وإيثـارٍ, أي أصبحت فاضلة.

هوية الفضيلة

إن الأوضاع المختلفةَ التي يعيشُها المرء طوالَ حياتِه والوسائل التي يستخدمها لا تستطيع أن تخلقَ الفضيلةَ وتستنبطَها, إنما تعبر عنها.ولذا تحتفظُ الفضيلةُ بميزتِهـا وهويتِها حتى في الأوضاع المتناقضةِ جدا.إنها تشهد لمشاركةِ المؤمن في منهل الخير,

---

[78] "في الكمال," مجموعة الآباء اليونانية, 46, 284.

[79] (1 كورنثس 10: 31)

أي ا , وتساهم في إنماءِ هذه الشركةِ مع ا ومع الآخرين. كل ما يتم في المسيح من فعلٍ أو قولٍ أو فكرٍ فهو يعبر عن الاتحادِ به, والمسيح ينميه في جسدِه غير المنفصل, أي في الكنيسة. وبخلافِ ذلك, كل فعلٍ أو قولٍ أو فكرٍ يبرز من دون المسيح يـصبح وسيلةً تفصلُه وتُبعده عن جسدِ المسيح. إذا عاش المؤمن في المسيح فملامـح حياتِـه ستتفِقُ مع مشيئةِ ا . إذا كانت الحياةُ عندي هي المسيح, فيجب أن يكون كلامنا على المسيح وفكرنُا وأعمالنُا قائمةً على وصاياه, وأن تكون نفسنا على صورته.[80]

أبعاد الأخلاق

هنا يقع عادةً الخطأُ وهو أن أعمالَ الإنسان تُعتَبر موضوعاً للأخـلاق فتُهمـلُ ناحيةٌ أخرى من حياتِه وتوصفُ بأنها جمود ظاهر. لكن المرء لا يحيا بالعمل والكـد فقط, بل بالسكون أيضا. إنه لا يحيا عندما يكون يقظاً فحسب, بـل عنـدما يـستريح أيضا. الأخلاقُ لا ترتبطُ بمظاهر حياتيةٍ معينة, بل تشملُ الحياةَ كلها. فمـا الأفكـار وأحلام اليقظةِ والهواجس الداخليةُ والأحلام سوى عناصر تُبرز خُلُقَ الإنسان وتُنميه. وهذه الحقولُ الداخليةُ من حياةِ المرءِ اهتم بها آباء الكنيسةِ الذين نجد عندهم مادةً غنيةً تُعالج هذه النقاط.

في الحياةِ الخُلُقيةِ يوصفُ الوعي العام في أدبِ آباءِ الكنيسةِ بأنه يقظةٌ روحية. فأحدهم يحدد هذه اليقظةَ بأنها نهج روحي يحرر من خلال عمل ا الإنسان كله مـن أفكاره وأقوالِه المليئةِ بالشهواتِ ومن أعمالِه الشريرة. هذه هي طهارةُ القلـبِ التـي باركها ا في قوله "طوبى لأنقياءِ القلوبِ لأنهم يشاهدون ا ." هذه اليقظةُ تُعين بشكلٍ كاملٍ الأبعاد الحقيقيةَ لحياةِ الإنسان. في هذه الأبعادِ تكون الحياةُ الخُلُقيةُ التعبير الأكملَ عن الكيان الإنساني.

---

[80] انظر فيليبي 1: 21

4_ أصالة الأخلاق المسيحية

محتوى الموعظة على الجبل

إن الموعظةَ على الجبل (متى 5- 7 وما يوازيها في الأناجيل الإزائيةِ الأخرى وعلى الأخص لوقا 6: 20 - 49) هي القانون التشريعي للأخلاق المسيحية. ومن المفيدِ أن نتذكر محتوى هذه الموعظةِ وروحها.

تبدأ الموعظةُ بتهنئةِ "المساكين في الروح والمحزونين والودعـاءِ والجيـاعِ والعطاشِ إلى البِر والرحماءِ وأنقياءِ القلوب وصانعي السلام والمضطهدين من أجـل البِر ."[81] ومن ثَم تصفُ الموعظةُ التلاميذَ بأنهم ملح الأرضِ ونور العالم.[82]

ينقسم الموضوع الرئيسي (5: 17- 7: 23) إلى قسمين:

القسم الأول (5: 17- 48) يشير إلى اكتمال الشريعة.

القسم الثاني (6: 1- 7: 23) يشير إلى التقوى والتصرفِ الجديدين.

تفصيلاً, عندنا من الآيةِ 17 وما يليها إكمالُ المسيح للشريعةِ في مواضيع القتل والزنى وحلفِ اليمين والطلاقِ والانتقامِ, وعندنا أيضا تحديد الموقفِ الذي ينبغي على التلاميذِ أن يتخذوه تجاه أعدائهم. ويتناولُ الفصلُ السادس التعليم المسيحي عن الصدقةِ والصلاةِ والصومِ, ويعرض تنزه المؤمنين عن جمع المال وادخاره وعن الاهتمامِ بما هو أرضي. أما الفصلُ السابع فيحث الناس على الهربِ من إدانةِ الآخرين والحفـاظِ على ما هو مقدس والمثابرةِ على رفعِ الدعاءِ إلى ا , كما يقدم ما يـسمى بالقـانون الذهبي للأخلاقِ المسيحيةِ ألا وهو: "فكل ما أردتم أن يصنع الناس لكم, فاصنعوه أنتم لهم كذلك."[83] ثم تتحدثُ الموعظةُ عن الطريقين,[84] وعن معرفةِ الناسِ من أفعـالِهم,[85]

---

[81] (متى 5: 1– 12)

[82] (متى 5: 13– 16)

[83] (متى 7: 12)

[84] (متى 7: 13– 14)

وأخيراً عن يومِ الدين. هذا الكلام الذي ينتهي به الجزء الرئيسي للموعظةِ على الجبل يؤكد الميزةَ المعاديةَ لتعليمِها الخُلُقي.

وتتحدثُ الخاتمةُ[86] عن موقفِ الإنسان الصحيح والخاطئ من ا وعـن بنـاءِ حياتِه في العالم. وفي النهايةِ يشَبه المرء الذي يسمع كلمةَ ا ويعملُ بها بإنسانٍ بنـى بيتَه على الصخرِ, والمرء الذي يسمع كلمةَ ا ولا يعملُ بها بإنسانٍ بنى بيتَـه علـى الرمل.

ميزتها الثورية

تُبرز هذه الموعظةُ مبادئَ مطلقة وجذرية فتبدو غريبةً ومثيرةً للعالمِ المـستندِ إلى منطِقه فقط. والحق أن العالم يطلُب القوةَ والغنى, أما المسيح فيبـارك الودعـاء والمساكين. العالم يسعى إلى الفرحِ والنجاحِ, أما المـسيح فيبـارك الـذين يتـألمون ويحزنون. العالم يتطلع إلى المجدِ والسلطة, أما المسيح فيطلب الطاعةَ والخدمة. العالم يصبو إلى الراحةِ والظهورِ الاجتماعي, أما المسيح فيعِد بالتعيير والمشقة.

التعليم الخُلُقي فيها وفي الإنجيل عامةً تعليم ثوري يدخِلُ تحريراً جذريا. إنـه التعليم الخُلُقي الذي يقلب الدعائم البشريةَ والمنطقَ كذلك.فما من شيءٍ يثبـتُ أمامـه كالاعتدادِ بقيمةِ الذاتِ والصلاحِ المطلق. كل شيءٍ نسبي في منظوره المعادي. هـذا التعليم لا يسعى إلى تقديمِ نموذجِ الأدبِ الاجتماعي أو قانون النجاح في العالم, بل إلى تقديمِ إمكانيةِ مشاركةِ المرءِ في الأبديةِ, ابتداء من الزمن الحاضر. فكل أمـر نفعـي, أكان فردياً أم اجتماعياً, أو أيةُ أثرةٍ لا وجود لهما في هذا التعليم. كل شيءٍ يوضع في يدي ا وفي منظور الدين الآتي وتجديدِ ا للكون.

خلق ملكوت ا

---

[85] (متى 7: 15– 20)

[86] (7: 24– 29)

إن خُلُقَ الإنجيل هو خُلُقُ ملكوتِ ا . ولذلك يمكن وصفُه بخُلُقِ المحبةِ الإيثارية, أي المحبة التي أظهرها ا للعالمِ والتي وصلت إلى الصلب.خُلُقُ الإنجيل, إذاً, هو خُلُقُ الصليب.[87] لكن خُلُقَ الإنجيل هو أيضا خُلُقُ القيامة, لأنه لا يترك الإنسان بلا معين, إنما يقدم له المسلماتِ الإناسيةَ الجديدةَ التي أظهرها ا للعالمِ بتجسدِه وتأسيسِ كنيستِه. فالمرء لا يسعى إلى الأخلاقِ الجديدةِ سعيه إلى شيءٍ أنجزه فحسب, إنما إلى التعبيرِ والشهادةِ لمشاركتِه في الحق الذي ظَهر في المسيح. فالمرء مدعو إلى أن يزهد في نفسِه زهداً كلياً وأن يغير موقفَه من ا . الأخلاقُ الإنجيليةُ لا تدعو المرء إلى أن يخرج مما هو عرضي واتفاقي فحسب, أو من الضمان النسبي الذي يقدمه العالم, بل من ذاتِه أيضا. هذا هو المعنى الحقيقي لرجوعِه إلى ا , أي للزهدِ في ذاتِه زهداً تاما—لا للزهد في الشرِ فقط—ولتغييرِ موقفِه من ا بتواضعٍ وطاعة. بالزهدِ في الذاتِ وبالتواضعِ والطاعةِ يجد المرء ذاتَه الحقيقية.

تطبيق الأخلاق في العالم

الإنجيلُ نار تحرقُ كل شيء, وتخلقُ مجالاً لظهورِ حقيقةِ ملكوتِ ا .[88] المنطقُ البشري لا يقدم التقدير والاعتبار لهذا الوضعِ الجديد. ومعنى هذا أن روح الإنجيل لا يمكن أن تُدرس بروحٍ عقلانيةٍ أو تُستخدم كقاعدةٍ لتنظيمٍ شاملٍ لحياةِ الإنسان الشخصية والاجتماعية. متى ينس المرء أن هذا التعليم الخُلُقي جزء من الإنجيل وأنه ليس شريعةً مصلَحة تنشأُ عنده مسألةٌ كاملةٌ معروفةٌ جداً في المدرسةِ الغربيةِ العقلانية. في هذا الجو بالذاتِ طُرحت أسئلةٌ عن مقدارِ تطبيقِ التعليمِ الخُلُقي في العالمِ وعن مدى علاقتِه بالمؤمنين أو عما إذا كانت هناك مثاليةٌ يصعب تحقيقُها أو تطبيقُها إلا عند قلةٍ صغيرة. عن هذه الأسئلةِ أعطيت أجوبة مختلفة.

---

87 "لذلك وضع الصليب أمامك حتى تحدد الموت من تلقاء ذاتك ومن ثم تطلق نفسك لتسير وراءه." اسحق السرياني, الكلمة 19.

88 "جئت لألقي نارا على الأرض, وكم أتمنى أن تكون قد اشتعلت." (لوقا 12: 49)

نقد النظرة الغربية

في إطارِ اللاهوتِ الغربي ترسخت النظرةُ القائلةُ بوجودِ نصائح ووصايا فـي تعليمِ الإنجيل الخُلُقي.الوصايا موجهةٌ إلى كل المؤمنين, أما النصائح فموجهةٌ إلى نخبةٍ ترغب في الكمال. هذه النظرةُ تُدخِلُ تمييزاً أرستقراطياً إلى الكنيسةِ وتُناقِض التعالـيم الأرثوذكسي المسيحي. فالدعوةُ إلى الكمال موجهة إلى كل المـؤمنين.[89] كـل بـشرٍ يدعى إلى الاستجابةِ لهذه الدعوةِ وفقَ مواهبِه الشخصية. فإن وجدنا هذا التمييز أحياناً, إلا أنه لا يجعلُ وصايا ا نسبيةً أو محصورةً بفئةٍ معينة, إنما يشير إلـى الأوضـاع الاستثنائيةِ المعينة أو إلى الالتزاماتِ الذاتية التي لا تحملُ معنى العطاءِ المفرط, إنمـا تعوض عن ضعفِ المرءِ في عملِه بالوصايا.[90] إن الأخلاقَ المسيحيةَ لا ترتبطُ بفئـةٍ معينةٍ من البشر, بل بكل من قبلَ إنجيل ملكوت ا . وهنا يفقد كل تمييزٍ بشري معناه, لأن المؤمنين يقفون كأولادِ ا أمام أبيهم.

لا تُرتب أخلاقُ الإنجيل ترتيباً سلميا حتى توافقَ الضعفَ البشري, لأنها أخلاقٌ مشتركةٌ بين المؤمنين. فمتى اعتمد الإنسان على اسمِ الثالوثِ الأقدسِ ولبس المـسيح اندرج في تلك الواقعيةِ التي لا تحدها متطلباتُ العالم, إذ إنها ترتبطُ بحريةِ الـروح. ليست وصايا ا تنظيماتٍ دنيويةً, يمكن أن يعفى بعض الفئاتِ من تطبيقِها, إنما هـي مؤشراتُ الحريةِ التي تقود إلى رفعِ قيمةِ الإنسان الجديد, بمؤازرةِ النعمـةِ الإلهيـة. وليس المؤمنون مجرد مخلوقاتٍ , إنما هم أولاد ومواطنون في ملكوتِه.أمـام ا لا تختلفُ واجباتُ المؤمنين, إنما هناك اختلافٌ في الطريقةِ التي يستجيب بها الإنـسان

---

[89] "فكونوا أنتم كاملين, كما أن أباكم كامل." (متى 5: 48)

[90] "إننا نفعل ما يرضي الله بوصية منه, أما الأفعال الأخرى لم يوص بها فهي تقدمة طوعية. الأفعال التي نعملها بوصية منه هي: محبة الله ومحبة القريب ومحبة الأعداء وعدم الزنى وما إلى هنالك. وهذه إن خالفناها ندان. أما الأفعال التي نفعلها دون أن يوصي بها فهي: التبتّل واللاقنية والتوحد وما إلى هنالك. فإذا لم نستطع أن نتم الوصايا بسب ضعفنا فإننا بهذه الهدايا نستعطف سيدنا الصالح." مكسيموس المعترف, فصول في المحبة 4, 67 مجموعة الآباء اليونانية 90, 1046.

لدعوةِ ا , وفقاً للموهبةِ الإلهية, ووفقا لإمكانياتِه وبيئِته. هنا تندرج تلـك الأوضـاع المتميزةُ للحياةِ الخُلُقية, مثل البتولية والعزبة والتنسك التي توضع في فئةِ المواهب.

هناك نظرةٌ غربيةٌ أخرى تقولُ بأن تعليم الإنجيل الخُلُقي يتعلقُ بالحياةِ الخاصةِ فقط, ويهدفُ أساساً إلى إظهار الإنسان بأنه آثم, ويقوده إلى استدعاءِ نعمـةِ ا التـي هي وحدها العاملُ الأساسي لخلاصِه. فالإنسان متى يفحص ذاتَه في ضوءِ الإنجيـل يدرك أنه آثم وغير مستحق. لكن هذا لا يعني أن كل معنى الحياةِ الخُلُقيةِ تنحصر في هذا التحقق السلبي. فبعد أن يعي الإنسان أنه آثم ينفتح أمامه طريقُ العـودة. وبعـد الشعور ببؤسِه يبدأ جهاده نحو التجديدِ والكمال في المسيح. ا لا يفرض التجديد على المرءِ دون استجابتِه الشخصية. فنعمةُ ا تُثمر عندما تجد تجاوباً. وهـذا التجـاوب يفترض قبل كل شيءٍ تواضعاً وزهداً في الذات. بالتواضعِ والزهدِ في الـنفس ينـشأُ أسلوب حياتي جديد. وهذا الأسلوب قد يبدو غريباً عنـدما يحكَـم عليـه بالمقـاييس العالمية. قال سمعان اللاهوتي الحديث: "إن كثيراً من هـذه الأعمـال يعجـز عنهـا الكثيرون, وأنا أوافقُ على ذلك, وخاصةً أولئك المتهاونون من جنسي وغير الراغبين في احتقار العالمِ وكل النفاياتِ التي فيه والمتنسكون بالمجدِ الباطل والمشتهون الغنـى والمستلذون بمديح الناس وإكرامِهم لهم والمتمسكون تمـسكاً يرثـى لـه بالكبريـاءِ والعجب."[91]

وهناك من دافع عن الرأي القائل بأن هذا التعليم الخُلُقي الجذري يسري مفعولُه لزمنٍ معينٍ, وهو زمن انتظار دمار العـالم (الخلـق المؤقـت). ولـذلك لا مجـال للاهتماماتِ الدنيوية. فالعملُ الحكيم للإنسان في هذه الحالةِ هو أن يـستغلَ الفرصـةَ الأخيرةَ التي يقدمها ا للإنسان حتى يتوب ويحصلَ على الخلاص.

هذه النظرةُ تُسيء تفسير روح العهدِ الجديدِ المعادية وتقـدم الأمـور تقـديماً خاطئاً. فخُلُقُ الإنجيل لا يرتبطُ بوضعٍ يائسٍ يسببه دمار العالمِ الوشيك, إنمـا يـرتبطُ

---

[91] الخلقيات 4, 838, المصادر المسيحية الجزء 129, 68.

برجاءِ تجديدِ العالمِ وإعادةِ المؤمنين إلى وضعِهم السوي في ملكوتِ ا . "وإذا بـدأت تتم هذه الحوادثُ قفوا وارفعوا رؤوسكم لأن خلاصكم قريب."[92] فالروح التي ينميهـا الإيمان المسيحي في الزمن المعادي الذي بدأ بمجيءِ المسيح وما زال يكتملُ ليـست روح خوفٍ وجبنٍ, إنما روح قوةٍ ورجاءٍ. فتعليم الإنجيل الخُلُقي لا يستند إلى خـوفٍ من دمارِ العالم, إنما إلى رجاءِ تجديدِه وظهورِ ملكوتِ ا . والوصايا لا تهدفُ إلـى تنظيمٍ مؤقتٍ لحياةِ المؤمنين, تصفُها الظروفُ الخاصةُ بدمارِ العالمِ الوشيك, إنما إلـى رسمِ أسلوبِ حياةِ أبناءِ ملكوتِ ا .

جوهر المسألة الخلقية

لا تُبنى الأخلاقُ المسيحيةُ على أساسِ مواجهةِ مشاكل الحياةِ مواجهةً صحيحةً فحسب, إنما على مقدارِ ما يقدم الإنسان نفسه . فقدر ما يقدم نفسه قدر ما يعمـلُ بوصاياه ويقوي شركتَه معه. النقطةُ الحاسمةُ هنا هي موقع الإنسان أو الزاويةُ التـي يرى من خلالها حياتَه في العالم. المسألةُ هي في قبول أو رفضِ هذه الرؤيةِ الجديـدةِ التي يدعى المرء إلى أن يرى العالم وحياتَه في وسطِها. فالهدفُ الذي يدعى الإنسان إلى أن يوجه جهاده إليه هو الأثرةُ التي تُعيقُ المرء في تقديمِ نفسِه , وفي العيشِ في العالمِ كابنٍ وكمواطنٍ في ملكوتِه.

إذا أراد المرء أن يتجِه اتجاهاً دنيوياً في حياتِه فقد يظهر تعليم الإنجيل عـسير للتطبيقِ. لكن إن أراد أن يتجِه نحو ملكوتِ ا فلن يجد توجيهاً أفـضلَ ممـا يقدمـه الإنجيل. قدر ما يقدم نفسه قدر ما يجد تعليم الإنجيل طبيعياً ومعقولاً. وقـدر مـا يظن أن الاستجابةَ له عسيرةٌ قدر ما يتناقص زهده في ذاتِه وتتضاءلُ مشاركتُه فـي حريةِ ا .

الوصايا رسالة فرح

---

[92] (لوقا 21: 28)

يجب ألا نعتبر الوصايا الإنجيلية عسرةَ الحمل, بل يجب أن نعدها رسالةَ فرحٍ وحرية. في الإنجيل يبرز أسلوب الحياةِ الجديد الذي يتجاوب مع وضعِ التبنـي فـي المسيح. الشريعةُ لا تُفرض من الخارج, إنما تتحققُ بقبـول الحريـةِ فـي المـسيح وبعيشِها. فتقدم المؤمن الخُلُقي يتماشى مع تقدمِه في الحريةِ بصفتِه ابناً . واستجابتُه لمشيئةِ ا تكتملُ بوعيِه الوضع الجديد في المسيح وبوعي المعطياتِ الإناسيةِ الجديدةِ التي يبني عليها حياتَه. فوصايا ا تُبرز محبتَه للبشر وتجعلُه منذ الآن شـريكاً فـي ملكوتِه. متى كان الإنسان شريكاً في ملكوتِ ا أصبحت مشيئتُه ووصـاياه ينبـوع فرحٍ ورجاءٍ.

البشارةُ المسيحيةُ هي رسالةُ التحررِ من العالمِ , لذلك يستحيلُ تحويلُهـا إلـى نظامٍ دنيوي. فالحياةُ التي يدعو المسيح البشر إليها, من حيـثُ أنهـا حيـاةُ الحريـةِ الحقيقية. تحملُ ميزةً دينامية, إذ تتجلى في تجاوزِ العالمِ وتغييرِ وجهه. وقدر ما يوجه المرء حياتَه حاملاً روح الإنجيل قدر ما يسمح للحريةِ أن تظهر في وجودِه.[93] لكـل من اعتمد قدرةٌ على التغلبِ على الأهواءِ وعلى تطهيرِ نفسِه من كل ما يدنس "الجسد والروح."[94] أما إذا سيطرت الأهواء عليه, فالسبب عائد إلى إرادتِه الحرة. فمن يعشْ في عالمِ الفناءِ والموتِ يعسر عليه أن يحيا ملء الحريةِ في المسيح. وهذا لا يبرر أبداً انحصاره في إطارِ الضعفِ البشري. فالميزةُ الإلهيةُ للحياةِ المسيحيةِ تعنـي اعترافـاً بالحريةِ الحقيقيةِ التي دعي إليها المؤمن واستحقَ أن يحياها. في الإنجيل يظهر مقياس كمال المؤمن ومؤشره. ليس لتعليم الإنجيل ميزةٌ نظريةٌ فقط, بل ميزةٌ عمليةٌ أيـضا. لذلك كان الاهتمام الأولُ والمستمر عند المؤمن ترجمةَ تعليمِه ترجمةً حياتيةً. أمـا إذا أدرك, رغم محاولتِه ورغبتِه, أنه بعيد عن الكمال الذي يطلبه ا منه, فهذا لا يعنـي

[93] "كل ما يقوله الكتاب عن التنقية إنما يوصي به الأحرار حتى لا تبقى أفكارهم هكذا, بل ليحيوا حياة الحرية, لان لنا سلطان النزوع إلى ما نريد خيرا كان أم شرا." مرقص الناسك, في المعمودية الإلهية, مجموعة الآباء اليونانية 65, 989.

[94] 2 كورنثس 7: 1

أنه وصلَ إلى ردبٍ, بل يعني أنه يحتاج إلى أن يتواضـع أمـام ا , لكـي تكتمـلَ بالتواضعِ نقائصه. ومتى أدرك الدين الواجب أن يدفعه للسيدِ وعى أنه لا يستطيع أن يرد إليه كل شيءٍ. فبعضه يسدده بالمسالكِ المحمودِ على قدر ما يـستطيع ويرغـب, والبعض الآخر يسدده بالتواضعِ أمامه. وبهذا التواضـع يـستميلُ العطـفَ ويكمـلُ النقص.[95]

الأخلاق الإنجيلية والأخلاق المألوفة

إذا ما قارنا بين تعليمِ الإنجيل الخُلُقي المطلق وبين الأخلاق المـسيحيةِ المعاصرةِ المألوفة نلاحظُ اختلافاتٍ أساسيةً وتناقضاتٍ فـي كثيـرٍ مـن الحـالات. فالأخلاقُ المسيحيةُ المألوفةُ تُقدم للمؤمن دعمها لكي تؤكد فرديتَه وتحمي مـصالحه الخاصة وتُبرر ضعفَه الخُلُقي. هكذا يعلم المسيحي أن يحب أعداءه بمقدارِ ما يحتـاج إلى الدفاعِ عن نفسِه وأن يعتبر إهلاكهم واجباً عليه. هذه الأخلاقُ تدعم المرء ليكتـز "كنوزاً على الأرض" رغم أوامر المسيح المخالفةِ لها, كما أنها تتردد في الإشارةِ إلى جمعِ الكنوزِ في ملكوتِ السماوات.[96] هذه الأخلاقُ تُعطي السعادةَ قيمةً بينـةً بـذاتِها, لكنها تنسى الحزن الذي يباركُه المسيح,[97] والألم والضعفَ اللذين يفتخر بهما بـولس الرسول.[98] يتضح لنا أن تحويلَ الأخلاق إلى أخلاقٍ نسبيةٍ يشوه معنى الإنجيل, ويقدم أموراً عديمةَ الصلةِ بتعليمِ المسيح, ويظهرها وكأنها أمور مسيحية. ولا نبالغُ إن قلنـا بأن الأخلاقَ المسيحيةَ المألوفةَ تجعلُ الإنجيلَ في كثيرٍ من الأحيان هزأةً حقيقية.

---

[95] غريغوريوس بالاماس الموعظة 11, مجموعة الآباء اليونانية 151, 140.

[96] انظر متى 6: 19– 20.

[97] متى 5: 4, لوقا 6: 21.

[98] 2 كورنثس 12: 5

أما أخلاقُ التحريمِ التي تنحصر في النهي دون الحث والتشجيعِ تـضع حيـاةَ المؤمن على سرير بروكريستنز.[99] الأخلاقُ المسيحيةُ هي أخلاقُ النعمةِ والحرية.وكل محاولةٍ لاستخدامِها من أجل تنظيمٍ ظاهري لشؤون الحياةِ وأوضاعِها هـي محاولـةٌ عقيمةٌ. لذاك يجب أن نُعيد تقويم الأخلاقِ على أساسِ الإنجيل والموعظةِ على الجبل. ومن الضروري حفظُ هذه الروحِ الإنجيليةِ في تقديمِ مشيئةِ ا للإنسان.

[99] كان لصا أغريقيا خرافيا يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لكي يجعل طوله منسجما مع فراشه.

5-تكيف الأخلاق المسيحية

ليست ميزةُ الأخلاقِ في قوانينها, إنما في روحِها.فروحها يعيد الإنـسان إلـى وضعِه السامي في العالمِ, ويقدم له الأسس الجديدةَ لحياتِه وفاعليته في العالم. فـسلطةُ الإنسان هي ميزتُه الأساسية, لأنه خُلِقَ على صورةِ ا ومثالِه. ولذلك كـان تجديـده عودةً إلى وضعِه الأول.

الجامعية والوحدة

إننا لا نرى في أدبِ آباءِ الكنيسةِ أيةَ محاولةٍ لتأليفِ منهجٍ خُلُقي. فهم يقـدمون الأخلاقَ من حيث أنها تطبيقٌ للإناسـةِ المـسيحانيةِ (الخريـستولوجية) أو الإناسـةِ السرشكرية. في هذا الإطار تجد القوانين الخُلُقيةُ في العهدِ القـديم ووصـايا العـالم الخُلُقية مكانَها لأنها تُعبر عن التصوراتِ الخُلُقيةِ العامةِ عند الإنسان. وهكـذا تُفْهـم وصايا العهدِ القديمِ والوصايا الخُلُقية الأخرى على ضوءِ تعميدِها بروح الإنجيـل. إذا قابلنا لوائح الفضائل والرذائل في رسائل بولس بما يقابلُها من لوائح العـالمِ اليونـاني نتحققُ من وجودِ تشابهٍ أساسي بينهما. فعندما يحث بولس المـسيحيين علـى الحيـاةِ الخُلُقيةِ يوصيهم بأن يفعلوا ما يعتبره الآخرون حقاً وشريفاً وعادلا.

المسيحيةُ لا ترفض أبداً ما هو إنساني حقاً, لا بل إنها تتبنى كل ما يفعلُـه أو يرغب في تحقيقه كل بارٍ وصديق. فتعليم المسيحيةِ الخُلُقي, وفقاً لروح العهدِ الجديـدِ وآباءِ الكنيسة, لا ينحصر في قوانين وأشكالٍ محددةٍ, إنما يبقى متقبلاً كل مـا هـو إنساني حقا, لكنه يسعى إلى تغيير وجهه.إن للأخلاقِ ميزةً جامعةً تُعطي قيمـةً لكـل العناصر الأصيلةِ التي نجدها في التقاليدِ البشرية. قال يوستينوس الفيلسوفُ والشهيد: "كل ما قاله الجميع حسناً فقد قيل لنا نحن المسيحيين."[100] من جهـةٍ أخـرى, حقيقـةُ الحياةِ المسيحيةِ لا تكون في العمل بالقوانين الخُلُقية, إنما في إدراجِهـا فـي الخليقـةِ الجديدةِ التي أظهرها المسيح للعالم. فالأخلاقُ المسيحيةُ لا توجد في مبادئَ أو نظرياتٍ

---

[100] المنافحة 2, 13, 4.

أو أفكارٍ, إنما في جسدِ المسيح نفسِه الذي ينتمي إليه المؤمنون. "فكـل واحـدٍ مـنهم عضو فيه."[101] ليست سمةُ المسيحي في مظاهره الخارجية, بل في مـسلماتِ الكيـان الجديدِ الذي يرسخُ حياتَه ويثبتُها.

خُلُق الحرية

الأخلاقُ المسيحيةُ هي أخلاقُ الحرية,[102] لأنها لا تُخضِع المرء لنظمٍ قسريةٍ لا شخصية, إنما تُدخِلُه في حقيقةِ ملكوتِ ا فيختبرها ويتصرفُ من خلالهـا بحريـة. ليست وصايا المسيح التي تُقدم لنا من منطلق أحداثٍ معينةٍ أو من معطيـاتٍ أخـرى للحياةِ اليوميةِ نظماً قانونيةً جديدة, بل هي مؤشراتٌ للحرية. فوصايا المـسيح, كمـا يشير مرقص الناسك, "تحفظُ حدود الحريةِ المعطاةِ لنا."[103] لكن ضبطَ الـنفسِ الـذي يمارسه المؤمن في حياتِه اليوميةِ من خلال العمل بالوصايا يساهِم في حفـظِ حريتِـه الحقيقيةِ في المسيح.

الشرعوية والظرفية

ترتبطُ أخلاقُ الإنجيل ارتباطاً وثيقاً بالمعطياتِ التاريخيةِ للإعلان في المسيح. فليس لدينا تنظيم شرعوي للحياةِ الخُلُقية, إنما نهج لحياةِ الإنسان بصفتِه ابناً لملكـوتِ ا . المؤمن مدعو إلى قبول روح ملكوتِ ا في محيطِه المحددِ وإلى التعبيـر عنـه تعبيراً خلاقاً في حياتِه اليومية.

ليست الظرفيةُ شيئاً جديداً في العهدِ الجديدِ, لكنها قائمةٌ في العهد القديم أيـضا, هكذا نلاحظُ من منطلقِ وصيةِ راحةِ السبتِ أن العبرانيين, رغم حفظِهم لهـا حفظـاً صارماً, لم ينسوا أن يسقوا ثورهم أو حمارهم. هذه الظاهرةُ أوردها المـسيح, كمـا

---

[101] 1 كورنثس 12: 27.

[102] "المسيح حررنا لنكون أحرارا. فاثبتوا, إذا, ولا تعودوا إلى نير العبودية." (غلاطية 5: 1)

[103] "في الذين يتساءلون عن المعمودية 4" مجموعة الآباء اليونانية 65, 992.

نعرف, عندما أدانَه المجمع الأعلى, لأنه شفى يوم السبت.[104] في هذه الحالةِ لم يـدن المسيح مخالفةَ العبرانيين للشريعة, إنما اعتبرها منطقيةً وضروريةً. ووفقاً للأعـرافِ الأدبيةِ كان حفظُ السبتِ من حيث أنه واجب أمام ا أهم من واجبِ سـقي الحمـار والثور الذي هو واجب تجاه الحيوان. وربما عنى ذلك ضرورةَ إهمال الحيوان باسـمِ حفظِ السبت. فحاجةُ الحيوان المعينة في هذه الحالةِ تفترض استثناء. وهذا الاسـتثناء يتصلُ بمحبةِ ا الجامعةِ التي تشملُ الحيوان أيضا. وأكثر الأشفيةِ التـي اجترحهـا المسيح في السبت تدل ضمناً على روح المحبة والحريةِ الواجب وجودها عند العمـل بوصايا ا والموجهة ضد نيةِ الفريسيين المخادِعة. فهؤلاء اعتبروا الشريعةَ مطلبـاً موضوعياً بارداً.

إننا نتحققُ من هذه الميزةِ لوصايا ا في أطرٍ أخرى. مثلاً عندما قال المسيح: "من سخرك أن تمشي معه ميلاً واحداً فامشِ معه ميلين."[105] لم يضع المسيح تشريعاً يسري مفعولُه بشكلٍ مطلقٍ وعامٍ لكل مكانٍ وزمانٍ, إنما واجه حالةً معينةً من حيـاةِ الناسِ فواجهها من خلال الظرفِ الطارئ. في هذه الحالةِ المعينةِ أشار المسيح إلـى أسلوبٍ يعبر به عن روحِ ملكوتِ ا . هذا الأمر صيغَ في مكانٍ آخرٍ بوصـيةِ عـدمِ الانتقامِ ممن يسيء إلينا. "أما أنا فأقولُ لكم: لا تنتقموا ممن يسيء إلـيكم."[106] وهـذا الشيء ينطبقُ على استعمال لفظتي "أحمق" و "جاهل".[107] بدهي أن يختلـفَ معنـى هاتين اللفظتين في عصر المسيح عن عصرنا الحاضر.

الروح والشكل

---

[104] (لوقا 13: 14)

[105] (متى 5: 41)

[106] (متى 5: 39)

[107] (متى 5: 22)

ماذا يحدثُ إذا؟ هل تُلغَى وصايا المسيح؟ طبعاً, لا.إنها تعبر عن روح ملكوت ا , إذ هي ثابتةٌ, لكنها ترتبطُ بمعطياتِ حياةِ المؤمنين فـي العـالم. وبمـا أن هـذه المعطياتِ لا تختلفُ من عصرٍ إلى عصرٍ أو من منطقةٍ إلى أخرى فحسب, بل مـن إنسانٍ إلى آخر, فطبيعي أن يتجسم محتواها الثابتُ في أشكالٍ جديدةٍ في كـل حالـةٍ معينةٍ من حياةِ المؤمنين في العالم.

تبقى المشيئةُ الإلهيةُ الأبديةُ ثابتةً لا تتغير.[108] فـالميزةُ التاريخيـةُ لإعلانِـه والتعبير الوضعي عن هذا الإعلان لا يدلان على شيءٍ اتفاقي, إنما على فعل ا فـي العالمِ والتاريخ. ورغم أن إنجيلَ ملكوتِ ا وضِع في أطرٍ تاريخيةٍ محددةٍ وارتـبطَ بأحداثِ زمنٍ معينٍ فهو يحملُ فحوى أبدياً. وفي آخر الأمر, الإنجيـلُ هـو رسـالةُ المسيح الذي هو "بالأمس واليوم وإلى الأبد."[109] ومتى شارك المـؤمن فـي الحيـاةِ الجديدةِ التي يهبها له المسيح كان التعبير عن هذه المشاركةِ أمراً طبيعياً فـي حياتِـه اليومية.فميزةُ الإنجيل الأساسيةِ لا تسمح للإنسان من أن يقدم نفسه تقديماً كلياً فحسب, إنما تلتمس منه ذلك. وبما أن كل بشرٍ فريد لذلك لا يمكن إلا أن يحفظَ خاصيتَه الفذةَ عندما يقدم نفسه . بكلامٍ آخرٍ, إن ميزةَ الإنجيل المطلقةَ تستلزم في الوقـتِ نفـسِه التقبلَ الجامع لخاصيةِ الإنسان.

ولما كانت الظروفُ التي يعيشُها المرء تختلفُ كل مـرة, فهـو لا يقـدر أن يتصرفَ في كل مكانٍ التصرفَ نفسه وأن يظهر ردةَ الفعل نفسها. فمواجهةُ الأوضاعِ المعينةِ والحالاتِ الخاصةِ هي موضوع نهجٍ وموضوع تعقـلٍ وتـصورٍ. والمـؤمن يستطيع أن يستخدم المنهج الذي يراه موافقاً أكثر من غيره. المسيح نفسه قال: "مـن لطمك على خدك الأيمن فحولْ له الآخر."[110] ولما لطَمه واحد من الحراسِ لم يحـولْ

---

[108] "فكلمة الله تثبت إلى الأبد ." (إشعيه 40: 8)

[109] (عبرانيين 13: 8)

[110] (متى 5: 39)

له الخد الآخر, إنما طلب تبريراً لهذا العمل. "إن كنتُ أخطأتُ في الكلامِ, فقلْ لي أين الخطأ, وإن كنتُ أصبتُ فلماذا تضربني."[111]

إن روح الوصايا يتطلب تصرفاً موافقاً لخاصيةِ الإنسان الشخصيةِ وفقاً للحالةِ المعينة. وعندما نذكر حالةً فإننا لا نقصد المعطياتِ الموضوعيةَ فقط التي يوجد فيهـا المرء ويعمل, إنما نقصد مكانَه الخاص فيها. أما إخضاع كل البشر لقـوانين خلقيـةٍ عامةٍ غير شخصيةٍ هو أمر غير إنساني وغير متصلٍ بروحِ الإعلان فـي المـسيح. المسيحيةُ تحترم حريةَ الإنسان احتراماً مطلقاً وتجعلُ اكتمالَه الخُلُقي مماثلاً لتجددِه في روح الحريةِ في المسيح.

الخُلُق المواقفي

في الآونةِ الأخيرةِ أكد الخلقُ المواقفي التحرر من القوانين. وقد نما في إطار العالمِ المسيحي الغربي تحت تأثير النظرياتِ الفلسفيةِ واللاهوتيةِ الحديثة. هذه الأخلاقُ تقدم وكأنها مناقضةٌ للأخلاق الشرعويةِ الكلاسيكيةِ التي أخضعت الإنسان لقوانين غير شخصية, دونما اهتمامٍ بمعطياتِ حياتِه وتأثيرها. ترفض هـذه الأخـلاقُ المواقفيـةُ القوانين العامةَ الجامدةَ غير الشخصية التي توضع لتنظيمِ حياةِ المرء والتـي تؤكـد العنصر الإنساني الشخصي, فتثبتُ مسؤوليةَ المؤمن الخُلُقية فـي كـل حالـةٍ علـى انفراد.ورغم هذه السماتِ الإيجابيةِ فهي لم تنجح في تحاشي تناقضٍ داخلي. فقد أكدت المسؤوليةَ والحريةَ, لكنها لم تتحاشَ الوصولَ إلى الإلغاءِ الكلي تقريباً لكل مبدأ خلقي. كان هذا الأمر طبيعياً, لأن هذه الأخلاقَ لم تنشأ عن عيشِ روحِ الإنجيل إنما ظهرت كثمرةٍ متأخرةٍ للحياةِ الدنيوية المعاصرة.

نقد الخلق المواقفي

هذه الأخلاقُ توصلُ حتماً إلى دحضِ معنى الأخلاق نفسِه. هذا لا يعني أن هذه الأخلاقَ مرفوضةٌ رفضاً كلياً, إنما علينا أن نعترفَ بأنها تحوي تأكيداً لحقائقَ مسيحيةٍ

---

[111] (يوحنا 18: 23)

أساسيةٍ يجب أن نوليها اهتماماً خاصاً. إن المحبةَ والحريةَ تحتلان المركز الأساسي للأخلاق المسيحيةِ. فالمسيح نفسه يرجع كل تعليمِ الشريعةِ والأنبياءِ إلى وصيةِ محبةِ ا والقريب.[112] يقول القديس بولس: "فمن أحب غيره أتم العملَ بالشريعة. فالوصايا التي تقول: "لا تزن, لا تسرقْ, لا تشهد بالزور, لا تشتهِ." وسواها من الوصايا تتلخص في هذه الوصية: "أحبب قريبك مثلما تُحب نفسك... فالمحبةُ تمام العمل بالشريعة."[113] من جهةٍ أخرى, الحريةُ مسلمةٌ للتعبيرِ عن عمل التدبيرِ الإلهي. فبدون الاعترافِ بالحريةِ الإنسانيةِ يفقد التدبير الإلهي معناه. لكن الطريقةَ التي تظهر بها المحبةُ والحريةُ في الأخلاق المواقفيةِ تحملُ نقائص وأخطاء أساسية.

ليست المحبةُ قاعدةً أخلاقيةً مجردة, إنما هي سمةُ الثالوثِ الأقدس. في المسيحيةِ, ا محبة,[114]ومحبتُه تظهر في العالمِ من خلال الخليقةِ ومن خلال العنايةِ بها.وهذه المحبةُ يشارك فيها المسيحي بواسطةِ الخلاصِ في المسيح. المحبةُ ليست مجردةً, لأنها حياةٌ في المسيح. ومن جهةٍ أخرى, الحياةُ في المسيح لا تُفهم إلا كحياةِ محبة. الحياةُ في المسيح هي حياةُ محبةٍ حقيقيةٍ, أما الأثرةُ فتناقض المحبةَ المسيحية.

لا تُقدم الأخلاقُ المسيحيةُ قوانين تُحدد حياةَ المؤمن وأفعالِه, إنما تُشير إلى اكتمالِه في الحريةِ في المسيح. فغياب القوانين التفصيلية لا يعني إبهاماً أو تشويشاً, لأن قراراتِ المحبةِ تُتخَذُ في المسيح فقط. ومع أن تعاليم المسيح لا تصفُ دقائقَ الحياةِ الخُلُقيةِ, إلا أنها اكملُ المؤشراتِ لعلاقةِ الإنسان الصحيحةِ في جو الحريةِ في المسيح.

وعلى رغم اختلافِ الشرعويةِ عن الأخلاقِ المواقفيةِ, فإن الشرعويةَ تُعد أماً للمواقفية. أما الموقفُ الأرثوذكسي فيؤكد أن القوانين الخُلُقيةَ أعطيت للإنسان من غير

---

[112] (متى 22: 40)

[113] (رومية 13: 8– 10)

[114] (1 يوحنا 4: 8)

أن تجعله عبداً لها. "ا جعلَ السبتَ للإنسان, ولم يجعل الإنسان للسبت."[115] ينبغـي تطبيقُ القوانين برحمةٍ ورأفةٍ. في هذا الصددِ يقول باسيليوس الكبير: "بما أن بعـض الأعمال آثمةٌ وبعضها الآخر يحدثُ نتيجةَ فكرٍ شريرٍ فلا يطبقُ عليها كلهـا قـانون العدل نفسه. لنفترض أن هناك شخصاً حكم عليه بالزنى وأن هناك زانيتين: الأولـى بيعت إلى قوادٍ لفقرِ حالِها وهي الآن منغمسةٌ في الشر وتُقدم إلى سيدِها الشرير تجارةَ جسدِها, أما الثانية فسلمت نفسها للخطيئة حباً باللذة. لذلك غفران الخطايـا القـسرية شيء, وإدانةُ الخطايا الناجمة عن الإرادةِ الشريرةِ شيء آخر. ولنفتـرض أيـضا أن شخصاً وقع في الخطيئةِ, لأنه نشأ على الشر, إذ ولد لأبوين شـريرين ونـشا علـى أعمالٍ وأقوالٍ فاسدةٍ, وأن شخصاً آخر فتُحت أمامه فرص كثيرةٌ لممارسةِ الفـضيلة, أي التربيةُ الفاضلة, ونصح الوالدين وسداد المعلمين وسماع الأقوال الإلهية والنظـام الصارم وكل ما يمكن أن يقوده إلى الفضيلة, لكنه سقط في الخطيئةِ نفسِها. فكيـف لا يستحق رجلٌ كهذا قصاصاً عادلاً اشد من قصاصِ الآخر؟ الأولُ سيدان لأنـه أسـاء استخدام فرصةٍ واحدةٍ للخلاص وهي فرصةٌ زرعها ا في أذهانِنا, بينمـا أعطيـت للآخر, إلى جانبِ هذه الفرصة, كل مساعدةٍ ليكون صالحاً, فسقط غفلـةً فـي سـيرةٍ شريرةٍ. إذاً العدلُ الحقيقي يتطلب عقلاً كبيراً وذهناً كاملا."[116]

يؤكد التقليد الأرثوذكسي أولويةَ الشخصِ فلا يرضى بأن يخضعه لقوانين عامة غير شخصية. وخلافاً للاهوتِ الغربي الذي وصل بناموسيته إلى تطرفٍ شـرعوي, وأثار ردةَ فعل الأخلاقِ المواقفيةِ المعاصرة, فاللاهوتُ الأرثوذكسي بميزتِه المواهبيةِ والتنزيهيةِ حافظَ على التوازن بين السلطةِ والحريةِ الشخصية. وما يشهد لموقفِه مبـدأ التدبير الذي يحتل مكاناً مهماً في حياةِ الكنيسةِ الأرثوذكسية.

---

[115] (مرقص 2: 27)

[116] الموعظة الثانية في كتاب الأمثال, مجموعة الآباء اليونانية, 31, 404.

6- المنظور المعادي

الثبات والترقب

إن شخص المسيح الذي يرتبطُ به إيمان المسيحي وحياتُه لا ينتمي إلى الماضي فحسب, إنما إلى الحاضر والمستقبل.فالمسيح الذي تجسد وصلِب ودفِن وقام وارتفـع إلى السماوات, بعد أن اتحد اقنومياً بالطبيعةِ البشرية, هو الإله السرمدي. "هو الكـائن والذي كان والذي يأتي."[117] بمجيءِ المسيح أقبلَ ملكوتُ ا علـى العـالم.[118] لكـن ملكوتَ ا يظهر في العالمِ تدبيرياً كما يظهر ا نفسه. بكلامٍ آخـر, إن ظهـور ا وملكوته في العالمِ هو في الوقتِ نفسِه إخفاء له, لأن العالم لا يـستطيع أن يـستوعب مجد ا . فملء الحق يتجاوز التاريخَ, لأنه موجود في نطاقِ الروحِ القـدس. وهنـاك ينتظر الظهور الأكملَ لمجدِ ملكوتِ ا الذي هو ظهـور لمجـدِ المـؤمنين أيـضا. ويفترض ظهور مجدِ المؤمنين ثباتَهم في ملكوتِ ا طـوالَ التـاريخ. فملكـوتُ ا المنتَظر اكتمالُه في الدهر الآتي هو ملء الملكوتِ القائمِ الآن والفاعلُ فـي التـاريخ بالتبني في المسيح.

إن ملكوتَ ا حقيقةٌ حاضرةٌ. لذاك يمكن وصفُ المعاديـةِ المـسيحيةِ بأنهـا معاديةٌ تحققت فعلاً, لكن ظهورها ينتظر تجلي المسيح الثاني. "حياتُكم مـستترةٌ مـع المسيح في ا . فمتى ظهر المسيح الذي هو حياتُنا تظهرون أنتم أيـضا معـه فـي المجدِ."[119] هكذا يوضع المؤمن كعضوٍ في الكنيسةِ في حدودِ الدهر الحاضر والـدهر الآتي. ويكتسب وجوده ميزةً معاديةً ويواجه خروجه من العالمِ كثباتٍ ورسـوخٍ فـي الحضور الأزلي لمجد ا . يقولُ نيقولاوس كباسيلاس على نحوٍ مميزٍ بأن المـؤمنين

---

117 (رؤيا 1: 4)

118 "وأما إذا كنت بإصبع الله أطرد الشياطين, فملكوت الله أقبل عليكم." (لوقا 11: 20)

119 (كولوسي 3: 3– 4)

هم أعضاء جسدِ المسيح. ورأس هذا الجسدِ لا يظهر في التاريخ, إنما سـيظهر فـي الدهر الآتي. وعندما يظهر الرأس سيظهر بهاء الأعضاء.[120]

الأمور الفورية والمباشرة

كل ما نُدركُه إدراكاً مباشراً بحواسنا يكون مؤقتاً وزائلاً. فالحق يتجاوز الأمور الفورية, والزمن لا يقدر أن يلغيها أو يبطلَها. ومتى حد المرء نفسه بما هو فـوري, قال بالنسبيةِ المطلقةِ وأبعد نفسه تلقائياً عن الحق. أما إذا وجد الحق فقد أدرك نـسبيةَ كل الأمور الفورية.فدخولُه إلى ملكوتِ ا الذي هو حقٌ أزلي لا ينفي الشعور بزوال العالمِ الفاني. وحتى يستطيع المرء أن يحفظَ رجوعه إلى ملكوتِ ا عليه أن يجاهـد ليتجاوز تجارب الأمور الزائلةِ والفوريةِ. والتجاوز يتحققُ بالرجاءِ الثابتِ بالانتـصار النهائي لملكوتِ ا . وبما أن هذا الرجاء يتعلقُ بواقعٍ حقيقي وأكيدٍ يذوقُه المؤمن فـي الحياةِ الحاضرةِ فهو في جوهره انتظار وترقب. فالمؤمن لا يرجـو الأمـور رجـاء مجرداً, إنما ينتظر القيامةَ والحياةَ المستقبلة.[121]

عيش الرجاء

يحيا المؤمنون انتظار القيامةِ والحياةِ المستقبلة بوسائلَ عديدةٍ. في أيامِ الرسـل انتظر بعض مؤمني مدينةِ سالونيك اكتمالَ الرجاء وتحقيقَه فـي المـستقبل القريـب, فأخذوا يتركون أعمالَهم ويعتبرون الاهتمام بالعالمِ من النوافل, إذ انتظروا أن يبيد ا

---

[120] "الحق, أننا أعضاء جسد المسيح, وهذا هو فعل المعمودية. فبهاء الأعضاء وجمالهم يلتئم في الرأس, لأن الأعضاء لا يظهر جمالها ما لم تكن متحدة بالرأس. والرأس في هذا الدهر مستتر في الأعضاء, لكنه ستجلى في الحياة المستقبلة, فتضيء الأعضاء وتتلقى الإشراق منه, لأنها مع الرأس سنشع نورا." الحياة في المسيح 2, مجموعة الآباء اليونانية 150, 548.

[121] "وأنتظر قيامة الأموات والحياة في الدهر الآتي." دستور الإيمان.

العالم بين لحظةٍ وأخرى. هذا النوع من الانتظار شَجبه الرسولُ, لأن انتظار الملكوتِ ليس سلبياً ولا يبرر اللامبالاةَ بالحياةِ اليومية, إنما يتطلب سهراً وتيقظا.[122]

ومن جهةٍ أخرى, كان تأخر المجيء الثاني للمسيح ذريعـةً لتراخـي الـروح المعادية. لذلك واجه الرسولُ بطرس هذا الموضوع فأكد أن زمن إبطال العالمِ وظهور ملكوتِ ا   ليس لهما أهميةٌ خاصة. فمقولةُ الزمن التي يفكر فيها الإنسان ويعملُ مـن خلالها لا يسري مفعولها على ا . "إن يوماً واحداً عند الربِ كألفِ سـنة, وإن ألـفَ سنةٍ كيومٍ واحد."[123] فالشيء الأساسي عند المؤمن هو أن ا حقق إعلانَـه الأخيـر للعالمِ في المسيح. ولكلمةِ المسيح قوةُ ملكوتِ ا , وقبولُها هو قبولٌ لملكوتِـه. بكـلامٍ آخر, إن كل موقفٍ يتخذُه المؤمن في سبيل بشارةِ المسيح هو عملٌ معادي. فلو تأخر الحضور الثاني للربِ, فعلى المؤمنين ألا يقعوا في العِثار, وألا يتخلوا عن تفكيـرهم المعادي أو أن ينقادوا إلى ضعفٍ وارتخاءٍ خلقيين. المسيح هو رب العالمِ والتـاريخ, كان وكائن وسيكون. فحضور الرب المنتظر يؤكده المثلُ المعروفُ عن العبدِ الشرير: "إما إذا كان هذا الخادم شريراً وقال في نفسِه: سيتأخر سيدي فـي رجوعِـه, وأخـذَ يضرب رفاقَه ويأكلُ ويشرب مع السكيرين, فيرجع سيده في يومٍ لا ينتظره وساعةٍ لا يعرفُها فيمزقه تمزيقاً ويجعلُ مصيره مـع المنـافقين. وهنـاك البكـاء وصـريفُ الأسنان."[124] والحق, أن الرب لن يبطئَ في إتمامِ وعدِه, لكنه يوسع أناتَه حتى يتـوب ويخلاص أكبر عددٍ من الناس.[125]

---

[122] أنظر 1 تسالونيكي 5: 6 و 2 تسالونيكي 2: 1

[123] (2 بطرس 3: 8 .)

[124] (متى 24: 48 – 51)

[125] (2 بطرس 3: 9)

في التاريخ تحققَ وعد المسيح بظهورِ ملكوتِ ا "في مجدٍ عظيم"[126] بالتجلي الإلهي وبكل ظهورٍ لمجدِ ا في القديسين.[127] واليوم الأخير الذي يسمى "يوم الرب" هو اليوم الذي سيظهر فيه مجده ظهوراً قاطعاً. فا الذي لا يرى ولا يدانى والـذي تجسد كإنسانٍ متواضعٍ سيكون فرح القديسين الذي لا يسبر ولا ينتهي كما سيكون يوم حزنٍ للخطاة. وفيما كان تجسده خلاصاً للعالم, كان حضوره الممجد دينونـةً للعـالم, لأنه سيدين أولئك الذين يحيون سيرةَ الكفرِ والهوى.ولن يجيء يوم الرب على أولئـك الذين يحيون في العالمِ "كأبناءِ النورِ وأبناءِ النهار,"[128] لأنهم يحيون فيه.[129] هذا اليوم سيظهر "كاللص في الليل,"[130] وسيدين أبناء هذا العالم. وهذا اليوم ليس اليوم الأخيـر للعالمِ فقط, إنما اليوم الأخير لحياتِهم الأرضيةِ كذلك. بالموتِ الجاثمِ في كـل لحظـةٍ وبدينونةِ ا المرتَقبةِ يجد المرء نفسه في كل لحظةٍ من حياتِه أمام يومِ الدين الأخير. من يؤمن با لا يدن, ومن لا يؤمن به قد دين.[131] الدينونةُ لا تحدثُ في نهايةِ العـالمِ فقط, بل في كل لحظةٍ من لحظاتِ حياةِ البشر, لأن دينونتَه نتيجةٌ لظهورِ ملكوتِه الذي ارتبطت به واتجهت إليه كل لحظةٍ من لحظاتِ التاريخ في الكنيسة. روحيـاً يتحقـقُ استعداد الإنسان لقبول ملكوتِ ا وعيشِ يومِ الرب من خلال وعي بطـلان العـالِمِ وتحويل اتجاهِه من الأمورِ الآنيةِ إلى الحق نفسِه. وفنائيةُ العالِمِ وقصر الحياةِ واقتراب

---

[126] (مرقص 9: 1 أنظر متى 16: 28, ولوقا 9: 27)

[127] راجع غريغوريوس بالاماس, دفاعا عن الذين يحيون حياة السكينة بوقار 1, 3, 26.

[128] (1 تسالونيكي 5: 5)

[129] "من يسمع لي ويؤمن بمن أرسلني فله الحياة الأبدية, ولا يمثل أمام القضاء, لأنه انتقل من الموت إلى الحياة." (يوحنا 5: 24)

[130] (1 تسالونيكي 5: 2)

[131] (يوحنا 3: 18)

الموتِ أمور تُظهر الباطلَ الذي يقود إليه الالتصاقُ بالأمور الآنية. فالشعور بـبطلان الحياةِ يحرر المرء من عبوديةِ الأمور الفوريةِ ويرجعه إلى ملكوتِ ا .[132] فيتجـاوز العالم الحاضر والزمن الدنيوي ويثبتُ في الحضرةِ الإلهيةِ التي تضم كل شيءٍ مـن حيث أنها أزليةٌ.[133]لذلك يدعى المؤمن إلى أن يعبر هذه الحياةَ مـسرعاً إلـى حيـاةٍ أخرى.[134] من المميز استخدام الفعل "أسرع" الذي يدل على الطريقةِ التي يجب مـن خلالها مواجهة الحياةِ المستقبلة. وهكذا يقال عن الميت في خدمةِ جناز العلمانيين بأنه, "يذهب إلى القبر مسرعاً غير مهتمٍ بأباطيل الجسدِ المنصب."[135]

الزمن المعادي

منذ أن جاء المسيح إلى العالمِ والإنسان يحيا في زمنٍ معادي وانقضائي. فالفُلك الذي يقدمه ا للعالمِ حتى يخاص ويتقبلَ هديتَه في هذا الزمن المعادي هو الكنيـسة. فالكنيسةُ التي في جوهرها شركةُ تألهٍ تتحلى بميزةٍ معادية. ولذلك يقـولُ باسـيليوس الكبير إن "قوانين الكنيسةِ تُعلم المؤمن أن ينقلَ في كل حينٍ عقلَه من الحاضراتِ إلى المستقبلات.[136] بهذا المعنى تكون الصلاةُ الروحيةُ الهادفةُ إلى رفعِ العقل والقلبِ إلى ا تعبيراً معادياً صرفاً. والتعبير المعادي الأسمى في الكنيسةِ هو إقامةُ سر الـشكر الإلهي الذي ارتبطَ برجاءِ وانتظار الحضور الثاني للمسيح.

---

[132] "الحياة قصيرة والموت قريب. فما في هذا العالم يختلف عن الخالدات. والوصول إليها يتم عبر الازدراء بالعالم الحاضر والاستعداد للمستقبل والعيش على هذه الأرض انطلاقا لتلك المواطنية." غريغوريوس بالاماس, الموعظة 19, مجموعة الآباء اليونانية 151, 261.

[133] القديس باسيليوس الكبير, في تفسير إشعيه 119. مجموعة الآباء اليونانية, 30. 312.

[134] القديس باسيليوس الكبير, في تفسير المزامير 1, مجموعة الآباء اليونانية 32, 252.

[135] ترتيلة القبلة الأخيرة.

[136] في الروح القدس 66, مجموعة الآباء اليونانية 32, 192.

موقع المؤمن في العالم

لا تستلزم النظرةُ المعاديةُ انفصالاً عن العالم, إنما تستلزم تغييراً فـي موقفِـه الداخلي. فالمؤمن يدرك حضور الانقضاءِ في الدهر الحاضر ويحيا قوتَه المجددة في العالم. بهذه الطريقةِ يتجاوز القيود التي يفرضها التعلقُ بالأمور الزائلةِ, ويصبح فـي موقعٍ خلاقٍ ومهمين. وفي الوقتِ نفسِه, تشير النظرةُ المعاديةُ إلى أهميةِ حياةِ المؤمن الأرضيةِ, لأن خلاصه الأبدي أو هلاكه يتقرران فيها. في الواقـع, يقبـلُ الإنـسان خلاصه أو يرفضه أثناء حياتِه على الأرض.الخلاص هبةٌ من ا , لكن الإنسان مدعو في حياتِه الأرضيةِ إلى الجهادِ كي يحافظَ على دعوتِه ويساهم في تجديدِه وتأليهه. هذا الرجاء يقوي المؤمنين في مواجهةِ الشر ويشدد الصبر في سبيل مواجهـةِ الأهـواءِ وإنماءِ الفضائل في حياتِهم. إلى جانبِ الأهميةِ الخُلُقيةِ, فالرجاء المعادي ذو محتـوى اجتماعي, لأنه يظهر الميزةَ الاجتماعيةَ لحياةِ المؤمنين. هذه الأمور تتحققُ في دائـرةِ التناقضاتِ بين الدهر الحاضر والدهر المستقبل, التي هي الدائرةُ الخاصةُ التي ترجع إليها الأخلاقُ المسيحية. هذه الروح التي تحرك المؤمنين تجعلُهم يتحملون الـضيقاتِ والتجارب في حياتِهم الشخصيةِ والاجتماعيةِ بفرحٍ كبير. هـذه الـضيقاتُ لا تـؤذي المسيحي, إنما تساعده وتريحه إراحةً كاملةً.

التوجيه المعادي

توجه الروح المعاديةُ المؤمنين إلى حقيقةِ ملكوتِ ا . ولذلك يـصفُ بـولس الرسولُ الحياةَ الحاضرةَ وكأنها ليلٌ والحياة المستقبلة وكأنها نهار.[137] فظلمـةُ العـالمِ وخطيئتُه توصلان إلى التلاشي والاضمحلال, غير أن نور الربِ وحقه اقتربا. من هنا يدعى المؤمنون إلى رفض أعمال الظلمةِ والتسلح بأسلحةِ النور.[138] في هـذا العـالمِ الفاني والزائل يحيا المؤمنون ويتحركون ويتحملون تأثير الشر والخطيئة. وهذا يخلقُ

[137] "تناهى الليل واقترب النهار." (رومية 13: 12)

[138] (رومية 13: 12 – 14)

مشكلةً كبرى وتوتراً في علاقتِهم بالعالم. هكذا أدت الرغبـةُ فـي ممارسـةِ الحيـاةِ المسيحيةِ الحقيقيةِ التي لا تعرفُ التراجع أو المساومةَ إلى ظهور التنسكِ والرهبنـة. وهذه الظاهرةُ هي وسيلةُ أهل الدنيا تذكرهم بواجبِ تكيفِهم وفقَ مشيئةِ ا وجهـادِهم في سبيل كمالِهم الخلقي فيحفظون بذلك توجههم المعادي.

خطر الفضائل

ولو بذلنا جهوداً مكثفةً في سبيل الكمال الخُلُقي تبقى الأخطار الروحيةُ الجسيمةُ قائمةً. فقد تُنمي ممارسةُ الفضيلةِ الشعور الكاذب بالاكتفاءِ الذاتي, فتقود إلـى الأثـرةِ والتغربِ عن ا . تتم هذه الأمور عندما لا تستند إلى التواضع والمحبة. هنـا يكمـن خطر الفريسية الكبير. لذلك يجب على المؤمنين أن يحافظوا بقـوةٍ علـى الـشعور بضعفِهم ونقصِهم متممين واجباتِهم تجاه الآخرين. ومهما تكن مـساهمةُ المـرءِ فـي خلاصِه تظلُ عديمةَ القيمةِ أمام نعمةِ ا التي لا تُقاس. أما الشعور بأن المرء قـادر على القيامِ بأعمالٍ لا تُقدم له الخلاص فحسب, بل تقدمه للآخرين أيضا هـو شـعور خاطئٌ وغير مقبولٍ أرثوذكسيا.

اللامبالاة بالفضائل

لعل عيشَ التوتر بين فكر المؤمنين وفكر العالم يفضي بهم إلى إهمـالٍ كلـي للجهادِ في سبيل الفضائل والكمال الروحي وإلى الخضوع لفكر العالم. إن ميلاً كهـذا قد يوصلُ إلى ضعفِ المرءِ في ممارسةِ الفضيلةِ وإلى التجاهل الكلي للمعنـى الـذي يحتله التآزر البشري فينتظر الخلاص من نعمةِ ا فقط. بيد أن ميـلَ العـالمِ إلـى الخطيئةِ وضعفَ البشر يجب ألا يقودا المرء إلى خيبةِ الأمل والاستعبادِ للعالم. فـا الساكن في قلوبِ المؤمنين قدير وقاهر للشرير الذي ينمي فينا فكر العالم.[139] والمؤمن يعرفُ بدوره أن ا ليس رب المؤمنين فحسب, إنما هو أيضا رب العالمِ والتـاريخ

---

[139] "إن الله الذي فيكم أقوى من إبليس الذي في العالم." (1 يوحنا 4: 4)

القادر على كل شيء. وبذلك يشعر بحضوره في ثنايا حياتِه ومظاهرها, فينمي عنـده المنظور المعادي.

تجاوز التناقضات

هذه الرؤيةُ تُبطلُ كل التناقضاتِ بين الآني والأزلي, فترتبطُ الحياةُ الحاضـرةُ بالمستقبلة. الحياةُ الحاضرةُ هي مطلع الحياةِ المستقبلةِ التي هي بدورها استمرار للحياةِ الحاضرة. يقول نيقولاوس كباسيلاس إن الحياةَ في المسيح "تنمو في هذه الحياةِ وتبدأُ من هنا, لكنها تكتملُ في الحياةِ المستقبلة, لأننا بلغنا ذلك اليوم. فلا الحياةُ هنا قـادرةٌ على إدخالِها في نفوسِ البشرِ ولا المستقبلُ قادر على ذلك ما لم يبدأ من هنا."[140] هذا الارتباطُ العظيم المتناغم بين الحاضرِ والمستقبل وبين الزمن والأبديةِ تُعبر عنه تعبيراً مميزاً ترتيلةَ التمجيدِ "الآن وكل آن وإلى أبد الآبدين." التي تُردد دائماً في الكنيسة.

الأحاسيس الروحية

الحياةُ في المسيح نموذج للواقع المعادي. فيها يتربى المرء ويستعد "للحياةِ التي تجيء بعد القيامة."[141] وثباتُه في جسدِ المسيح هو الذي يهيئه ويوجهه نحـو الحيـاةِ المستقبلة. فيقتنى المسيحي بدءاً من الحياةِ الحاضرةِ مـشاعر تـذوق فـرح الحيـاةِ المستقبلة. بدونها يبقى واقع الحياةِ المستقبلةِ صعب المنال.[142] الحياةُ الحاضـرةُ هـي

---

[140] "الحياة في المسيح" 1 مجموعة الآباء اليونانية 150, 493.

[141] القديس باسيليوس الكبير, في الروح القدس 15, مجموعة الآباء اليونانية 32, 132.

[142] يقول كباسيلاس عن أولئك القائمين في الحياة المستقبلة وهم غير مطبوعين على هذه المشاعر, "بأن لا شيء سيساعدهم على الدخول إلى السعادة, لأنهم سيسكنون العالم الخالد الهنيء كأموات أشقياء. والسبب هو أن النور سيشرق والشمس تعطي بصفاء ضوءها, لكن الله لا يخلق العين في ذلك الوقت, وأن أريج الروح سينسكب انسكابا غزيرا ويمتد إلى كل شيء, لكن حاسة الشم لا يحصل عليها أحد ما لم تكن موجودة عنده من قبل." "الحياة في المسيح 1" مجموعة الآباء اليونانية 150, 493– 496.

مصنع للأحاسيسِ الروحية. والفضائلُ التي ينميها المؤمن في حياتِه تتـصلُ بالأبديـةِ وتجعلُه أهلاً لتقبل الغبطةِ المنتظرة. لكن تحويلَ المسيحيةِ إلى شيءٍ اصطلاحي مبتذلٍ يزيفُ جوهرياً محتواها ويقضي على أهميتِها الإنسانية. وبدون المنظـور المعـادي تتحولُ الحياةُ إلى حياةٍ لا هدفَ لها ولا معنى.

7- التوبة والعودة إلى ا

أهمية التوبة

في ضوءِ الأخلاقِ المسيحيةِ لا يتم التمييز بين الناسِ قياساً إلـى فـضائلهم أو رذائلهم فحسب, إنما إلى رغبتِهم في التوبةِ أو إلى إصرارهم على الخطيئـة. ولقـد أثمرت التربيةُ التي مارسها ا من خلال الشريعةِ والأنبياءِ حينما وصلَ الناس إلـى التوبة. وكذلك التربيةُ التي تمارسها الكنيسةُ تثمر حيناً يرجع الناس عـن ضـلالهم. وعند مرقص الناسك كان تنوع الوصايا يهدفُ إلى شيءٍ واحدٍ ألا وهو التوبة.[143]

يرتبطُ إنجيلُ ملكوتِ ا ارتباطاً عضوياً ببشارةِ الملكوت. وما يجدر ذكره هو ما أورده الإنجيليون من بشارةِ آخر نبي في إسرائيل وكذلك من بشارةِ المسيح نفسِه. لما أعلن يوحنا السابقُ للمسيح عن مجيءِ ا إلى العالمِ بشر فقال: "توبوا, لأن ملكوتَ السماواتِ قد حضر."[144] فبشارةُ التوبةِ التي وجهها يوحنا فيما يخص مجيء ملكـوتِ ا هي خلاصةُ الشريعةِ والأنبياء. فغايةُ الشريعةِ, كما يقولُ الرسولُ, هـي ظهـور الخطيئة: "لأن الشريعةَ لمعرفةِ الخطيئـة,"[145] "ولكننـي لـم أعـرفِ الخطيئـةَ إلا بالشريعةِ."[146] ولذلك تُخطئُ النظرةُ القائلةُ بأن شريعةَ العهدِ القديمِ تهدفُ فقـط إلـى إصلاحِ الإنسان خلقياً.متى عمِلَ الناس بشريعةِ ا أُصلحوا خلقياً.لكن هذا لا يعني أن الشريعةَ أعطيت لإنقاذِهم من الموت, أو أن نموهم الخُلُقي, مهما كانت درجةُ بلوغِـه, قادر على أن يخلصهم. فأبرار العهدِ القديمِ لم يكونوا بجملتهم منزهين عن الذنوبِ, بل كانوا خطاةً أسلموا أنفسهم بالتوبةِ وانسحاقِ القلبِ إلى بر ا ورحمتِه. فبشارةُ الأنبياءِ كانت تهدفُ إلى توبتِهم من خلال إعلان قوةِ ا ومجيءِ ملكوتِه.

---

[143] في التوبة 1, مجموعة الآباء اليونانية 65, 965.

[144] (متى 3: 2)

[145] (رومية 3: 20)

[146] (رومية 7: 7)

لقد بدأ المسيح, الذي أدخلَ الملكوتَ إلى العالمِ, بشارتَه داعياً الناس إلى التوبة. "وبدأ يسوع من ذلك الوقت يبشر فيقول: "توبوا, لأن ملكوتَ السماواتِ قد حضر."[147] بدء بشارةِ المسيح يعطي مقياس عظمةِ التوبةِ في المسيحية. والوسيلةُ الفريـدةُ التـي تنفع كل بشرٍ ليستجيب لدعوةِ ا ولیندرج في ملكوته هي التوبةُ وحدها.هكـذا نفهـم لماذا لم يكن الفريسيون هم الذين قبلوا البشارةَ, إنما جباةُ الضرائبِ والزوانـي الـذين أحسوا بخطيئتِهم وتابوا. قد يظهر تفضيلُ المسيح لجباةِ الـضرائبِ والزوانـي علـى علماءِ الشريعةِ والفريسيين غريباً من الناحيةِ الاجتماعية. لكن مسيحيةً كهذه لا تتصلُ أبداً بإنجيل ملكوتِ ا الذي جاء به المسيح إلى العالم.

تقلب بشارةُ ملكوتِ ا كل المفاهيمِ الدينيةِ والاجتماعيـةِ والخُلُقيـةِ المألوفـة وتخلقُ مفاهيم جديدة تقوم على التوبةِ والمحبة. المسيح لـم يطلـب مـن النـاس أن يصبحوا خطاةً أقل مما كانوا عليه, إنما دعاهم إلى أن يتوبوا ويقبلوا بشارةَ ملكـوتِ ا . الرسلُ أيضا بشروا الوثنيين داعين إياهم إلى "التوبةِ والرجوع إلى ا ."[148]إذا لم ترهق الناس لهفةَ الندمِ ظلوا عبيداً للخطيئةِ والموتِ بعيدين عن ا , "فهم كلهم خطئوا وحرموا مجد ا ."[149]

التوبةُ ابتعاد عن الخطيئةِ ورجوع إلى ا ,[150] وذكر ا ذكراً عقليـاً. إنهـا ترياقُ الخطيئةِ وتغيير جذري يسمح بظهور نعمةِ ا للإنسان.

حياة منزهة عن الذنوب

---

[147] (م 4: 17)

[148] (أعمال 26: 20)

[149] (2 رومية 3: 23)

[150] "التوبة كره للخطيئة ومحبة للفضيلة وانحراف عن الشر وصنع للخير. وقبل كل شيء على المرء أن يعرف خطاياه وأن يتوب أمام الله ويعتصم به بقلب منسحق ويلقي نفسه في بحر حنانه معتبرا نفسه غير مستحق لأن يحسب من بين أبنائه, كما قال الابن الضال: "لا أستحق بعد أن أدعى لك ابنا, فعاملني كأجير عندك." غريغوريوس بالاماس, الموعظة 59, 5.

إن الحياةَ المسيحية, من حيث أنها حياةُ شركةٍ دائمةٍ مع ا , هي في جوهرهـا حياةٌ منزهةٌ عن الذنوب.على مقدار قربِ الإنسان من ا تأتيه المشاركةُ في الحيـاةِ الإلهيةِ, وبها ينعدم مجالُ الخطيئة. وإذا رجع كل بشرٍ إلى ا تلاشت الخطيئةُ ونـال التقديس. القداسةُ هي مقولةٌ كيانيةٌ لا خلقية. وهي خاصةٌ يكتسبها كعضوٍ فـي جـسدِ المسيح وكشريكٍ في الحياةِ الإلهية.وبمشاركتِه في الخَليقـةِ الجديـدةِ يخلـقُ وضـعه الجديد.[151] أما الخطيئةُ فترجع إلى الإرادةِ الشريرةِ,[152] التي تغرب الإنسان عن ذاتِـه وعن ا . المسيحي بولادتِه في المسيح وبارتباطِه با يتقدس ويتحرر من الخطيئـةِ ويصبح منزهاً عن الذنوبِ. المسيحي, كما يقولُ يوحنا الرسولي "لا يعملُ الخطيئـةَ, لأنه مولود من ا ."[153] يقول كذلك القديس إغناطيوس الأنطاكي الحاملُ الإله "من لـه الإيمان لا يخطأ."[154] ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يدعي بأنه لا يخطأ. فيوحنا الرسول في تأكيدِه على أن الإيمان المسيحي لا يوافقُ الخطيئةَ قال: "إذا قلنا إننا بـلا خطيئـةٍ خدعنا أنفسنا ولم يكن الحق فينا."[155]

تكذيب الزمن

هنا توجد مفارقةُ الحياةِ المسيحية. فيما تكون هذه الحياةُ مقدسةً ومنزهةً عـن الذنوبِ ومستنيرةً بحقيقةِ ا ونعمةِ الروح القدس فإنها ستبقى متأثرةً بالخطيئة. هـذه

---

[151] أنظر كباسيلاس, تفسير القداس الإلهي 36, مجموعة الآباء اليونانية 150, 449.

[152] "ليست الخطيئة من الطبيعة, إنما من الإرادة الشريرة." ثيوذوروس القورشي, الجامعة 1, مجموعة الآباء اليونانية 83, 40. "الشيطان نفسه يسمى خطيئة, لأنه موحيها ومعلمها." يوحنا الذهبي الفم, الموعظة السابعة في الرسالة إلى أهل رومية 19, مجموعة الآباء اليونانية. 60, 190.

[153] (1 يوحنا 3: 9)

[154] إلى أهل أفسس 14: 2.

[155] (1 يوحنا 1: 8)

المفارقةُ ترتبطُ ارتباطاً وثيقَ العرى بعامل الزمن الذي يحدد وجود الإنسان في العالمِ ويهدده بالتكذيبِ الخُلُقي والكياني. فالزمن الذي يمر ويجري ينقلُه إلى الموتِ "ويؤذيه" ويحركُه باتجاهِ الخطيئة. أما ذكر ا الذي هو المسلمةُ الضروريةُ لتجنبِ الخطيئةِ فقد يختفي في الزمن بفعل الإهمال الروحي الذي يقود إلى الخطيئة. يقولُ نيقولاوس كباسيلاس: "عظيم طغيان الإهمال, فأي هوى من الأهواءِ البشريةِ لا يدمر المرء تدميراً مستمراً وسهلاً مثله."[156] على هذا النحو يظهر تكذيب الحياةِ المعصومةِ من الذنوب.

التوبة أسلوب حياتي

ما يكذبه الزمن الدنيوي يصلح في نطاق زمن سر الشكر الإلهي.فالهوةُ التي تتكون خلقياً بين المؤمن وا تُردم كيانياً بالنعمةِ الإلهيةِ, التي قُدمت في المسيح. "ودم المسيح يطهرنُا من كل خطيئة."[157] هذا يعني أن التجديد الكياني الذي يتم في نطاق سر الشكر الإلهي قد لا يرتبطُ بتجديدِ المؤمن خلقياً وبعلاقاتِه الشخصيةِ والاجتماعيةِ في يومياتِ الزمن العالمي. فبقاء الإنسان قريباً من ا يتم في أطر حياتِه وفي اختلاطِه بأخوتِه البشر.[158] وما لا يقدر أن يحققَه المرء بقواه, بكونه مائتاً فاسداً, يقدمه له ا بنعمتِه.والفرضيةُ الأساسيةُ لمشاركتِه في نعمةِ ا هي التوبة. وهذا يعني أن التوبةَ لا تُمنح للبشر, لكي يقبلَ نعمةَ ا فحسب, بل لكي تحفظَه وتصونَه.التوبةُ لا تُفهم كشيءٍ منعزلٍ, إنما كأسلوبٍ حياتي. الحياةُ المسيحيةُ حياةُ توبةٍ وانسحاقٍ وزهدٍ

---

[156] تفسير القداس الإلهي 21, مجموعة الآباء اليونانية 150, 413.

[157] (1 يوحنا 1: 7)

[158] "فإذا أحببتم بعضكم بعضا يعرف الناس جميعا أنكم تلاميذي." (يوحنا 13: 35)

في الذاتِ من خلال المحبةِ ونعمةِ ا . التوبةُ لا تنتهي أبدا.[159] التوبـةُ عمـلُ حيـاةٍ وممارستُها هي الإمكانيةُ الوحيدةُ لحفظِ المرءِ كابنٍ .

الخطايا المميتة

التوبةُ لا تعني الحث على الخطيئة. في القرون الأولى من تاريخ الكنيسةِ جرت مناقشاتٌ حادةٌ فيما إذا كان يعاد قبولُ المؤمنين الذين سقطوا في خطايا عظيمة. موقفُ الرسالةِ إلى العبرانيين موقفٌ سلبي.[160] وفي كتابِ الراعي هرماس هناك موقفٌ أكثر ليونة من الموقفِ السابق, لأنه يعطي المسيحيين الذين سقطوا في خطايا كهذه فرصةً أخرى للتوبة.[161] في نهايةِ المطافِ لم تضع الكنيسةُ قيوداً أمـام عـودةِ المـسيحيين التائبين, لكنها لم تتوقفْ عن الحفاظِ على الصرامةِ تجاه الخطايا المسماة عظيمـة أو مميتة كالقتل والزنى والارتداد. ليست الخطيئةُ واقعاً موضـوعياً يخـضع لمقـاييس معينة. ولذلك يستحيلُ أن نصفَ الخطايا أو نميز بين خطايا مميتة وخطايا غير مميتة. الموتُ الروحي لا يتم باقترافِ خطيئةٍ معينة, بل بانفصالِه عن جسدِ المسيح. طبعا هذا الانفصالُ يعبر عنه بخطايا معينةٍ أيضا. وبدهي أن تُظهر الخطايا التي تبدو عظيمـةً موتَ الإنسان الروحي. بهذا المعنى نميز بين خطايا مميتة وخطايا غير مميتة.[162]لهذا التميز أسباب عمليةٌ ورعويةٌ لا تُعتبر تمييزاً مطلقا. فالتغرب عن ا ومن ثَم المـوتُ الروحي قد ينشأ من غير أن يوسم ظاهرياً بخطايا مميتة. التجديفُ على الروح القدس, بصفتِه مكابرةً وإصراراً على الذنوب, يمكن أن يظهر من خـلال خطايـا صـغيرةٍ

---

[159] "التوبة توافق جميع الذين يريدون الخلاص, سواء كانوا خطاة أم أبرارا . فلا حد للكمال, لأن كمال الكاملين لا ينتهي. لذلك لا تحد التوبة بالأوقات ولا بالأعمال حتى الموت." اسحق السرياني, النسكيات, الكلمة 55.

[160] (عبرانيين 6: 4- 6, أنظر أيضا 12: 16- 17)

[161] الرسالة 3: 3.

[162] انظر 1 يوحنا 5: 16.

ظاهرياً وليس من خطايا عظيمة. لذلك يحث الذهبي الفم المؤمنين فيقـول: "لا نكـن متهاونين في الخطايا الصغيرة, بل يجب أن نكف عنها كلياً."[163] هكـذا يحـث آبـاء الكنيسةِ المؤمنين على السهر لاكتشافِ ضعفِهم الشخصي الذي مـن خلالِـه تـسود الخطيئة.[164] يجب ألا نفتشَ عن التمييز بين خطايا عظيمةٍ وخطايا صغيرةٍ في مظاهر الأعمال, إنما في نيةِ الخاطئ. فالخطيئةُ العظمى "تسيطر على كل بـشرٍ والخطيئـةُ الصغرى تُسيطر عليه أيضا."[165] الخطيئةُ المميتةُ هي التي تخرجه من الكنيسة. ومتى كانت تجديفاً على الروحِ القدس, أي كانت مكابرةً وبهتاً, فلـن يقـوى المـرء علـى الانخراطِ في الكنيسة.[166] موضوعياً لا وجود لخطيئةٍ لا تُغتفر عندما تُوجد نيةُ للتوبة.

التوبة والاعتراف

ولأن التوبةَ سر إعادةِ قبول الذين انفصلوا عن الكنيسةِ فهي مقبولةٌ في حالاتٍ استثنائية. وخارج سر التوبةِ الذي هو إعادةُ انخراطِ عضوٍ من الأعضاءِ فـي جـسدِ الكنيسةِ هناك الاعترافُ بالخطايا وهو عملٌ يجري في الكنيسة. وهذا كان يتم علنـاً, لكن ولأسبابٍ عمليةٍ أي لتجنبِ المشاكل وسوءِ التفسير حصِر فـي إطـارِ التوجيـهِ الفردي الروحي.

يحملُ سر الاعترافِ الممارس في الكنيسةِ خاتم التقليدِ الرهباني, ولذلك تطابقَ مع سر التوبة. وبما أن الكنيسةَ في القرون الأولى تحفظت تجاه الذين خطئوا خطيئـةً مميتةً, فالسؤالُ المطروح اليوم: كيف نؤيد الاقتراب من الاعترافِ إذا لم يفصلْ عـن

---

[163] تفسير المزامير 6: 6 مجموعة الآباء اليونانية 55, 80.

[164] أنظر أيضا 2 بطرس 2: 19 "لأن ما يغلب الإنسان يستعبد الإنسان."

[165] باسيليوس الكبير, القوانين المختصرة 293, مجموعة الآباء اليونانية 31, 1288.

[166] "الخطيئة التي لا يتوب عنها مقترفها تولد الموت, والله لا يستجيب صلاة أي كان, حتى ولو كان قديسا, من أجل معاند مكابر." مرقص الناسك, في الذين يعتقدون أنهم بالأعمال يتبررون 41, مجموعة الآباء اليونانية 65, 936.

سر التوبة؟! لذلك يجب التمييز بين الاعتراف المنتظم في الكنيسةِ الهادفِ إلى التوجيهِ الروحي وبين ممارستِه في حالاتٍ معينةٍ عندما يقطع العضو من الكنيـسةِ ويبـسل. المهم في الرهبنةِ وجود تمييزٍ بين سر الاعتراف والبوح بالأفكار الشريرة. هذا البوح يتم عند أبٍ روحي, ليس كاهناً بالضرورةِ, أما الاعترافُ المرتبطُ بحل الخطايا فيـتم على يدِ الكاهن.وهكذا يلجأُ الراهب مراراً إلى أبيه الروحي ليبوح بأفكـاره وينتـصح منه. أما الاعترافُ أمام الكاهن فقد حل محلَ سر التوبة. وعلى نحوٍ مشابهٍ يجـب أن يميز ضمير المؤمن بين الاعترافِ كعملٍ كنسي يمارس لتوجيـهِ أعـضاءِ الكنيـسةِ ونصحِهم وبين الاعترافِ الهادفِ إلى قبول أعضائها المبسلين.

8- الإيمان

معنى الإيمان

يدين حضور الإيمان با   لغيابٍ ظاهري عن العالم. فـا   لا يفـرض على المرءِ أن يعترفَ به بقوةٍ كونيةٍ أو بقوةٍ خارجيةٍ موجبةٍ, لأن الاعتـرافَ بـا وبحضوره في العالمِ يبقى في حدودِ تصرفِه وحريتِه. هذا لا يعني أن العـالم لـيس مؤشراً يدل على الخالق, أو أن استقصاء العالمِ لا يوصلُ إلى التفتيشِ الاختياري عن ا . ما الإيمان با   تعبيراً عن الإكراهِ, إنما تعبير عن الحريةِ. بالإيمان يتقدم الإنسان إلى ما وراءِ الأمورِ المباشرةِ والفوريةِ ويعترفُ بغيابٍ ظاهري   عن العالمِ وكأنـه طريقٌ لحضوره فيه.

محتوى الإيمان

إن للإيمان با   أهميةً كبرى للإنسان. واعترافُ الإنسان با   كخالقٍ هو مـن ضمن إمكانياتِ وجودِه. لكن لا يكفي أن يعترفَ الإنسان با   كخـالقٍ, لأن خلاصـه يتحققُ بتجسدِ الكلمة. فالإيمان المسيحي, بصفتِه استجابةً لدعوةِ ا   الذي صار جسداً, يحملُ معنى خاصاً.والمحبةُ التي أظهرها ا   للعالمِ تُحدد محتوى الإيمـان. وبمـا أن ظهور محبةِ ا   اكتملَ بمجيء المسيح, فطبيعي أن يحدد الإعلان في المسيح محتوى الإيمان با . وهذا الإيمان لا يكون في إبلاغ الحقائق الدينيةِ والخُلُقيةِ فحسب, إنما في إظهارِ ملكوتِ ا   وواقعِ الإنسان الجديدِ في التاريخ. فالإيمـان المـسيحي لا يكتمـلُ بالاعترافِ العامِ با   ووصاياه, إنما يفترض انخراطاً شخصياً في الواقعِ الجديدِ الـذي أُعلن للعالم. في عالمِ الخطيئةِ والموتِ يمد ا   العون لكل بشرٍ ويقوده إلى واقعٍ جديدٍ متحررٍ من سلطانِ الموت. والمسيح في ناسوتِه هو حاملٌ لهذا الواقع الجديدِ من خلال انتصاره على الموت, ومحرر للإنسان من الفسادِ والموتِ بالروح القـدس. الإيمـان المسيحي هو في جوهره إيمان بإلهٍ مثلثِ الأقانيم ظَهر للعالمِ وأسس الكنيسةَ بتجـسدِ الابن وأقام فيها بالروحِ القدسِ لخلاصِ العالمِ وتجديدِه.

البعد الاجتماعي

وبما أن الإيمان علاقةٌ شخصيةٌ با وشركةٌ معه, فإنه لا يحصر في أشـكالٍ اجتماعية. وهذا ينطبقُ على مظاهر الإيمان في الحياةِ اليومية. فالإيمـان العرضـي ينحصر في قبول بعض المبادئ المحددةِ وغير المرتبطةِ وجوديـاً بالإنـسان. وهـذا الإيمان يرتبطُ ببعض المبادئ الاجتماعيةِ ويكون عاملًا للمحافظةِ المرضية.

للإيمان بعد اجتماعي على الرغم من أنه لا يقيد بالأشكال الاجتماعية. إيمـان الإنسان با يرتبطُ مباشرةً بعلاقةِ البشر بالآخرين. والمجالُ الذي ينمو فيه الإيمان هو جسد المسيح نفسه, أي الكنيسة. ولأن الكنيسةَ شركةٌ إلهية-إنـسانية فهـي ذاتُ بعـدٍ اجتماعي. اجتماعياً لا يكون الإيمان في الكنيسةِ عديم الصورةِ وعديم الوصف, إنمـا ُيعبر عنه بمواضيع مختلفةٍ ذات صفةٍ حاسمةٍ في حياةِ المؤمنين. هنا يكـون خطـر البحثِ الموضوعي وإماتةُ الإيمان. لذلك كان تقليد الكنيسةِ صـماماً للإيمـان. هكـذا يصون التقليد مبدأ التدبير الحافظِ لحريةِ الحياةِ والرافض للشرعوية على صعيدِ الحياةِ الشخصيةِ والاجتماعيةِ, وكذلك اللاهوتُ التنزيهي الذي يعلو على المعاني الإنـسانيةِ ويؤكد حريةَ الروح.

إن الكنيسةَ التي تحفظُ الإعلان المسيحي والتقليد تؤكد الحقيقةَ التاريخيةَ لهـذا الإعلان. "فلم نتبع نحن خرافاتٍ ملفقةٍ حين أطلعناكم على قوةِ ربنا يـسوع المـسيح وعلى مجيئه, لأننا بعيوننا رأينا عظمتَه."[167] المعرفةُ التي تستند إلى الإيمان تتجـاوز الفرديةَ وتُنمي التواضع.

الإيمان والعرفان

لا يبنى الإيمان المسيحي على قبولٍ كيفي لمبادئ أو ظواهر غريبة, إنما على قبولٍ مدركٍ وواعٍ وتآلفٍ مع إعلان ا وعملِه التجديدي في العالم. فتجسد ا يظهـر على نحو خاصٍ ميزةَ الإيمان المسيحي. وكما توجد عناصر حسيةٌ مدركةٌ فـي سـر

---

[167] (2 بطرس 1: 16)

التجسدِ الإلهي, يتجلى بها السر غير المدرك, هكذا توجد عناصر حسيةٌ مدركـةٌ فـي سر الحضور الإلهي توصلُ إلى التعرفِ إلى طبيعتِه الإلهيةِ المفارقة.[168] هكذا يوصلُ الإيمان المنطلقُ من التعرفِ إلى المعطياتِ الحسيةِ والتاريخيةِ لإعلان ا إلى خبـرةِ حضوره الروحية. مع أن الإنسان من حيث أنه مخلوقٌ لا يستطيع أن يـداني الإلـه اللامخلوق, فهو يقبلُ إعلانَه الذي يتم في العالمِ ويقيم علاقةً وشركةً معه.

يتضِح إذاً أن الإيمان المسيحي لا يبطلُ المعرفةَ الإنسانية, لكنه لا يحصر فـي حدودِه الضيقةِ كذلك. الإيمان المسيحي يتجلى كإثباتٍ للوجودِ الإنساني في إعلان ا الخلاصي الذي تجلى في المسيح وحفظ في الكنيسة. هذا الإيمـان لا يتمـاهى مـع التعرفِ إلى بعض الحقائق الموضوعية التي تأتي لتؤكد طرقـاً خاصـةً للتفكيـر أو انخراطاً في ايديولوجيةٍ معينةٍ. فحقيقةُ الإيمان المسيحي هي حقيقةٌ حياتيةٌ. ومعرفتُهـا هي معرفةُ الحياةِ الحقيقية.

تصدر الإيمان وأولويته

يتجاوز الكشفُ الإلهي العقلَ البشري فيقدم كحقٍ روحي بنعمةِ الروح القـدس. لذلك لا تستند عقائد الكنيسةِ إلى برهانٍ منطقي, إنما إلى الإيمان.[169] فالبرهان يعجـز عن الدخول إلى عمق الحق الذي يكشفُه ا . وا الذي هو روح يـدانى بالإيمـان. فخبراتُ الإيمان روحيةٌ وليست منطقية. والتصدر يعطى للإيمان لا للعرفان, "لأننـا نهتدي بالإيمان لا بالعيان."[170] لا شك في أن للعرفان مركزاً مهماً في حياةِ المؤمن, لكن الإيمان يحوي عناصر أساسية للعرفان. ورغم ذلك لا يفوق العرفان الإيمان ولا

---

[168] انظر غريغوريوس بالاماس, الرسالة الثانية إلى برلعام 22.

[169] "الإيمان هو الذي يتقدم على العقائد المقدسة وليس البرهان." غريغوريوس بالاماس, عرض موجز, مخطوطة ديونيسيوس 192, 42.

[170] (2 كورنثس 5: 7)

يقوم مقامه, إنما يخضع له ويندرج فيه. المسيحيون هم "المؤمنون"[171] والمسيحيةُ هي بامتيازٍ الإيمان.[172] أما النظرةُ العقلانيةُ لعلاقةِ ا بالإنسان فتوصلُ إلى اللاأدريـةِ أو إلى القول بأن الإنسان قادر على أن يعرفَ ا موضوعياً, أي أن يعرفَ ماهيتَه. إنه بالإيمان فقط يمكن قبولُ كشفِ ا وإنماء الشركةِ والعلاقةِ الشخصيةِ معه.

وبعد قبول إعلان ا الذي يتم بالإيمان ينفتح مجالٌ أوسع أمام العمل العقلـي وأمام عرضِ محتواه. المنطقُ أداةٌ قيمةٌ للحقيقةِ الوجوديةِ ولكن ليس لإيجادها. فقبولُ الإعلان الإلهي يقود بالإيمان إلى معرفةِ ا وينمي أيضا معرفةَ جهلنا وعدم إدراكِنـا إياه.هذا الجمع بين معرفةِ ا وجهلُنا إياه يحدد الطريقَ الخاصةَ التي ينمو بها الإيمان المسيحي.

الإيمان والحياة

ليس الإيمان تعبيراً ثانوياً عن حياةِ الإنسان ووجودِه في العالم, إنما هو تعبيـر أساسي عنه. فالإيمان هو مسلمةٌ للحياةِ المسيحيةِ وبدونه يستحيلُ إنمـاء الفـضيلتين الأساسيتين وهما الرجاء والمحبة.[173]وإلى ذلك يكون الإيمان هو التأكيد المطلقُ لحقيقةِ الطريقِ التي يسير عليها المؤمن في حياته. فالإنسان يدعى إلى قبول هذه الطريـق, لأنها طريقُ الحق, ولأنها هي المسيح نفسه.[174]

إن المسرى الذي يدعو المسيح الإنسان إليه, وفقاً لتعبر بـولس المميـز, هـو مسرى الإيمان "والرجاءِ حيث لا رجاء."[175] فكل نظرةٍ تقولُ بأن الحيـاةَ المـسيحيةَ

---

[171] (2 تسالونيكي 1: 10)

[172] (1 تيموثاوس 4: 6)

[173] أنظر مكسيموس المعترف, الرسالة الثانية. مجموعة الآباء اليونانية 91, 396.

[174] "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يوحنا 14: 6)

[175] (رومية 4: 18)

يجب تفضيلُها حتى تقدم النجاح في إطارِ الأمورِ المباشرةِ والفوريةِ أو حتى تحد مـن الشر الاجتماعي هي نظرةٌ خجولة. فليست غايةُ الحياةِ إقامةً للمدينةِ الفاضـلةِ علـى الأرض, رغم أن تغيير وجهِ العالمِ أمر ضروري, وذلك إذا ما قبل البشر يومـاً مـا مشيئةُ ا ونظموا بها حياتَهم. لكن قيمةَ الحياةِ المسيحيةِ وغايتَها القصوى لا توجدان على الأرض. فالمسيح نفسه يدعو الإنسان إلى أن يستجيب لدعوته بزهدٍ كلـي فـي الذاتِ وبشعورٍ بأنه يحيا في حياتِه المسيحيةِ قرب ا سائراً على دربِ ملكوتـه. إن ملكوتَ ا لا يخضع للعالم, إنما يحكم ويدين العالم. الحياةُ بقربِ ا لا تنحصر فـي التاريخ, بل تمتد وراءه وتكشفُ عن معناها العميق.

لن تقود هذه النظرةُ إلى خارجِ حقيقةِ الحياةِ ومعناها, إنما إلى خـارجِ كـذبِ العالمِ وخداعِه.فمعرفةُ وقتيةِ العالمِ, التي تؤكده الأرثوذكسية, لا يعني تجاهلاً لقيمتـه, إنما يعني مواجهةً تقويميةً له. في كثيرٍ من الأحيان يظّن أن الكذب حقٌ وأن الضلالَ نجاح. هكذا وقع إنسان العصور الوسطى في خطأ عظيمٍ عندما فكر في العالمِ وظـن أن الأوهام العلميةَ حقائق. فظن أن الشمس تدور حول الأرض, لأن عينيـه تؤكـدان ذلك, وأن الأرض ثابتةٌ, لأنه لم يختبر حركتَها. فقد توجد الحقيقةُ في أماكن تنـاقض الأحاسيس. متى فكر المرء في حياتِه تفكيراً مأنيا (أنويا) وقع في الـضلال. مركـز الحياةِ ومصدرها هو ا , ومعنى حياتِه يكون عند ا .

الإيمان والأعمال

بالأعمال يعبر الإنسان عن إيمانِه الحي. الإيمان بلا أعمالٍ لا ينفع الإنسان.[176] فللشياطين إيمان كهذا.[177] يقول مرقص الناسك. "هناك من لا يعملون بالوصايا ومـع ذلك يظنون أنهم يؤمنون إيماناً قويما. وهناك من يعملون بالوصايا, لكنهم ينتظـرون

---

[176] "الإيمان بلا أعمال ميت" (يعقوب 2: 26)

[177] "وكذلك الشياطين تؤمن به وترتعد ." (يعقوب 2: 19)

ملكوتَ ا   كأجرٍ لأعمالهم. فكلاهما ابتعد عن الحق."[178]خلاص الإنسان وسقوطُه هما نتيجةٌ لإيمانِه أو لكفره. والأعمالُ الصالحةُ ليست وسائل لاقتناءِ الخلاص, إنما هـي تعبير عن عيشه. عامةً, يجب ألا تُعتبر الأعمالُ مجرد مظاهر خارجيةٍ يحكَم عليهـا بأنها صالحةٌ أو طالحةٌ من خلال مقاييس موضوعية اجتماعية أو خلُقُية بل كـ شواهد للإيمان والكفر. "متى سمعتَ الكتاب يقولُ إنه يجازي كل واحدٍ حسب أعماله (متـى 16: 27) لا تظن أن الأعمالَ بحد ذاتِها تستحقُ الملكوتَ أو الجحـيم, لأن المـسيح سيجازي كل واحدٍ على أعمال إيمانه أو كفره."[179]

الإيمان والثقة

يتجلى الإيمان با   كثقةٍ به. فالثقةُ به هي الاعترافُ الوجودي بالخالق والمدبر. والإنسان بصفتِه خليقةَ ا   هو موضوع لعنايتِه والعالم كذلك هو موضوع لعنايته. ا   لا يتخلى عن الكون, بل يعنَى به. وكيف لا يعنَى بالإنسان الذي هو أكملُ خلائقِه في العالم؟! "تأملوا زنابقَ الحقل كيف تنمو: لا تغزلُ ولا تتعب. أنا أقولُ لكم: ولا سليمان في كل مجدِه لبس مثلَ واحدةٍ منها. فإذا كان ا   هكذا يلبِس عشب الحقل. وهو يوجد اليوم ويرمى غداً في التَنور. فكم أنتم أولى منه بأن يلبسكم, يا قليلي الإيمان؟"[180] "أما يباع عصفوران بدرهمٍ واحد؟ ومع ذلك لا يقع واحد منها إلى الأرض إلا بعلمِ أبـيكم السماوي. أما أنتم, فشعر رؤوسِكم نفسه معدودةً كله. لا تخافوا, أنـتم أفـضل مـن عصافير كثيرة."[181] متى انطلقَ الإنسان من الإيمان با   والثقةِ بعنايتِه استطاع وسط أحزانِه العظيمة وتجاربِه القاسية واضطراباتِه وتناقضاتِ حياتِه أن يستند إلى المحبـةِ

---

[178] في الذين يعتقدون أنهم بالإيمان يتبررون. " 18, مجموعة الآباء اليونانية 65, 932.

[179] المرجع نفسه 21.

[180] (متى 6: 28– 30)

[181] (متى 10: 29– 31)

وإلى الوعودِ الصادقة.[182] ومتى عرفَ محبةَ ا للعالمِ وشعر بـضعفِه فـي إدراكِ منفعتِه التي تتجاوز المباشريةَ وضع كل ثقتِه با . ليس الإيمان ثقةً فحسب, إنما طاعةٌ تتخذُ شكلاً معينا وتتجسد في العمل بالوصايا. على هذه المواضيع سـنتكلم فـي الفصول الآتية.

[182] "هذا هو الإيمان. فإذا لم ير المرء بعيني جسده ما وعد به الله, يؤمن أن هذا الوعد أكثر ثقة من الظواهر ومن الأمور الموضوعة أمام أعيننا." يوحنا الذهبي الفم, التعليم المسيحي 8, 6. المصادر المسيحية 50, باريس 1957, ص 251.

9- الطاعة

معنى الطاعة

الطاعةُ مطلب أساسي في الحياةِ المسيحية. لذلك يدعو الرسـولُ بطـرس المسيحيين "أولاد الطاعة."[183] ولأن الطاعةَ تقبلٌ للشركةِ مع ا فهي تُعتقُ الإنـسان من عدميةِ الوجودِ وتسترجع المحتوى الوجودي لشخصِه. أما العصيان فيبعده عـن منهل الحياةِ ويخضعه للموتِ والفساد, لأنه رفض للشركةِ مع ا .

إن الطاعةَ للمسيح خضوع , لأن المسيح متماه مع الآبِ في لاهوتِه, وواهب المشيئةِ الإلهيةِ للعالمِ بناسوتِه. ومع ذلك فالطاعةُ للمسيح تقتـضي تجنـب الـشيطان ونبذَه. "لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين, لأنه إما أن يبغض أحدهما ويحب الآخر, وإما أن يتبع أحدهما وينبذَ الآخر. فأنتم لا تستطيعون أن تخدموا ا والمال."[184]

الطاعةُ تماثلُ الإيمان, لأن الإيمان يتجلى كطاعةٍ . عندنا في رسائل بـولس آياتٌ مشابهةٌ مثل: "إن إيمانَكم يحدثُ به في العالمِ كله."[185] "ما من أحدٍ إلا وعـرفَ طاعتَكم."[186] وفي رسالتِه إلى أهل رومية يجمع بولس بين الطاعةِ والإيمان بعبـارةِ "طاعة الإيمان" التي تُحدد هدفَ العمل الرسولي.[187] يقدم أقليمس الإسكندري الإيمـان والطاعةَ كلفظتين مترادفتين فيقول: "طاعةُ الكلمةِ التي نُسميها الإيمان."[188]

---

[183] (1 بطرس 1: 14)

[184] (متى 6: 24)

[185] (رومية 1: 8)

[186] (رومية 16: 19)

[187] انظر (رومية 1: 5)

[188] المربي 1, 13, 101, 1 .

الطاعة والحرية

ليس طريقُ الطاعةِ, التي يدعى إليها المؤمن, طريقاً للعبوديـةِ, إنمـا طريـقٌ للحرية. إنه طريقٌ لإنهاضِ الطبيعةِ الإنسانيةِ, وإعادةِ الاعتبارِ إليها. فالمشورةُ التـي أعطاها ا لمن خَلَقَهما أولا "من جميعِ شجرِ الجنةِ تأكلُ اليوم, أما من شجرةِ معرفـةِ الخيرِ والشر فلا تأكل, فإنك يوم تأكلُ منها موتاً تموت,"[189] ليست تشريعاً محدداً, بـل تربية ترمي إلى تدريبهم على الممارسةِ الصحيحةِ لسلطانِهم الرفيع في العالم. بالطاعةِ يستطيع المخلوقُ أن يقدر ذاتَه حق قدرها وأن يعيشَ الحريةَ الحقيقية.

ليست الحريةُ مسلمةً لكمال الإنسان وتجديدِه فحسب, بل هي شرطٌ ضـروري لحفظِه. لذلك ما أملى ا مشيئتَه على بشرٍ, بل دعاه إلى أن يقبلها بحريةٍ وعن غيـر إكراه. إما هو فجهلَ دعوةَ ا مبتعداً عنه ومؤلها لذاتِه. ونتيجةً لهذا الاختيـار الحـر جاء الموت. لم يكن ا مسبباً للموت, إنما الإنسان هو الذي ابتعـد عـن ا طوعـاً وأهملَ مصدر حياتِه. وا لم يعاقِبه انتقاماً لعصيانِه, إنما تركه يختبر نتائج اختياره. يشير القديس بالاماس إلى أن ا لم يقلْ: "متْ في اليومِ الذي تأكلُ فيـه, إنمـا قـال ستموتُ في اليومِ الذي تأكلُ فيه... لقد أعلَمه مسبقاً وسمح لـه بـذلك دون أن يمنـع بحكمِه ما ينتج عن ذلك."[190]

العصيان والموت

إن إظهار ا وكأنه مشرع غير محبٍ للبشرِ هو عملُ الشيطان الساعي إلـى إظهارِ إلهِ المحبةِ وكأنه سيد مخاصم يطلب خضوعاً أعمى لغايةٍ أنانية. "قالت الحيـةُ للمرأة: لن تموتا موتا. فا يعلم أنكما عندما تأكلا منه تنفتح أعينُكما وتصيران كآلهة, وتعرفان الخير والشر."[191] هذه السعايةُ الأولى التي رسمها رئيس الشر تبني العلاقـةَ

---

[189] (تكوين 2: 16– 17)

[190] الفصول 51, مجموعة الآباء اليونانية 150, 1157.

[191] (تكوين 3: 4– 5)

على أسسٍ خاطئة. فا لا يعد فيما بعد أباً محباً للبشر يهتم عن حبٍ بخليقتِه, بل يُعد طاغيةً يفرض بأية وسيلةٍ كانت مشيئتَه ويحافظُ على سلطتِه فيها. لقد أوصلَ قبولُ هذا التأله واحتقار محبةِ ا إلى الجحودِ والخضوعِ للخطيئةِ والموت. في الـسقوطِ وقـع الإنسان تحت سلطان الشر بعد أن كان حراً ومشاركاً في صلاحِ ا . الإنسان الساقطُ يتصرفُ وكأنه أسير الموتِ والفساد, من غير أن يجد معنى لحياتِه.

تفترض الطاعةُ شعوراً بعجزِ الإنسان وعدم قدرتِه على أن يجد ويحققَ غايـةَ حياتِه ووجودِه. طريقُ الطاعةِ هو طريقُ التواضع. وبدون التواضع تكـون الطاعـةُ والحياةُ المسيحيةُ نفاقاً. بالتواضعِ يقصي الإنسان أثرتَه ويخضع بلا رياءٍ لمشيئةِ ا . فلا يتفحصها أو يطلب فهم فائدتِها وهدفِها ليبرر تطبيقَها, إنما يقبلُها لأنها مـشيئةُ ا أبيه. ولكن عند من يفكر تفكيراً دنيوياً يشبه حفظُ مشيئةِ ا جهالـةَ الـصليب. هـذه الجهالةُ هي الحكمةُ الحقيقيةُ عند المؤمن.

طائع حتى الموت

تأخذُ الطاعةُ معناها الحقيقي عندما تُمارس بحرية. وبدون الحريةِ تكون الطاعةُ عبودية. ولكن بدون الطاعةِ تكون الحريةُ اعتسافاً. وفي شخصِ المسيح يجمع المؤمن بين الطاعةِ والحرية جمعاً مثالياً. لقد كان عصيان آدم سبباً لمرضِ طبيعتِه الإنـسانيةِ الذي انتقلَ إلى كل سلالتِه, فصاروا هم بدورهم خطاة.[192] أما المسيح الإلـه الكامـلُ والإنسان الكاملُ أخضع مشيئتَه الإنسانيةَ لمشيئتهِ الإلهيةِ وأطاع أباه "حتـى المـوت, الموت على الصليب."[193] هكذا حرر المسيح الجنس البشري من مسؤوليةِ العـصيان وأعاد فتح طريقِ الطاعةِ التي توصلُ إلى الحريةِ الحقيقية.[194]

---

[192] أنظر كيرلس الأورشليمي, تفسير الرسالة إلى أهل رومية 5, 7, مجموعة الآباء اليونانية 74, 789 .

[193] (فيليبي 2: 8)

[194] "هذا ما فعله المسيح وما زال يفعله, فصالح كل واحد بذاته مع الآب وأعاده إلى الطاعة وشفى كل معصية."

غريغوريوس بالاماس, الموعظة 5, مجموعة الآباء اليونانية 151, 64 .

الطاعة في المسيح

الطاعةُ شرطٌ أساسي لإنهاضِ الإنسان وتجديدِه. بها يدخلُ ثانيةً إلى الحيـاةِ الإلهية. ولأنه خليقةُ ا "على صورتِه ومثالِه" فهو قريب من ا . ومتى تغرب عـن ا تغرب عن ذاتِه. ومتى أظهر تواضعاً استعاد وضعه السوي. وهذا يـتم بإعـادةِ ربطِه بمنهل حياتِه ووجودِه أي با .

يملك المسيحي كعضوٍ في جسدِ المسيح المؤهلاتِ الإناسيةِ التي تجعلُ مـشيئتَه موافقةً لمشيئةِ ا . ما تحقق في شخصِ المسيح يمكن أن ُيعاد تحقيقُه بنعمـةِ ا فـي شخصِ كل مؤمن. فكما أخضع مشيئتَه الإنسانيةَ للمشيئةِ الإلهيةِ إخضاعاً تاماً, هكـذا يستطيع المؤمن الذي يحيا كعضوٍ في جسدِ المسيح أن يخضع مشيئتَه لمشيئةِ المـسيح التي هي أيضا مشيئةُ ا الآب.هنا تكمن ماهيةُ الجهادِ الروحي الذي يدعى المـؤمن إلى تحقيقِه في حياتِه.

لا تُفهم الطاعةُ كتوافقٍ خلقي فحسب, بل كعودةٍ كليةٍ إلى ا واندماج مشيئتِه في المشيئةِ الإلهية. فكما لا يحدد العصيان بالابتعادِ الخُلُقي عن ا , إنما يحملُ معـه تغرباً وجودياً وتمزقاً, هكذا لا تُتستنفَد الطاعةُ بالتعبيرِ الخلقي, بل تمتد إلـى الحـدثِ الوجودي الذي يمس ماهيةَ وجودِه الإنساني في المنظورِ المعادي. لذلك كانت الطاعةُ المسيحيةُ تعبيراً معادياً ومسلمةً للزهدِ في الذات عند المؤمن.[195]

التآلف مع الحرية

إن الطاعةَ مسلمةُ التآلفِ مع الحريةِ الحقيقية. وهي وحدها تجعلُ الإنـسان حرا. والإنسان الحر وحده يستطيع أن يطيع ا . لذلك كانت الطاعةُ العملَ الضروري والواجب بعد الانحرافِ الناتج عن العصيان. بالعصيان دخلت الخطيئةُ إلـى العـالم,

---

[195] "يطلب المسيح منا طاعة كهذه كي لا نؤجل العمل دقيقة واحدة حتى وإن اضطرتنا إلى ذلك الأمور الضرورية جدا . فالشخص الذي دنا منه وطلب أليه أن يدفن أباه أولا لم يدعه أن يفعل كذلك ليظهر أنه يجب علينا أن نفضل إتباعه قبل كل شيء . " يوحنا الذهبي الفم, الموعظة 14, في إنجيل متى 2, مجموعة الآباء اليونانية 57, 219 .

ولكن بالطاعةِ تنمو الفضيلة.[196] وكما أن نتيجةَ الخطيئةِ هي المـوت كـذلك فنتيجـة الفضيلةِ هي الحياة.[197] يشير الذهبي الفم إلى أن جمالَ النفسِ ينشأ عن الطاعةِ . إذا أصبحت النفس القبيحةُ والبعيدةُ عن ا مطيعةً له "فإنها تطرح عنهـا القـبح جانبـاً وتصبح جميلة." هذا ما نراه عند شاول وعند كل من يتخلى عن طريـق المخالفـةِ وينقاد لطاعة ا .[198]

الأوامر القطعية والعلاقات الشخصية

تدعو أخلاقُ الفيلسوفِ كانط الإنسان إلى أن يطيع أوامر ضميره القطعية. هنا لا نجد محلاً للاعتمادِ المباشر على ا . وعنده يجب أن يوجد ا والحياة بعد الموت من أجل المكافأةِ عن الخير والشر. الإنسان يتعرفُ إلى ا ويقبلُ وجوده كمطلبٍ من مطالبِ النظامِ الخُلُقي.لكن روح التعليمِ المسيحي والعلاقة با تختلفان كثيراً عن نظرة كانط. في المسيحيةِ ا الخالقُ هو منهلُ الحياةِ وهو في الوقتِ نفسِه منهلُ الـصلاح. والحياةُ تكتسب معناها في العالمِ من خلال العلاقةِ با وبمشيئته. يعسر على المرءِ أن يعرفَ معرفةً واضحةً مشيئةَ ا في كل ظرفٍ من ظروفِ حياته. الطاعـةُ العميـاء لشرائع لا شخصية دون شركةٍ حقيقيةٍ معه لا تحملُ أي معنى للمسيحي. وهنا توضع الطاعةُ على مستوى العلاقةِ الشخصيةِ با .لذلك ليس لها ميزة شرعوية, بـل ميـزة

---

196 "إن كان عصيان الكلمة مولدا للخطيئة, فكيف لا تكون الطاعة, أي الإيمان, قادرة بالضرورة على خدمة ما نسميه الواجب. هذه الفضيلة هي ميل النفس الذي يتفق مع الكلمة في الحياة كلها." إقليمس الإسكندري, المربي 1, 13. 101, 12.

197 ثلاسيوس, في المحبة, 4, 48. مجموعة الآباء اليونانية 91, 1464.

198 يوحنا الذهبي الفم, إلى افتروبيون 2, 17, مجموعة الآباء اليونانية 52, 414.

شخصية. متى انطلق المؤمن من إيمانِه با   دعي بمساعدةِ الوصايا وقوانين الكنيـسةِ الخُلُقيةِ إلى أن يختبر ما هو "صالح, وما هو مرضي, وما هو كامل."[199]

التحلي بالأخلاق المسيحية

يتطلب حفظُ المشيئةِ الإلهيةِ سعياً مستمراً لتحقيق هذه المشيئةِ وإتمامِها في كل موقف. من هنا يبدأ نطاقُ التخلق الذي يجب اعتباره بعداً أساسياً لدراسـةِ الأخـلاق. ليس التحلي بالأخلاق مجرد ثمرٍ للتواضع والطاعة, إنمـا ثمـر للاختبـار الخـلاق المستمر. فالمسيحي الذي يضع نفسه أمام ا   بتواضعٍ وطاعةٍ محاولاً أن يجعلَ مشيئةَ ا   مشيئتَه الخاصة يدعى دائماً إلى أن يختبر مواقفَه بمعرفةٍ وتمييزٍ.

الطاعة للأب الروحي

تُعد الطاعةُ من الفضائل المهمةِ في الحياةِ المسيحيةِ عامةً وفي الحياةِ الرهبانيةِ خاصة. فطاعةُ الأبِ الروحي أو الشيخ الروحي شيء مهم للتقدمِ الروحـي ولحفـظ الإنسان من أخطار الأثرةِ والضلال. فالتقدم الروحي يفترض رجوعـاً إلـى الآبـاءِ الروحيين. يضع التقليد الأرثوذكسي الشيوخَ الروحيين ذوي المواهب الفـضلى فـي مرتبةٍ ساميةٍ ويعدهم مستشارين مميزين لحياةِ المؤمنين الروحيـة. وبـدون الطاعـةِ لهؤلاء وكذلك للرعاةِ ولمعلمي الكنيسة تكون الطاعةُ للربِ عسيرةَ التحقيق.

الطاعةُ للأهل واجبةٌ أيضا, كما هي ضروريةٌ للسلطةِ المدنيـة. وعلـى هـذا الموضوع سنتكلم في الفصول الخاصةِ بها.

---

[199] (رومية 12: 2, أفسس 5: 10)

10- العمل بوصايا ا

الطريقان

تأخذُ الطاعةُ شكلاً معيناً من خلال العمل بوصاياه الذي يتم بطريقين:

-بالهروبِ من الخطيئة.

-بإتمامِ الصلاح.

بهاتين الطريقين يتضح إنكار الشر وكذلك الاعترافُ با كربٍ للمؤمنين.

فهم الوصايا

لا تقتصر مهمةُ المسيحي الحقيقي على القبول النظري للإيمـان المـسيحي أو لإعلانِه, بل يتقدم إلى تطبيقِ محتواه.[200] فنحن نُدرك وصايا ا عندما نعيـشُها. وإذا ما عشناها, فهي توصلُنا إلى معرفةٍ أعمق وإلى معرفةٍ أكمل لمشيئتِه. يقول مرقص الناسك: "أعرفُ أقوالَ الكتابِ المقدس بالأعمال, لأن الرب يحجب نفسه في وصـاياه, وهكذا يجده من يطلبه."[201] ويضيفُ يوحنا السينائي قائلا: "لا نسرعن إلى ما هو إلهي بكلامٍ عارٍ, بل بعرقٍ, لأننا نحتاج في وقتِ خروجِ النفسِ إلى إظهار الأعمال, ولـيس إلى إظهار الأقوال."[202]

إن دراسةَ كلمةِ ا من غير ربطِها بالحياةِ اليومية ونقلِها إلى حيز التطبيق لن تحفظَ الإنسان قريباً من ا . لا بل إن ظاهرةً كهذه قد تولد بيسرٍ المللَ والتخمةَ الذين يوصلان لا محالة إلى التكاسل والموتِ الروحي. هذا الخطر الـذي يهـدد الإنـسان المعاصر الذي يواجه الإيمان مواجهةً نظرية, ويقيده في نطاقٍ بعيدٍ عن الحياةِ اليوميةِ وعن نشاطِه. فمتى أظلم خداع العالمِ والخطيئة النفس وأوصلاه إلى نسيان ا , فإنـه

---

[200] "ما كل من يقول لي: يا رب, يا رب, يدخل ملكوت السماوات, بل من يعمل بمشيئة أبي الذي في السماوات." (متى 7: 21)

[201] في الشريعة الروحية 87, 191, مجموعة الآباء اليونانية 65, 915, 928.

[202] السلم 26, مجموعة الآباء اليونانية 88, 1021.

يحتاج إلى اللجوءِ إلى كلمةِ الإيمان حاجتَه إلى عمل الإيمان حتى يقتـرب مـن ا . بمساعدةِ الفقير ودعمِ الضعيفِ وتقويةِ المريضِ والكادحِ يتحقـقُ الإيمـان ويقتـرب الناس من ا .

إننا لا نجد الحقائقَ المسيحيةَ في الفراغ ولا ندركُها في أحـلامِ اليقظـة, بـل نعيشها في الحياةِ اليوميةِ ونفهما من خلال تطبيقِها. يقول مرقص الناسك: "لا يوثـقُ بالعرفان بدون أعمال الفضيلة, حتى لو ظهر أنه حقٌ, لأن العمـلَ يثبتُـه فـي كـل شيء."[203] ليست وصايا ا كلماتٍ, بل هي غذاء يحي الإنـسان. فـإن اقتـصرت علاقتُه با على الكلماتِ, فوصايا ا تظهر كقيمٍ موضوعيةٍ لا علاقةَ لها بالواقع. هذا هو الخطر الدائم لمذهبِ المحافظة. ولأن وصايا ا صيغٌ لمشيئتِه فهي فاعلةٌ دائمـا. والفاعلُ ليس من الجوامدِ, بل به نمو وحركةٌ وحياة. أما القولُ بأن هناك وصايا إلهية يتعذر تحقيقُها فهو احتقار نفسِه, لأن ا لا يطلب المستحيلَ من الإنسان. فالمـسيح نفسه قال إن نيري هين وحملي خفيف.[204] ومن زعم بأن وصايا ا لا تُطبـق فهـو كاذب مخادع.[205]

الوصايا مؤشرات الحرية

تدعو وصايا ا الإنسان إلى إتباعِ أسلوبٍ حياتي يطابقُ وضعه كمخلوقٍ على صورةِ ا ومثاله. لذلك كان العملُ بها شافياً للنفس البشرية. "كما هو الدواء للجـسمِ المريض هكذا تكون الوصايا للنفس المثقلةِ بالأهواء الشريرة... والـنفس لا تُـصبح صحيحةً ما لم تعملْ بالوصايا."[206] في الوهلةِ الأولى قد يبدو العملُ بالوصـايا مقيـداً للحرية. لكنه في الواقعِ يوصلُ إلى الحريةِ الحقيقية. فوصايا ا بـصفتها مؤشـرات

---

[203] في الذين يعتقدون أنهم بالأعمال يتبررون 12, مجموعة الآباء اليونانية 65, 932.

[204] أنظر (متى 11: 30)

[205] سمعان اللاهوتي الحديث, الخلقيات 10, 211, المصادر المسيحية الجزء 129, ص 274- 67.

[206] اسحق السرياني, الرسالة 4.

لحياةِ الإنسان الأول المخلوق علـى صـورةِ ا ومثالِـه هـي مؤشـراتٌ لحريتِـه الحقيقية.الإنسان الجديد الذي ظهر في المسيح هو معطى من معطياتِ النعمةِ ومطلب لدعوةِ الإنسان. بدون هذا المعطى يستحيلُ العملُ بالوصايا. فبدون العمل بوصـايا ا تتلاشى موهبةُ الروح وتموتُ الحياةُ المسيحية.

فئات المؤمنين الثلاث

لا يتم اقتناء الحريةِ الحقيقيةِ مباشرةً من خلال حفظِ وصايا ا , بل تدرجا. في التقليدِ الابائي يقسم المؤمنون إلى فئاتٍ ثلاث بناء على درجـةِ نـضوجِهم الروحـي وحريتِهم وهم: العبيد والأجراء والأحرار.

1- العبيد

يصنفُ المؤمنون الذي يعملون بوصايا ا خوفاً من العقابِ في فئـةِ العبيـد. "عبيد هم أولئك الذين يتمون وصايا السيدِ خوفاً مما يهددهم ويعملون بما آمنوا به عن حسن توجه."[207] ما ينبغي أن يخافَه كل بشرٍ هو الحرمان من شركةِ ا وليس العذاب الأبدي. يقول يوحنا الذهبي الفم: "إن كان لأحدٍ شعور وعقلٌ, فإنه قد قاسى الجحـيم, لأنه بعيد عن مرأى ا . ولكن بما أن هذا لن يجعلَه يقاسي العذاب فقد هدده بالنـار. فعلينا إذاً أن نكابد الألم عندما نخطأ وليس عندما نُعاقَب... إن إغاظةَ ا أصعب مـن العقاب. ولكننا الآن نتصرفُ تصرفاً عدائياً, وكأن الخوفَ من الجحيمِ لا وجود لـه. حتى أننا لا نبادر إلى فعل الخير. لهذا السببِ وليس لأي سببٍ آخرٍ نـستحقُ جهـنم, لأننا نخافُ منها أكثر من المسيح. أما المغبوطُ بولس فلم يتصرفْ هكذا, إنما تصرفَ على العكسِ من ذلك. ونحن بما أننا نتصرفُ بخلافِ ذلك فإننا سنُعاقَب بالجحيم. فلو أننا أحببنا المسيح كما يجب, لعرفنا أن إغاظتَه أصعب من الجحيم. ولأننـا لا نُحبـه فنحن لا نُدرك مقدار العذابِ. وعلى هذا أنوح وأنتحب؟ وما هو الشيء الذي لم يفعلْه

[207] مسكيموس المعترف, المسارة, مجموعة الآباء اليونانية 91, 709.

ا حتى نحبه؟ وما هو الشيء الذي أغفله؟"[208] إن الازدراء بالخلاص الـذي يقدمـه المسيح والخضوع للشيطان هما ظاهرتان مأساويتان تُرعبان الإنسان وتوصلانه إلـى استجابةٍ كريمةٍ. ومتى أهملَ الإنسان خلاصه ولم يستجب لمحبةِ ا أصـبح مفخـرةً لإبليس وعاراً للمسيح. إن هذه الحالةَ لمرفوضةٌ عند المسيحي الحقيقي.

2- الأجراء

من تجاوز الخوفَ وعمِلَ بوصايا ا بهدفِ الحصول على المكافأةِ منه كـان أمام ا أجيرا.[209] هذا الوضع لا يظهر نضوجاً روحياً كبيراً وحريةً كاملةً كما أنه لا يُعبر عن كمال الاعترافِ با وبمحبته للبشر. الأجراء هم كالعبيدِ يتحركـون علـى مستوى الشريعةِ ولا يحيون حريةَ النعمةِ التي قدمها المسيح للعالم. لا فضيلتُهم إيثارية ولا محبةُ الخيرِ أو ا سائدة في حياتِهم.

3- الأحرار

أما الذين يمارسون الفضيلةَ حباً با من غيرِ خوفٍ أو غايةٍ نفعيـةٍ فيحيـون الحريةَ في المسيحِ كأبناءِ ا .[210] يشير إقليمس الإسكندري إلى أن عملَ العرفاني, أي المسيحي الكامل, هو الابتعاد عن الشر وصنع الخيرِ لا عن خوفٍ أو عن رغبةٍ فـي المكافأةِ, بل حباً با . فحديثُ العهدِ يتجنب الخطيئةَ خوفاً من العقابِ, أما الكاملُ فيبتعد عنها حباً با .[211] يقولُ نيقولا كباسيلاس إن ميزةَ أبناءِ ا هي "المحبةُ الكاملةُ التـي

[208] الموعظة 6, الرسالة إلى رومية. مجموعة الآباء اليونانية 60, 430.

[209] انظر مكسيموس المعترف, المسارة, مجموعة الآباء اليونانية 91, 709– 712.

[210] المرجع نفسه.

[211] سمعان اللاهوتي الحديث, فصول لاهوتية وعملية 3, 19– 21. المصادر المسيحية, المجلد 51, ص 86.

تُقصي كل خوف."[212] في هذه الحالةِ يشعر المؤمن في ذاتِه بمواهبِ ا ويصبح حرا. ويدرك كذلك أن كل أمانيهِ تحققُ في المسيح, وبذلك يتحرر من كل خوفٍ وأثرة.

خطر الرياء

بالعمل بوصايا ا يحافظُ الإنسان على شركةِ ا . فمن عمِلَ بوصـايا ا سعى إلى مجدِ ا لا إلى مجدِه الأرضي. وإذا لم يكن العملُ بالوصايا هـو لمجدِ ا , فإن الأثرةَ تنمو عنده فتبعده عن ا وعن قريبه. وفي هذه الحالـةِ يتذرع بتدينٍ ظاهري ويغرقُ في الأثرةِ والرياء. هكذا تتحولُ وصايا ا مـن مؤشراتٍ للحريةِ إلى ربطٍ للعبودية.ويكون العملُ بوصايا ا القائم على روح الأثرةِ والرياءِ ضاراً مؤذياً. "فمن بحثَ عن المجدِ ووجه حياتَه إليه لا يحـرم من المجدِ الأزلي فحسب, إنما ينتظر العقاب منذ الآن."[213]

القداسة والمشاركة في الحياة الأبدية

يوصلُ العملُ بالوصايا إلى القداسةِ التي هي غايةُ ما يدعى إليهـا كـل بشرٍ بصفتِه ابناً . "كونوا قديسين, لأني أنا قدوس."[214] فالحياةُ التي يدعو ا الإنسان إليها هي حياةُ القداسة. والمشيئةُ التي ينبغي أن تُنظم حياةَ البشر هـي مشيئةُ ا . وطعام المؤمن, كما كان طعام المسيح, هو العملُ بمشيئةِ ا .[215]

يتحققُ العملُ بمشيئةِ ا بتجاوز الخوفِ من الفسادِ والموتِ وبالارتفاع إلى دائرةِ الخلودِ واللافسادِ. فالعملُ بوصايا ا يتم بمشاركةِ الإنسان في الحياةِ

---

[212] الحياة في المسيح 7, مجموعة الآباء اليونانية 150, 720 .

[213] غريغوريوس النيصصي, الغاية بحسب الله 6 .

[214] (1 بطرس 1: 16)

[215] (يوحنا 4: 34)

الأبدية. "وأنا أعرفُ أن وصيتَه حياةٌ أبديةٌ."[216] إن المشاركةَ في الحياةِ الأبديةِ الفاعلةِ بنعمةِ ا مسلمةٌ للعمل بوصاياه. الحق, أن المرءَ, بصفته شريكاً في الحياةِ الأبديةِ, قادر على أن يعرفَ ا حق المعرفةِ وأن يعملَ بوصاياه.[217] أما العملُ بوصايا ا فيحملُ معنى حقيقياً من خلال الانخراطِ في الحياةِ الأبدية. ولكن إذا لم يرتبطِ العملُ بوصايا ا بالانخراطِ في حياةِ ا تحول إلى مظهرٍ شرعوي. وإذا كان واجبنا أن ننظر إلى شريعةِ العهدِ القديمِ في ضوءِ الكشفِ في المسيحِ, فبالأولى أن ننظر إلى وصايا المسيح وإلى تعليمِ الكنيسةِ الخلقي في ضوءِ الحياةِ الجديدةِ التي أبرزها المسيح في العالم.

وهذا يفهم من خلال وصيةِ المحبةِ المسيحيةِ التي تُلخص الشريعةَ كلها والأنبياء. وسمةُ المحبةِ المسيحيةِ هي الإيثار. ولكي يصلَ الإنسان إلى الإيثارِ عليه أن ينتصر على المباشريةِ المقيدةِ بالموتِ والفساد, وأن يتجه إلى الواقع الذي يتجاوزها. بدون هذه المسلمةِ ليس هناك من إيثارٍ حقيقي. هكذا تتم الاستجابةُ لوصيةِ المحبةِ كاستجابةٍ لدعوةِ ا إلى المشاركةِ في حياتِه الأبدية. ويتم العملُ بوصايا ا بالانخراطِ في الحياةِ التي يقدمها للإنسان.

إن الحياةَ الأبديةَ نعمةٌ من لدن ا . لذلك كانت وصايا ا المرتبطةُ عضوياً بها رسالةَ محبة. هكذا نفهم المعنى العميق لميزةِ الأخلاق المسيحيةِ بصفتِها أخلاق النعمة, لا لأنها تتم تاريخياً على مستوى النعمةِ, بل لأنها ثمرها ومطلبها. ويطبقُ خُلُقُ النعمةِ بنعمةِ ا نفسِها وبتقديمِ الحياةِ الأبديةِ للبشر.

قيود العالم

يدعى المسيحي إلى العيش في العالمِ منتصراً على الجسدِ وشريكاً في الحياةِ الأبدية. فالعالم يسجن الإنسان في فرديتِه ويقيده بالأمور الفوريةِ

[216] (يوحنا 12: 5)

[217] انظر يوحنا 17: 3.

والمباشرة. لكن تجاوز الفرديةِ والمباشرية لا يعنـي قطـع العلاقـةِ بالعـالمِ وبالآخر, بل يعني اكتشافاً جديداً لعلاقِته الحقيقيةِ في منظور الكنيسةِ المعادي. وهذا يتم تدرجاً وترقياً.

إذاً يتطلب العملُ بوصايا ا انتقالَ البشر إلى الواقع المعلَن عنـه فـي المسيح. في هذا الواقع لا نهجر العالم , بل نغير وجهه. وفيما يحملُ المسيحي جسداً ويحيا في العالمِ, فهو يظهر روحياً شريكاً في حياةِ ا المتجاوزةِ للعالم. لا يتخلى المؤمن عن العالمِ, بل يعيشُ فيه شريكاً في حياةِ ا ويجعلُ من إرادةِ ا إرادتَه الشخصية. وهذا ليس للقلةِ والنخبةِ من الناسِ الذين يتركون العـالم وينطلقون إلى الصحراءِ فحسب, بل هو لكل مؤمن. وما ترك العـالمِ سـوى وسيلةٍ لهذا الهدف. يقول سمعان اللاهوتي الحديث: "لا المدينةُ تُعيقُنا عن العمل بوصايا ا إذا كنا متحمسين ويقظين, ولا السكينةُ أو اعتزالُ الدنيا ينفعـان إذا كنا متهاملين ومتهاونين."[218]

[218] التعليم الديني, المصادر المسيحية, المجلد 104, ص 374.

11- الرجاء

المعنى والمحتوى

كما يظهر الإيمان با هكذا يظهر الرجاء بـا مـن خـلال غيابـه الظاهري عن العالم.بالرجاءِ نحسب ما هو مستقبلي وكأنه حاضر وما ننتظره وكأنه قائم. ولذلك يصفُ غريغوريوس اللاهوتي الرجاء بأنه "تـصاحب فـي الوجودِ مع شيءٍ غائب."[219] به يتجاوز المؤمن الأمور الظرفيةَ ويذوقُ ذلـك الواقع في أطرِ العالمِ الفاسدِ العابر, ويحيا حضور ا في العالمِ ويرى الأمور من منظورٍ معادي فينتقلُ من "النعمةِ في الإيمان إلى النعمةِ المرئية." [220] لذلك كان الرجاء فضيلةً مرتبطةً بالإيمان.

وبخلافِ "الذين لا رجاء لهم"[221] يكون المسيحيون أهـلَ الرجـاء.[222] فالرجاء المسيحي أكيد وثابتٌ, لأنه يرجع إلى ما هو أبدي, أي إلى ا نفـسِه, وليس إلى ما هو محتملٌ أو حادثٌ.[223] يتساءل الذهبي الفم: "تُـرى هـل فـي الرجاءِ صلاحنا؟" فيجيب, "نعم إنه في الرجـاءِ ولكـن لـيس فـي الرجـاءِ البشري... فالذي وعدنا حي, ونحن الذين سننعم به, فإن متنا فإننا سنقوم مـن بين الأموات. وما من شيءٍ يقـدر أن يخجلنـا وكأننـا تبجحنـا برجـاءٍ واهٍ وباطل."[224] بالرجاءِ ينتظر المؤمن إحقاقاً لإيمانه, ولا يخافُ أي تكذيبٍ لرجائه

---

[219] قصائد خلقية 1, 2, 34, 158, مجموعة الآباء اليونانية 37, 956.

[220] مكسيموس المعترف, المسارة, 34, مجموعة الآباء اليونانية 60, 469.

[221] (أفسس 2: 12, 1 تسالونيكيه 4: 13)

[222] (2 كورنثس 10: 15, 1 تسالونيكيه 4: 13)

[223] (1 تيموثاوس 1: 10)

[224] الموعظة في الرسالة إلى أهل روميه 10, 3, مجموعة الآباء اليونانية 60, 469.

حتى لو كان تكذيب الموت. فالتكذيب الظاهري القائم على مـستوى الأمـور الظرفيةِ والمباشرةِ هو تأكيد لحقيقةِ رجاءِ المؤمن. وهذا يعود إلـى المحتـوى المعادي للرجاءِ المسيحي الذي هو ضمانةٌ لحفظِه من التجاربِ ومـن نـسبيةِ الأمور الفوريةِ والظرفية.

إننا نجد معنى حياةِ المؤمن وكذلك معنى حياةِ البشر فـي ا . ولـذلك يجب النظر إلى الحياةِ الشخصيةِ والاجتماعيةِ من منظارِ الرجاءِ المعادي. هذا الرجاء لا يغرب الإنسان بل يوصله إلى التآلفِ مع ذاتِه وإلى اسـتعادتِها فـي المسيح. فالرجاء المسيحي لا يبعد المرء عن الحياةِ اليوميةِ ولا يغذي أحـلام اليقظةِ أو الرؤى اللاواقعية, بل يوسع نطاقَ الحياةِ وينتـصر علـى فوريتهـا وآنيتها ويربطها بأزليةِ الحضور الإلهي. "يمكن القـولُ بـأن الرجـاء يعِـدنا للمستقبلاتِ لا بأحلامِ اليقظةِ بل يودعها ذهنَنا وكأنها حاضرةٌ أمامنا, ويجعلُ ما ننظره مرئياً. بالرجاءِ نتجاوز الحواجز التي فـي الطريـق وتجمعنـا, نحـن المشوقين إليه, بالمحبوبِ فننتصر من خلال علاقاتِنا بالمستقبل علـى مجـرى الزمن."[225]

منظور الرجاء

بالرجاءِ با يسير المرء نحو المستقبل ويصوغُ منظور حياتِه ويوجهها إلى الواقعِ الإلهي. وهذا الواقع لا يماثِلُ الآنيةَ, بل يتجاوز تقلبهـا وخـداعها ويبطلُ كل أكاذيبِها وتناقضاتها. إنه واقع معادي به يستطيع المـؤمن أن يجـد حريتَه ويحرر ذاتَه من قيودِها وأغلالِها وأن يكون في ملكوتِ ا الذي نبلُغُـه بتجاوز العوائق والأضاليل التي يخلقها الزمن. وهناك يكتسب المـرء معرفـةَ

[225] بروكلوس القسطنطيني, رسالة إلى الأرمن, في الإيمان 3, مجموعة الآباء اليونانية 65, 857.

الحق ويفهم عرضيةَ الأمورِ الآنيةِ ونسبيتها,[226] ويحس بمعنى اشـتراكِه فـي موتِ المسيحِ وقيامِته اللذين يعطيان محتوى خاصاً للحياةِ المسيحية. إن كـان الإيمان بقيامةِ المسيح جوهر البشارةِ المسيحية, فرجاء الاشتراكِ فيها كان غايةَ المؤمن.

الرجاء والإيمان

يغذي الإيمان الرجاء لأنه يتضمن, كما قلنا, ذكـرى محبـةِ ا التـي ظهرت في العالمِ ويقدم للبشر التصور الصحيح عن معنى وجـودِه وغايتـه. وكما يرتبطُ الإيمان بالمسيح كذلك يرتبطُ الرجاء به أيـضا, لكـن المـسيح لا يوصفُ عادةً من خلال الإيمان فحسب, بل من خـلال رجـاءِ المـسيحيين أيضا.[227] فملء الحياةِ المسيحيةِ لا يوجد في الماضي بل في المستقبل, إي في رب المجدِ الذي هو حياةُ المؤمنين ومجدهم.[228] إن لم تستند حياةُ المـسيحيين إلى المسيح الناهض من بين الأمواتِ فنحن "أشقى النـاس جميعـا. كـلا! إن المسيح قام من بين الأموات وهو بكر من رقد رقدة الموت."[229]

يستند الرجاء إلى الإيمان ويعطيه معنى أيضا. ومتى انقطـع الرجـاء تراجع الإيمان. الرجاء هو دم الإيمان, "وإذا انقطع الرجاء فإنـه يكـون دمـاً

---

[226] "إن أردت أن تخلص وتبلغ معرفة الحق (انظر 1 تيموثاوس 2: 4) جاهد الجهاد الحسن حتى تتجاوز بالرجاء الحسيات وتتحد بالإلهيات." مرقص الناسك في الذين يعتقدون أنهم بالأعمال يتبررون 146, مجموعة الآباء اليونانية 65, 949.

[227] 1 تيموثاوس 1: 1, إغناطيوس, إلى أهل ترليان 2: 2, إلى أهل فيلادلفيا 11: 2, وغلى أهل أزمير 10: 2 وغيرها.

[228] (كولوسي 3: 4)

[229] (1 كورنثس 15: 19- 20)

مسفوكاً والإيمان يتلف كذلك."[230] يقول الذهبي الفم إن الرجاء "هـو كالحبـل القوي الذي يمسك بنفوسِنا, لأنه موثوقٌ بالسماء."[231]

مسلمات الرجاء

ينمي الرجاء با ميلاً إلى الجهادِ, كما يقود إلى تطهيرِ المؤمن خُلُقيا. " ومن كان له هذا الرجاء في المسيح, طهر نفسه كما أن المسيح طـاهر."[232] لا يستطيع المرء أن يضع رجاءه في ا مـا لـم يحـاولْ أن يعمـلَ بمـشيئتِه ويحفظَها.[233] ووضع الرجاءِ في ا يبرز من خلال تحمل المشقاتِ في سـبيل الفضائل.[234]

الرجاء والواقعية

من غيرِ الإيمان والرجاءِ لا يكتسب المرء نظرةً جامعةً للحياةِ ولا يفهم معناها العميق. فالمواجهةُ الجامدةُ للزمن المعاصر لن يقدم صـورةً صـحيحةً عن الحياة. الحياةُ ليست وضعاً جامداً, إنما تطلع إلى المستقبل بقواه وإمكاناتـه غير المحدودة. بميزةِ الرجاءِ الحيويةِ يستطيع كل بـشرٍ أن يواجـه الأمـور الظرفيةَ بقوةٍ ويصبح قادراً على مواجهةِ الواقعِ الحياتي. بدون الرجاءِ لا يوجد منظور واقعي للحياة البشرية.

الرجاء في عصرنا

---

[230] أقليمس الإسكندري, المربي 1, 6, 83, 3.

[231] إلى ثيوذوروس الساقط 1, 2, مجموعة الآباء اليونانية 47, 279.

[232] (1 يوحنا 3: 3)

[233] اسحق السرياني, الكلمة 26.

[234] المرجع نفسه, الكلمة 22.

يرتبطُ الرجاء بصفتِه امتداداً إلى المستقبل بحيـاةِ الإنـسان. ومـا دام الإنسان حياً, فأملُه قائم, غير أن أملاً كهذا يكبلُ حيـاةَ الإنـسان المعاصـر. فالاهتمام الرئيس عنده لا يرجع إلى الماضي, إنما يمتد إلـى المـستقبل. فـي عصرنا الحاضر صرفت التطوراتُ الثقافيةُ والسياسيةُ والاجتماعيةُ العاصـفةُ انتباه الإنسان عن الماضي وحولته إلى المستقبل. فالأملُ بالمـستقبل أصـبح المقياس الأولَ لتنظيمِ الحياةِ وحل المشاكل القائمة. ولقـد أصـبحت العلاقـةُ بالماضي تخيليةً, فنشأت عن ذلك اللامبلاةُ بـالتراث. ولأن المفـاهيم الدينيـةَ والخُلُقيةَ تندرج في التقليدِ فقد انعكس الموقع الجديد للإنسان المعاصـر سـلباً على الحياةِ الدينيةِ والخُلُقية. فالمنظور المستقبلي ليس غيبياً, إنمـا لـه صـفةٌ دنيوية.

أما الأمور التي أسند الإنسان رجاءه إليها فبدأت تُخيب أمله. فاتضحت له نسبيةُ الحلول التي تُقدمها والمشاكل الجديدة التي تخلُقهـا وكـذلك إمكانيـة التغيير التي قد توصل إلى دمارٍ كلي. ومنذ الآن صار يشعر المرء بأنه يسير في طريقٍ صعبةٍ تنتهي بردبٍ وتدمر رجاءه وأمله. ومتى انتصر المرء علـى الرجاءِ استسلم لليأس.

الرجاء واليأس

يوصف اليأس أو القنوطُ في الأدبِ الابائي بأنه رغبةٌ شيطانيةٌ توصـلُ إلى الدمار. فاليأس هو الإشارةُ المميزةُ لعمل الشيطان. الشيطان يؤمن ويرتعد لكنه لا أملَ له ولا رجاء. واليأس هو نتيجةُ الارتدادِ والتغربِ عـن ا . أمـا الرجاء فهو ثمر الإيمان والثقةِ با . بقدرةِ الرجاءِ يستطيع الإنسان الانتـصار على الصعوباتِ التي يصادفُها في حياتِه محولاً إياها إلى عوامل تُـساهم فـي

إتمامِ غايتِه التي بحسب ا . يقول الذهبي الفم إن "الرجاء بـا يـصلح كـل شيء."[235]

الرجاء والصبر

أما الشرطُ الضروري لحفظِ الرجاءِ فهو الصبر. "أما إذا كنا نرجو مـا لا ننظره, فبالصبر ننتظره."[236] وإحدى السماتِ المسيحيةِ هي إمكانيةُ مواجهـةِ الشر في العالِمِ بقوةِ الرجاءِ بمواهبِ ا .[237] الرجاء يتجـاوز قيـود الأمـور الظرفيةِ ويمتد إلى الواقعِ الأبعد. فإما أن يتثبتَ الرجاء با أو أن يصلَ إلـى العدم. به يخرج المرء من الأطر الضيقةِ التي يحيطُ بها الهلاك والموتُ فيدخلُ في حقيقةِ ا .

[235] في تفسير المزامير 10, 1 مجموعة الآباء اليونانية 55, 140.

[236] (رومية 8: 25)

[237] انظر يوحنا الذهبي الفم. إلى أنذرينيتا 2, 3. مجموعة الآباء اليونانية 49– 37.

12- المحبة

المحبة خلاصة الشريعة

تُلخص محبةُ ا والقريب محتوى الشريعةِ ونبؤآتِ أنبياءِ العهدِ القديم. ولما سئل المسيح: "ما هي أعظم وصيةٍ في الشريعة؟" أجاب: "أحب الرب إلهك بكل قلبكِ وبكل نفسِك وبكل عقلِك. هذه هي الوصيةُ الأولى والعظمى. والوصيةُ الثانيةُ مثلها. أحب قريبك مثلما تُحب نفسك. على هاتين الوصيتين تقوم الشريعةُ ونبؤآتُ الأنبياء."[238]

محبة ا

تحفظُ محبةُ ا العالم والبشر, لكنها لا تظهر دائماً من خلال الوسائل الحسيةِ في العالم. فا لا يفرض محبتَه على الإنسان ولا يكرهه على الاستجابةِ لحبِه. وهكذا تظهر محبتُه كإمكانية للحرية. الإنسان قادر على كرهِ ا . لكن من أبغض ا أنمى محبةً مريضةً تجاهه, لأنه يقر بوجودِه وبعلاقتِه به. فعدو ا يمكن اعتباره كأحدِ عشاقِه التعساء. لذلك كان وضعه أفضل من وضع الفاتر اللامبالي.[239]

إن ا لا يطلب من الإنسان شيئاً واحداً, إنما يطلب وجوده كله. فإتمام الوصيةِ الأولى والعظمى التي هي وصيةُ المحبةِ لا تتم بتنازلاتٍ معينةٍ, بل بتقديمٍ جامعٍ للنفس. الإنسان مدعو إلى أن يحب ا محبةً مطلقةً وجامعة. فما من جزءٍ من حياتِه يبرر عدم اشتراكِه في محبة ا , لأن في محبةِ ا المبدأ الكياني وغاية وجودِ الإنسان وحياته.

---

[238] (متى 22: 37– 40)

[239] (رؤيا 3: 15– 16)

المحبة والخوف

ولأن الإنسان مائتٌ هالك فالشرير يجربه معرضاً إياه لخـسارةِ الهبـةِ التي يقدمها ا له. لذلك احتاج إلى أن يسهر ويساهم بخوفِ ا في خلاصِـه وفي تجديدِه.[240] والخوفُ يظهر, كما قلنا, فـي الـ درجاتِ التمهيديـةِ للحيـاةِ الروحية, حتى يعطي في النهايةِ مكانَه للمحبة. وحتى في الدرجاتِ العليا للحياةِ الروحيةِ يبقى لخوفِ ا مكانه بشكلٍ آخر. هنا لا يرتبط الخوفُ بتهديدٍ وشيكِ الوقوع, إنما بالشعور بعظمةِ موهبةِ ا وبالخطر الذي يحدقُ بالإنـسان مـن جراءِ حريتِه وضعفِه. وكما يقول الواقفُ على جبلٍ عالٍ بأنه يخافُ منه, وفي الواقع إنه لا يخافُ من الجبل, بل يخافُ من السقوطِ عن الجبل, هكذا يخـافُ من وصل إلى هذا المستوى الرفيع من ا . وفي الواقع, إنه لا يخافُ مـن ا نفسِه, بل يخافُ من السقوطِ والتخلي عن ا .[241] منذ البدءِ جعلَ ا الإنـسان شريكاً في مواهِبه, فمتى وعى المرء هذه الحقيقةَ فلن يخافَ من ا . في هـذه الحالةِ يبقى هناك خوفٌ واحد وهو ألا يكون مستحقاً له.

المحبة الوجودية

تستلزم محبةُ ا العملَ بمشيئتِه. المحبةُ الحقيقيةُ ليست نظرية. فمحبـةٌ كهذه كاذبةٌ ماكرة. أما المحبةُ الحقيقيةُ فتتجلى من خلال العمـل بمـشيئتِه.

---

240 "عيشوا مدة غربتكم في مخافته عارفين أنه افتداكم من سيرتكم الباطلة التي ورثتموها عن آبائكم, لا بالفاني من الفضة أو الذهب, بل بدم كريم, دم الحمل الذي لا عيب فيه ولا دنس, دم المسيح." (1 بطرس 1: 17– 19)

241 انظر يوحنا الدمشقي, الموازيات المقدسة 4, مجموعة الآباء اليونانية 95, 1093.

والعملُ بمشيئتِه يجعلُ النفس البشريةَ صحيحةً سليمةً ويخلقُ المنـاخَ الملائـم لإنماءِ المحبةِ الحقيقية.[242]

محبة القريب

الوصيةُ الثانيةُ العظمى التي يصفها الرب بأنها شـبيهةٌ بـالأولى هـي وصيةُ محبةِ القريب. فتشابه هاتين الوصيتين يظهر على المستوى الخلاصي. أما على المستوى اللاهوتي فمحبةُ ا   هي التي توصلُ إلى القريب. لكن محبةَ القريبِ تُرجع الإنسان إلى محبةِ ا .[243] هذا لا يعني أن كل تعبيرٍ حبي يكون مستحيلاً بدون محبتنا   . فالمحبةُ مزروعةٌ فينا والتعبير عنهـا طبيعـي فـي حياتنا.

أنواع المحبة

فيما يخص الدوافع التي توجه الإنسان دائماً يمكن تقسيمها إلى ثلاثة:

1- الأثرةُ التي توجهها المنفعةُ الشخصيةُ, كالمجدِ والمال واللذة.

2- المحبةُ الطبيعيةُ التي تنبع من التعاطفِ الطبيعي كمحبةِ الوالدين للأبنـاءِ أو الأبناءِ للوالدين.

---

[242] "لا تقدر النفس أن تقتني المحبة, ما لم تكن صحيحة معافاة, لا يتم ذلك إلا بالعمل بالوصايا الإلهية." اسحق السرياني, الرسالة 4.

[243] "من عمل بالوصية الأولى عمل بالثانية وكذلك من عمل بالثانية عمل بالأولى. ومن أحب الرب أحب القريب أيضا. فالرب قال: "من أحبني عمل بوصاياي." (يوحنا 14: 23) "هذه هي وصيتي: أحبوا بعضكم بعضا مثلما أحببتكم." (يوحنا 15: 12) من أحب قريبه أتم محبة الله, لأن الله يقبل الفضل والإحسان الموجه إلى القريب وكأنه موجه إليه شخصيا." باسيليوس الكبير, القوانين المطولة 3, 2, مجموعة الآباء اليونانية 31, 917. انظر كذلك يوحنا الذهبي الفم, الموعظة 71, في تفسير إنجيل متى 1, مجموعة الآباء اليونانية 58, 661.

3- الإيثار الذي ينبع من محبةِ ا ومن الفضيلةِ بعيـداً عـن أيـةِ مـصلحةٍ شخصية.

يمكن وصفُ الأثرةِ بأنها ملومةٌ والمحبـة الطبيعيـة بأنهـا متوسـطةٌ والإيثار بأنه محمود.[244]

محبة الأم

إن أساس الحب الإختباري والحياتي قائم على محبـةِ الأم. إلـى هـذه المحبةِ يستند شعور الحب وعيشُه في أنواعِه المختلفة. محبةُ الأمِ طبيعيةٌ, وهي إيثار. وهذه المحبةُ تعطي للطفل شعوراً بالأمان والعطف, كما تُعطيه الـدفء لبقائه الحياوي.

من الأثرة إلى الإيثار

هدفُ الحياةِ المسيحيةِ هو الانتقالُ من الأثرةِ إلى الإيثار. ولتحقيق هـذا الهدفِ الدال على كمال المؤمن لا بد من جهدٍ عظيمٍ مستمر. وهذا الجهد يـتم بالقبول الاختياري للتخلي عن الأمان الشخصي الموصل إلى اكتشافِ حقيقـةِ الشركةِ الشخصية. جهد كهذا تقويه أو تُضعفُه عواملُ خارجية. وعلى سـبيل المثال, الروح الجماعيةُ التي سادت المجتمع الزراعي أثرت تأثيراً إيجابياً فـي جهدٍ كهذا. أما الروح الفرديةُ القائمةُ في المجتمع المعاصر فهي تؤثر تـأثيراً سلبيا. فانغلاقُ الإنسان المعاصر على فرديته وتشييئُ أمور الحياةِ المعاصـرةِ ينميان الأثرةَ ويلاشيان المحبةَ الحقيقية. فالناس يواجهـون كوسـائلَ لتحقيـقِ أهدافٍ خارجةٍ عنهم أو مناقضةٍ لشخصيتهم.وبذلك ينسى المجتمـع المعاصـر ميزتَهم الشخصيةَ فتتلاشى إمكانيةُ الشركةِ الإيثارية.

ترتبطُ الأثرةُ بفنائيةِ الإنسان وخوفِه من الموت. أما الإيثـار فيتجـاوز الخوفَ من الموت. لا وجود للأثرةِ بدون التحرر من الخوفِ من الموت. هذه

[244] انظر مكسيموس المعترف, فصول في المحبة 2, 9, مجموعة الآباء اليونانية 90, 985.

المحبةُ تستند إلى ا وتستجيب لمحبةٍ من أحبنا أولا.[245] الأوليةُ في اللاهـوتِ هي دائماً محبةُ ا . ومتى وجدت هذه المحبةُ تلتهـا المحبـةُ الثانيـةُ بيـسر. "تكتسب المحبةُ الأولى العظيمة بالألمِ فتتبعها المحبةُ الثانيةُ التي هي أدنى مـن الأولى بأقل تعبٍ. وإذا كانت المحبةُ الأولى غائبةً فالثانيةُ لا يمكـن أن تكـون حاضرةً على نحوٍ مشرق."[246]

نظام المحبة

قد يحدثُ أحياناً أن تتجه محبةُ الإنسان إلى ا فقط فينسى الآخر, أو أن تتجه إلى الآخر فينسى ا , في هاتين الحالتين لا توجد محبةٌ حقيقية. هكذا قال يوحنا الرسول على نحوٍ رائعٍ: "إذا قال أحد: أنا أحب ا , وهو يكره أخاه كان كاذباً."[247] أما إذا قال بأنه يحب أخاه محبةً حقيقيةً من غير أيةِ صـلةٍ إيمانيـةٍ فهو غير صادقٍ.[248] يجب على الإنسان أن يعرفَ نظـام المحبـةِ وأصـولها ليستطيع أن يحب محبةً حقيقيةً. يقول غريغوريـوس النيصـصي: "يجـب أن نعرفَ نظام المحبة... وأن نحب ا من كل القلبِ والنفسِ والقدرةِ والـشعور وأن نحب قريبنا كنفسنا. من كان نقي النفسِ أحب امرأتَه كما أحـب المـسيح الكنيسةَ, ومن كان ذا هوى فليحبها كما أحب جسده."[249]

مصدر المحبة

---

[245] (1 يوحنا 4: 19)

[246] غريغوريوس النيصصي, في الغاية بحسب الله 22, مجموعة الآباء اليونانية 46, 300 .

[247] (1 يوحنا 4: 20)

[248] يقول فوتيوس الكبير على نحو لاذع: "ليس هناك من يكره الناس من غير أن يكره الله وليس من يعامل الناس بمحبة من غير أن يكون محبا لله." الموعظة 6, 6 .

[249] الموعظة الرابعة في نشيد الأناشيد .

لا تقدر محبةُ الإنسان أن تكون مصدر المحبةِ الإلهيةِ وعـاملاً منظمـاً لها, إنما هي ثمر تلك المحبةِ وشهادتِها. فمحبةُ الإنسان ترتبطُ ارتباطاً عضوياً بمحبةِ ا . كما يستحيلُ إنماء المحبةِ البشريةِ تجاه الآخرين من غير محبةِ ا . ا هو محبةٌ ومنهلُ المحبة.[250] وفي الوقتِ نفسِه تكـشفُ المحبـةُ الطبيعـةُ العميقةُ التي فيها تكون المحبةُ "كلمةً مزروعة"[251] فينا. المحبةُ موجـودةٌ قبـلَ الإنسان. وهي تظهر من خلاله وتتغذى عندما يقدم ذاتَه لها. المحبـةُ عنـصر كياني للوجودِ الإنساني. لذلك لا يكتملُ الإنسان بعيداً عـن المحبـة. المحبـةُ الحقيقيةُ هي "مشاركةٌ واشتراك" في الألوهة.[252] ولـذلك لا يحـدها المكـان والزمان ولا تقيدها قوتُهما المحطمة والملاشية, إنما تُحفظ فـي حـضور ا الأزلي.[253] أما المحبةُ التي لا تستند إلى ا فهي وقتيةٌ عـابرة, وإن كانـت تحملُ العلاماتِ الخارجيةَ للمحبةِ فهي في التحليل الأخير ليست محبةً حقيقيةً. أما إذا انطلقَ المرء من محبةِ ا وأسند محبتَه لقريبه إليها كـان فـي إطـار المحبةِ الحقيقيةِ الجامعةِ التي تُصلح وحدةَ الطبيعةِ البشرية.

مثل الدائرة

---

[250] (1 يوحنا 4: 8)

[251] القديس باسيليوس الكبير, القوانين المطولة 9: 2, مجموعة الآباء اليونانية 31, 908.

[252] سمعان اللاهوتي الحديث, الرسالة 2, 72, مجموعة الآباء اليونانية 91, 617.

[253] "إن أهل الأرض المرتبطين ببعضهم البعض بالمحبة يحتاجون إلى الحضور الجسدي بسبب من النسيان الذي يضعف طبيعيا الشوق الجامع للأجساد ويضعف الذكرى القائمة بينهم. أما المحبة التي بحسب الله فهو تربطهم باستمرار فيكونوا مع بعضهم البعض حتى أنها تربط الغائبين منهم بقوة أكبر." مكسيموس المعترف, الرسالة 2, 27 مجموعة الآباء اليونانية 91, 617.

عندما أكد الأب دوروثاوس استناد محبةِ القريبِ إلى محبـةِ ا قـال: "اقترضوا معي أن في الأرضِ دائرةً كخطٍ مدورٍ من مركزٍ فرجار... واحسبوا أن هذه الدائرةَ هي العالم وأن وسطَ الدائرةِ هي ا , وأن الخطوطَ المـستقيمةَ التي تمتد من الدائرةِ إلى الوسطِ هي الطرق, أي مـسالك البـشر. وبمـا أن القديسين يدخلون راغبين في الاقترابِ من ا , فـإنهم يـصبحون بقـربٍ ا وبقربٍ بعضِهم البعض. كلما اقتربوا من ا اقتربوا من بعضِهم البعض, وكلما اقتربوا من بعضِهم البعض اقتربوا من ا . هكذا افهموا الابتعاد أيضا. فكلمـا ابتعدوا عن ا وارتدوا إلى الخارجِ ابتعدوا عن بعضِهم البعض, وكلما ابتعدوا عن بعضِهم البعض ابتعدوا عن ا . هذه هي طبيعةُ المحبةِ. فمادمنـا خارجـاً غير محبين ا فإن كل واحدٍ منا يبتعد عن الآخرِ بهذا المقدار. أما إذا أحببنـا ا فإننا نقترب منه على مقدارِ محبتنا له ونتحد أيضا بالقريبِ على مقدارِ هذه المحبة. قّدر اتحادِنا بالقريبِ قّدر اتحادِنا با ."[254]

نشيد المحبة

في نشيدِ المحبةِ يعبر بولس الرسول عن الحقيقةِ المثيرةِ التي فيها قـد يتمتع الإنسان بالإيمان والعرفان ويستخدم المواهب العظمى ويجترح العجائب, ويحققُ أعمالاً شجاعةً من خلال تضحيته بذاتِه ومحبته للبشر, لكن إن لم تكـن لديه المحبةُ فلن يجديه ذلك نفعا. "لو تكلمتُ بلغاتِ الناسِ والملائكة ولا محبـة عندي, فما أنا إلا نحاس يطن أو صنج يرن. ولو وهبتُ النبوةَ وكنت عارفاً كل سر وكل علم, ولي الإيمان الكاملُ أن أنقلَ الجبالَ به, ولا محبة عندي, فما أنا بشيء. ولو فرقتُ جميع أموالي وسلمتُ جسدي للحرق, ولا محبة عندي, فمـا ينفعني شيء."[255]

---

[254] التعليم 6, 9, مجموعة الآباء اليونانية 88, 1696.

[255] (1 كورنثس 13: 1– 3)

ما يوصفُ بأنه عملُ محبة, ولو كان بذل الذاتِ في سبيل القريب, قـد يكون موجوداً بلا محبةٍ حقيقيةٍ عند من يقوم بها.قد يؤكد بعـضهم أن مـن لا محبةَ عنده لن يقوم عادةً بأعمالٍ كهذه. لكن تصرفاً كهذا ليس مـستحيلاً, لأن ميلَ الأثرةِ يقتضي ذلك. فوراء الإحسان تختفي ميولُ المجدِ الباطل, لا المحبة الخالصة للقريب. في هذه الحالاتِ قد ينمي الإحسان الأثرةَ, إذا لم توجد المحبةُ الحقيقية. "لا يستطيع أحد أن يتكبر على المحبوب."[256]

المحبة الشخصية والاجتماعية

ترتبطُ المحبةُ بالأشخاص, لكنها لا تنحـصر فـي نطـاق العلاقـاتِ الشخصيةِ أو تهملُ قوانين الحياةِ الاجتماعية. فمتى كانت المحبةُ فاعلـةً فـي الحياةِ الاجتماعيةِ قادت إلى خلق قوانين اجتماعيةٍ عادلة. في عـصرنا تـدل اللامبالاةُ بالبعد القانوني للحياة الاجتماعية على نقصٍ في الإيثار. ولكن يجـب التأكيد على أن عيشَ الإيثار في الحياةِ الاجتماعيـةِ مريـب. فبنـى الحيـاةِ الاجتماعيةِ تناقض الإيثار وتناقض الحياةَ المسيحيةَ عامةً. لذلك تظهر الحيـاةُ المسيحيةُ مناقضةً لروح العالم. يوجد الإيثار عندما تسبقُه خبرةُ الموت. عندها تكتسب الحياةُ معنى جديدا. فمتى انتصر المؤمن على الخوفِ من الموت الذي يمليه أسلوب حياتِه في العالمِ انتصر على العالمِ وذاق الحياةَ الحقيقية. وهكـذا تنتصر المحبةُ على الموت. فخبرةُ المحبةِ هي خبرةُ الحياة.[257] وخبرةُ الحيـاةِ هي خبرةُ الاشتراكِ في النصرِ على الموت.

المحبة الكنسية

إن الحياةَ المسيحيةَ محبةٌ كنسية, لأن الكنيسةَ هي شركةُ محبـة. أمـا تكرار خطيئةِ الجدين الأولين في الكنيسة يتحققُ برفعِ الإنسان ذاتَه رفعاً أنانيـاً

---

[256] يوحنا الذهبي الفم, الموعظة 32 في الرسالة الأولى إلى الكورنثيين 6, مجموعة الآباء اليونانية 61, 272.

[257] "نحن نعرف أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة, لأننا نحب اخوتنا, من لا يحب ثبت في الموت." (1 يوحنا 3: 14)

فيتحولُ إلى ناقدٍ للآخرين ورقيبٍ عليهم. وهذا يفضي به إلى فصل الصالحين عن الطالحين. لذلك دعا المسيح أتباعه إلى المسامحةِ لا إلى الدينونة.[258]متـى صنفَ المؤمن الآخرين فأحب بعضهم ومقتَ بعضهم الآخر فإن محبتَه ليـست كاملة. المحبةُ الكاملةُ لا تسمح بالتمييز بين البشر, بـل تتجـه إلـى الجميـع بالتساوي.[259] ومتى انحصرت المحبةُ في بعضِ المختارين فطبيعي أن تُهمـلَ غير المختارين. هذه المحبةُ تصلُ بسهولةٍ إلى كرهِ غيـر المختـارين باسـمِ المختارين, وبالكرهِ تنقسم الطبيعةُ البشريةُ الواحدة.[260]

النضوج التدريجي

يحتاج المؤمن إلى النضوجِ التدريجي حتى يبلغَ المحبةَ الكاملة. ونصائح القديس أنطونيوس الكبير مميزةٌ في هذا الموضوع. عندما طُلب إليه أن يقـولَ شيئاً لبعضِ الاخوةِ أورد الآية الإنجيلية التي تقول: "من لطمـك علـى خـدِك الأيمن فحول له الآخر." لكن هؤلاء أجابوه بأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا هـذا

[258] يقول مرقص الناسك إن الرب "سمح للإنسان أن يأكل من كل أشجار الفردوس, إي أن يمارس من اعتمد في الكنيسة المحبة وأن يصبر في الشدائد, وأن لا يتغير في تصرفه فيحب الذين يؤمنون إيمانا صحيحا ويمقت أعمال الذين يفكرون تفكيرا سيئًا . أما شجرة معرفة الخير والشر فهي إن ذاق منها العقل سقط فورا في الضيقات والصعوبات ووجد عريه باستنباط شرير لم يكن يعرفه من قبل وذلك لإيذاء الآخرين. وهذا العقل كان مسكوا بالتعاطف مع الآخرين. لذلك أوصى من هم في فردوس الكنيسة قائلا: لا تدينوا لئلا تدانوا, اصفحوا واغفروا فيغفر لكم." في المعمودية, مجموعة الآباء اليونانية 65, 1025.

[259] "إن أبغضت بعضهم فإنك لا تحب بعضهم ولا تكرههم. فإنك تحب البعض قليلا وتحب البعض الآخر بإفراط. اعلم أنك بعدم التساوي في المحبة تكون بعيدا عن المحبة, لأنها تفترض على المرء أن يحب الجميع على نحو متساو." مكسيموس المعترف, فصول في المحبة 2, 10, مجموعة الآباء اليونانية 90, 985- 988.

[260] انظر مكسيموس المعترف, تفسير أبانا الذي, مجموعة الآباء اليونانية 90, 901.

الكلام فقال لهم: "إن لم تقدروا أن تحولوا الخد الآخر فاحتملوا اللاطمةَ الأولى على الأقل." ولما أعلنوا عن ضعفِهم أيضا قال لتلميذِه: "أعد لهم طعاماً قليلاً, لأنهم ضعفاء. ثم قال لهم: إن كنتم لا تقدرون على هذا ولا تريدون ذلك فماذا أصنع لكم؟ أنتم بحاجةٍ إلى صلاة."[261] وعلاوةً على ذلك, يقول الأب بيمين عن طريقةِ الهربِ من مقابلةِ الشر بالشر: "هذا الهوى له أربعةُ وجوهٍ: الأول من القلب, والثاني من البصر, والثالث من اللسان, والرابع أن لا تقابلَ شراً بشر. فإذا استطعت أن تنقي قلبك فلن يصلَ الهوى إلى البصر. وإذا بلغ البصر فانتبه أن لا تتكلم. وإذا تكلمت فاقطعه على عجلٍ لئلا تقابلَ شراً بشر."[262]

إن العهد القديم الذي كان مؤدباً إلى أن يجيء المسيح لم يعلن بشارةَ محبةِ الأعداء, إنما دعا الناس إلى إنماءِ المحبةِ في أطرٍ معينة. لقد قيد الشر في الحدودِ الضيقةِ الممكنة. فوصيةُ "العين بالعين والسن بالسن" توصل إلى انتقامٍ محدود. ووصيةُ مبادلةِ الشر بالخير التي يوردها كتاب الأمثال قد تكون شكلاً من أشكال الانتقام, رغم أنها تفسر كتوصيةٍ لممارسةِ الإيثار. "إن جاع مبغضك فأطعمه خبزاً وإن عطش فاسقِه ماء, فإنك تركت على هامتِه جمرا."[263] ما يميز المحبة المسيحية عن كل محبةٍ أخرى وبالتالي ما يميز المسيحي الحقيقي عن أي شخصٍ آخر هو الإيثار. فالإيثار منهلُ كل فضيلةٍ وكمالُها. يقول القديس غريغوريوس بالاماس, كما أن المحبةَ وأعمالَها "ملء الفضائل" هكذا كان الكره وأعماله "ملء الخطيئة". وكما تتماشى الفضائلُ ومحبةُ البشر هكذا تتماشى الرذائلُ وكره البشر.[264]

---

[261] القديس أنطونيوس 19, مجموعة الآباء اليونانية 65, 81.

[262] أقوال الآباء الشيوخ, 34.

[263] (الأمثال 25, 21– 22)

[264] الموعظة 4, مجموعة الآباء اليونانية 151, 60.

تجربة المحبة

بما أن المبدأ الذي تنظم به العلاقاتُ الاجتماعيةُ في العـالِمِ هـو مبـدأ المجازاةِ والمعاملةِ بالمثل, فطبيعي أن يحب الناس الذين يحبونَهم وأن يكرهوا الذين يكرهونهم. كما يعتَبر كره الذين يحبونهم ومحبةُ الذين يكرهونهم انحرافاً عما هو قانوني. فكره الأصدقاء يدينه الضمير البشري العام ويعـده انحرافـاً خطيرا. أما محبةُ الأعداءِ فتقدم للمنطقَ الإنساني العام وكأنه حماقة. وهنا توجد عظمةُ المسيحية. فالمحبة التي تحتملُ البغض وتُصاب على يديه هي أقوى من البغضِ بلا قياس. وتجربةُ المحبةِ هي الصليب نفسه. أما الخطر الذي يتعرض له المسيحي هو أن يكف عن الاعتمادِ على قوةِ الصليب. لقد ظهرت قـوةُ ا في العالم من خلال تحمل المسيح الصليب. واشتراك المؤمن في قدرةِ ا يـتم بقوةِ الجلادةِ والصبر. بهذه القوةِ عاشت الكنيسةُ وتشددت. وإلى هـذه القـوةِ تستطيع جماعةُ المؤمنين أن تلتجئ, وبها يعتصم كل مسيحي يشعر بالـضعفِ في العالم.

المقاومة السلبية

تكون المواجهةُ السلبيةُ للشر فعالةً أيضا. هكذا يقول فوتيوس الكبيـر: "إذا أدار جميعهم الخد الآخر للذين يلطمونهم فأين هم الضاربون؟"[265] بالمقاومةِ السلبيةِ يقهر الشر ويغلب. وخلافاً لذلك تكون كل محاولةٍ لمجابهةِ الشر واسطةً لامتدادِه وديمومته. أما مقاومةُ الشر هذه فنصفُها بأنها سلبية, لكنها في جوهرِها تبقى فعالة. إنها المقاومةُ التي ترد الشر إلى الماضي وتتطلع إلى المـستقبل. وهي الحافظةُ للبشرِ أحراراً من كل شر. وهذا الموقف يجد تبريره الأخير في المسيح. وهنا يجب أن نؤكد مبدأ العدالةِ الاجتماعية. فمن اختار طريقَ المحبةِ لا يستطيع أن يتجاهلَ في حياتِه الاجتماعية الظلم الذي يقع على قريبه. ولكـي

---

[265] الأمفيلوخيا 101, مجموعة الآباء اليونانية 101, 621.

يواجه المحب حالةً كهذه لا بالعلاقةِ إلى الظالم, بل إلـى المظلـومِ عليـه أن يتصرفَ بالحق والبر والعدل. وفي هذه الحالةِ تُعبر المقاومةُ المتبصرةُ للـشر الاجتماعي عن روحِ الحياة المسيحية الحقيقية.

13- الفرح والسلام

أنواع الفرح

ليس الفرح المسيحي ثمراً لمذهبٍ السعادةِ وللسعي إلى اللذة, لأنهما يخالفان روح المسيحية, التي لا تواجه الفرح كغايةٍ في حد ذاته, إنما كتعبيرٍ عن كمال الإنسان. هذا لا يعني أننا نتجاهلُ الفرح كسرورٍ يومي, لكن الفرح الحقيقي الكاملَ لا يستند إلى معطياتِ الحياةِ الفوريةِ والآنية. يميز القديس كيرلس الإسكندري بين الفرح "الناقص" والفرح "الكامل" فيقول: "إننا نحسب الفرح الذي في ا و والناتج عن الأعمال الصالحةِ فرحاً كاملاً وتاماً بسبب الرجاءِ الثابتِ والوطيد... ونعد الفرح الذي في العالم فرحاً ناقصاً بسبب سهولةِ اختلالِه ورؤيةِ ما يجري له على الأقل, أي الأمور الدنيوية والعدل الذي يتلاشى تلاشي الظل والاستيهام."[266]

فرح على حزن

إن غايةَ الحياةِ المسيحية كمالُ الإنسان في المسيح. فالفرح الحقيقي للمؤمن ينشأ من تقدمِه وكمالِه في محبةِ المسيح وحريته. الفرح لا يوجد بلا المحبةِ والحرية, لكن المحبةَ والحريةَ تفترضان عادةَ الألم والتضحية. لذلك يوجد الفرح المسيحي مع ألمِ المحبةِ ومع التضحيةِ في سبيل الحرية. هكذا يتآلفُ الألم والفرح اللذان يظهران في أطر الفوريةِ وكأنهما متناقضان, بحيث يكون الفرح تجاوزاً للألمِ, والألم إمكانية للفرح. في حياةِ الكنيسةِ الليتورجية يُعبر عن هذا التآلفِ على نحوٍ مدهشٍ من خلال الوحدةِ التي لا تنفصم بين الآم المسيح وقيامتِه. فالألم مسرى للقيامةِ, والقيامةُ هي نهايةُ الألم. يوم الجمعةِ العظيمةِ فرضيةٌ للفصح, والفصح هو استمرار ليوم الجمعةِ العظيمة.

---

[266] إلى يوحنا 10, 2, مجموعة الآباء اليونانية 74, 380.

إن الفرح الحقيقي لا يستند إلى تنعمٍ جسدي, إنما ينشأ عادةً من "الأحزان."[267] فابتغاء الفرح من خلال السعي إلى اللذةِ, والهرب من الحزن يقيدان الإنسان في فرديته البيولوجية ويجعلان منه فريسةً لأهوائه. "عندما نطالب باللذةِ ونُسرع إلى تجنبِ الألمِ للسبب نفسِه فإننا نهدفُ إلى إيلادِ الأهواءِ الفاسدةِ التي لا ُيعبر عنها."[268] الفرح الحقيقي لا يرتبطُ بمصيرِ الإنسان في نطاقِ فرديته البيولوجية وفي عبوديته لأهوائهِ ورغباته. إنه يرتبطُ بالحريةِ, لأن كمالَه يتماشى مع كمال الحرية.

الفرح الحقيقي

الفرح الحقيقي في التعليمِ المسيحي هو ثمر الروحِ القدس. "أما ثمر الروحِ فهو المحبةُ والفرح والسلام والصبر واللطفُ والصلاح والأمانةُ والوداعةُ والعفاف."[269] يصفُ الذهبي الفم الفرح بأنه "إنجاز روحي."[270] وهذا يعني أن المرء يشعر بالفرحِ الحقيقي بنعمةِ الروح القدس. وفي قول بولس الذي ذكرناه نجد أن الفرح يوضع بين المحبةِ والسلام, لكنه يقدم في الوقتِ نفسِه كثمرٍ للروحِ الواحد. فلا يمكنُنا النظر إلى الفرحِ بمعزلٍ عن المحبةِ والسلامِ وعن الفضائل الأخرى في الحياةِ المسيحية.

السلام

[267] يوحنا الذهبي الفم, موعظة في أعمال الرسل 12, 4, مجموعة الآباء اليونانية 60, 132.

[268] مكسيموس المعترف, إلى ثلاسيون. مجموعة الآباء اليونانية 90, 252.

[269] (غلاطية 5: 22)

[270] موعظة في الرسالة إلى أهل رومية 1, 4, مجموعة الآباء اليونانية 60, 400.

بالمحبةِ والفرحِ يرتبطُ السلام. فرباطُ المحبةِ يوازي رباطَ الـسلام.[271] لفظةُ السلامِ في اليونانيةِ تشتقُ من فعل ربطَ ووصل. فالسلام هو وئام حبـي, أي إنه يتوافقُ مع المحبة.[272] "إذا وجِد السلام وجِـدت المحبـةُ وإذا وجِـدت المحبةُ وجِد السلام."[273] السلام هو نقيض الاضطرابِ والتصدع.هكـذا فيمـا يجعلُ السلام الكثيرين واحداً, فإن الاضطراب يقسم الواحد إلى كثيرين. ومـن عاشَ في الانقسامِ لن يشارك ا الواحد اللامنقسم.[274] هنا يتلخص معنى سلامِ المسيح.

سلام المسيح

يتصلُ سلام المسيح بكل أبعادِ الحياةِ الإنسانية. في شخص المسيح الإلهِ الكامل والإنسان الكامل يعيد الإنسان اكتشافَ السلامِ مع نفسِه ومع ا . فسلام الإنسان مع نفسِه يكون مستحيلاً دون السلامِ مع ا . كما أن سلام الإنسان مع ا لا يتم دون السلامِ مع الذات. إن الانقسام الذي يقاسيه المرء نتيجةً لتغربِـه عن ا المصدرِ الكياني لوجودِه. وبكلامٍ آخر ليس الانقسام ظاهرةً خُلُقية, إنما ظاهرةٌ كيانية. وسلام المسيح ليس رسالةً خُلُقيةً, إنما توحيد الإنسان وجوديـاً وإعتاقُه من الفسادِ والموت. ما يعذب الإنسان ويقلقُه إنما هو المـوت. لـذلك يستحيلُ وجود السلامِ الحقيقي من غير تجاوز الموت. هذا هو سلام المـسيح.

---

[271] انظر أفسس 4: 3.

[272] غريغوريوس النيصصي, في التطويبات 7, مجموعة الآباء اليونانية 44, 125.

[273] يوحنا الذهبي الفم, موعظة في الرسالة إلى أهل أفسس 24, مجموعة الآباء اليونانية 62, 174.

[274] "كما يُظهر السلام في كل مكان الكثيرين واحدا هكذا تجعل الفوضى الواحد كثيرين. فكيف يُطبق هذا على الله الواحد البسيط." نيقولا كباسيلاس, في تفسير القداس الإلهي 13, مجموعة الآباء اليونانية 150, 396.

إنه السلام الذي يقدم للإنسان بالصليبِ والقيامة. وبما أن غياب السلامِ يعـود إلى حضور الخطيئةِ لذلك يفترض استرجاعه ابتعاداً عن الخطيئة.

في شخص المسيح يجد المرء السلام مع الآخر. فا المتجسد هو إلـه السلام.[275] ومتى انطلقَ الإنسان من هذا السلامِ فإنه يدعى إلى مسالمةِ الآخرين جميعاً على قدر طاقتِه.[276] كما أن الفرح لا يقوم على الدنيويات هكذا الـسلام أيضا. فالمسيح نفسه يؤكد أن سلامه ليس سلاماً بالمعنى الأرضي. "سـلامي أعطيكم, لا كما يعطيه العالم أعطيكم أنا."[277] سلام العالمِ سلام محدود وهـش. إنه سلام مقيد بالفسادِ والموت. وحفظُه نسبي عرضي إذ يقيد حريةَ الإنـسان. أما سلام المسيح الذي يقدم بدمِ المسيح وبصليبِه فهو مطلقٌ لا يـزول. إنـه لا يتحولُ إلى نظامِ الدهر الشرير. فهـو لـيس سـلاماً خارجيـاً لـلشعوبِ أو للمجتمعاتِ, وليس سلاماً سياسياً أو اجتماعياً مستنداً إلى أشكالٍ عرضية.إنـه السلام الجامع للشركةِ الشخصيةِ غير المقيدةِ بمعطيـاتِ الأمـور المباشـرةِ والفورية, لأنه يتم بتجاوز الموت. وعيشُه في الحياةِ الاجتماعيةِ قادر على أن يقلقَ السلام البشري العرضي. من هذا المنظار لم يأتِ المسيح ليحملَ سـلاماً بل سيفا.[278] سلام المسيح هو الرجاء الأوحد وسطَ خيبةِ الأمل التـي يـذوقُها الإنسان من جراءِ الزيفِ المتلاحق للسلام البشري.

السلام والفرح

يعبر الفرح والسلام عن الوضع الكياني الجديدِ الذي يوجد فيه المـؤمن كإنسانٍ جديدٍ في المسيح وكشريكٍ للخليقةِ الجديدة. لذلك كانت رسالةُ مجـيءِ

---

[275] (1 كورنثس 14: 33)

[276] انظر رومية 12: 18– 19.

[277] (يوحنا 14: 27)

[278] (متى 10: 34)

المسيحِ إلى العالمِ رسالةَ فرحٍ وسلام.[279] خارج المسيح لا يستطيع الإنسان أن يجد وأن يعيشَ الفرح الحقيقي وسلام ا الذي يتجاوز كل عقل. والبحثُ عن الفرحِ والسلامِ بعيداً عن ا حيث يسود التفكك والموتُ هو تعب باطل. وبإبطال الفسادِ والموتِ في المسيح تُخلَقُ مسلماتُ الفرحِ والسلامِ الحقيقيين في حياةِ الإنسان.

منظورهما المعادي

إن للفرحِ والسلامِ عند المسيحي منظوراً معاديا. والعالم الزائلُ ليس المكان الذي يظهران فيه ظهوراً تاما. ففرح المسيح وسلامه يتحققان في ملكوت ا . وكما يظهر ملكوتُ ا في ملئه في الدهر المقبل هكذا يوجد فرح المسيح وسلامه في ملئهما في الدهر المقبل. وكما يبدأ ملكوتُ ا ابتداء من الدهر الحاضر هكذا يذوقُ الإنسان فرح المسيح وسلامه ابتداء من الحياةِ الحاضرة. إنهما يمثلان وضعاً ديناميا, دون أن يغيب عنهما الضيقُ والتناقض, إنهما يتجليان في المسيح. فالضيقُ لا يقضي على الفرحِ والتناقضِ لا يلغي السلام. فالأساس الذي يستندان إليه والهدفُ الذي يتطلعان إليه هو المسيح. والمسيحي يقبلُ الفرح والسلام من ا , لكنه يدعى إلى الفرحِ والسلامِ بصفتِه شريك حياة المسيح.[280]

وجود التناقضات

ولأن السلام والفرح لا ينحصران في الفوريةِ وأوضاعِها, بل قد يوجدان في أوضاعٍ سلبية, فطبيعي أن لا يقدر الاضطراب والضيقُ أن يدمرا سلام المؤمن وفرحه. فيحافظ على سلامِه الداخلي حتى في الاضطراباتِ والقلاقل العظيمة. هذا أمر عسير طبعا. ولكن بالإيمان القوي والموقف النسكي

---

[279] (لوقا 2: 10– 14)

[280] انظر 1 تسالونيكي 5: 16, 2 كورنثس 13: 11.

من العالمِ وشؤونه يحافظُ المسيحي على سلامِه الداخلي. وبموازاةِ ذلك فهو لا يستطيع أن ينحصر في السلامِ الداخلي وأن لا يعملَ في سبيل سلامِ الآخـرين بصفته صانعاً للسلام.[281]

لا تستطيع ضيقاتُ الحياةِ اليومية أن تُلغي فرح المؤمن. وإذا تحملَها المؤمن باسمِ المسيح اكتسب دواعي جديدة للفـرح. والمـسيح نفـسه يهنـئ المضطهدين باسمِه ويحثهم على الابتهـاجِ برجـاءِ ملكـوت ا .[282] يقـول غريغوريوس النيصصي "إن الآم الرب تُثير حلاوةً في النفسِ وتزيـلُ عنهـا الشعور بالحزن الحاضر عبر رجاءِ المستقبلات."[283] ولعـل أحـزان العـالمِ ومصاعبه دواعٍ لفرحِ المسيحيين, إذ تُساهم في كمالِهم. وهذا يفترض حـرارةً خاصةً تجاه ا , ووضعاً يتجاوز الذات ويتخلى عنها حباً با . وبكلامٍ آخرٍ إنه يفترض عشقاً إلهياً فيه يستطيع المرء أن يطرح كل شيءٍ جانباً ليشعر بفـرحِ حضور الرب. يقول الذهبي الفم إذا أحب الرجلُ امرأةً واحدة, "فإنه لا يـشعر بأحزان كل يوم. من أحب حباً إلهياً طاهراً فاعلم أنه سينعم بالغبطة. هذا هـو ملكوتُ ا وهذا هو التنعم بالصالحات, هذا هو السرور, وهذا هـو الحبـور والابتهاج. ومهما تكلمت فلن أقدر أن أثبت قيمةَ الحب, لكن الخبـرةَ وحـدها تعرفُ أن تُعلم ما هو صالح."[284]

اليقين الداخلي

---

[281] (متى 5: 9)

[282] (متى 5: 11)

[283] "القصد الإلهي 33.

[284] الموعظة في رسالة بولس إلى أهل رومية 24, مجموعة الآباء اليونانية 60, 622.

ينبئُ حفظُ الفرحِ والسلامِ في نفسِ المسيحي عن حفظِ علاقتِه وشـركتِه مع ا . أما فقدان الفرحِ والسلامِ فهو برهان سلبي على علاقتِه با .[285] لـيس الفرح والسلام وضعين مكتسبين دفعةً واحدة, إنما هما أسلوبان حياتيان ينموان باستمرار. وبما أن الفرح والسلام وضعان مستمران فهما يوجدان في ملكوتِ ا . أما المؤمن فبصفتِه شريكاً في ملكوتِ ا ومواهبِ الروح القـدس فهـو يشارك في هذين الوضعين المعاديين ويحفظهما على هذا الرجاء.

تجدر الإشارةُ هنا إلى أن السلام ببعدِه الثلاثـي, أي بـسلامِ الإنـسان الداخلي وبسلامِه مـع ا ومـع قريبـه هـو المطلـب الأولُ للاجتماعـات الافخاريستية في الكنيسة الأرثوذكسية. الفرح هو مناخُ العبادةِ فـي الكنيـسة والشركة في قيامةِ الرب يسوع. فمتى يعش المؤمن سلام المسيح وفرحه فـي العالم يشارك مسبقاً في ملكوتِ ا الحاضر منذ الآن في المؤمنين.[286]

---

[285] يقول اسحق السرياني: "إذا لم تكن رغبة عشق المسيح ظافرة فيك بحيث أنك لا تتألم في كل ضيق نتيجة الفرح الذي فيك, فاعلم أن العالم يحيا فيك أكثر من المسيح." نسكيات, الفصل 25.

[286] "عن أي ملكوت في داخلنا تحدث؟ وعلى أي فرح آخر أو علوي حل في نفوسنا بالروح تكلم؟ هذا الفرح هو أشبه بأيقونة الفرح الأبدي وبعربونه وبإشارته الذي ستنعم به نفوس القديسيين في الدهر المنتظر." غريغوريوس النيصصي, القصد الإلهي 28.

14- الإقتداء با أو بالمسيح

موقف أرثوذكسي

بما أن بعض اللاهوتيين الأرثوذكسيين انطلقوا إما من موقـفٍ سـلبي متطرفٍ أو من موقفٍ مناهضٍ للتعليمِ الخُلُقي الغربي, فقد حرموا القولَ بـأن الإنسان يستطيع الإقتداء با . في هذا التصور تواره, إذ كيف يستطيع المـرء أن يتشبه بالإلهِ المتعالي وغير المخلوق في حين أن الإنسان مخلوقٌ ومحدود؟ فما هو الموقفُ الأرثوذكسي من هذه المسألة؟

على الرغمِ من أن الإنسان محدود ومخلوقٌ فإنه قد جبل على صـورةِ ا ومثالِه, وعلى الرغم من أن ا متعالٍ وغير مخلوق فهـو يظهـر قـواه المعبرة عن جوهره اللامخلوق واللامدانى. وكذلك على الرغم من أن الإنسان لا يستطيع أن يعرفَ ا في جوهره فهو قادر على معرفةِ قواه وعلى الإقتداءِ بها. إنه يؤمن با ويقتدي بتدبيره.[287] فا نفسه هو الذي يدعو المـرء إلـى الإقتداءِ به. تُشير الرسالةُ إلى ديوغنيتوس إلى أن ا "أحب البـشر ولأجلهـم خَلَقَ العالم ولهم أخْضع ما على الأرض. آتاهم العقلَ والإدراك, وسـمح لهـم وحدهم أن ينظروا إلى العلى. برأهم على صورتِه, وأرسلَ إليهم الابن الأوحد, ووعدهم بالملكوتِ السماوي وأعطاه لمحبيه. تصور أيةَ غبطةٍ سيتدفقُ بها قلبك لمعرفتِه. ولكم ستُحب من أحبك أولا."[288] متى تأمل المـرء فـي محبـةِ ا وعطاياه ذاق الفرح الحقيقي ومحبةَ ا الذي أحبه أولا. وانطلاقـاً مـن هـذه المحبةِ سيصلُ إلى الإقتداءِ به.[289]

وحدة الخُلُق مع ا

---

[287] انظر نيقولا كباسيلاس, الحياة في المسيح 2, مجموعة الآباء اليونانية 150, 533.

[288] الرسالة إلى ديوغنيتوس 10, 2– 3.

[289] "عندما أحببت صرت مقتديا بصلاحه." المرجع نفسه 8, 4.

يدعى الإنسان المقتدي بالمسيح إلى إنماءِ خُلُقٍ يوافقُ الخُلُـقَ الإلهـي. يقولُ غريغوريوس اللاهوتي: "كن إلهاً للمنكودِ نعمته مقتدياً برحمـةِ ا , لأن الإنسان له خاصيةٌ إلهيةٌ وهي خاصيةُ الصنيع الحسن. وإذا كـان ا يحـسن إحساناً عظيماً, والإنسان يحسن إحساناً ضئيلا, فأظن أن كل واحدٍ يحسن على قدر طاقتِه."[290] ما من شيءٍ يقرب الإنسان من ا وينمي تـشبهه بـه مثـل ممارسة المحبة. بالتعبير عنها تظهر في حياةِ البشر مؤشراتُ القوى الإلهية.

مثلما يحب ا البشر جميعهم بلا استثناءٍ ويشرقُ شمسه على "الأشرار والصالحين"[291] هكذا يعبر المقتدي با عن محبتِه دونما تمييزٍ بين الأشـرار والصالحين ويصلي من أجل الأبرار والظالمين.[292] يبقـى الإنـسان صـغيراً ضعيفاً, أما ا فعظيم وعلى كل شيءٍ قدير. هذا الأمر لا يقللُ من شأن جهـادِ الإنسان, بل يرفع من أهميته. يكفي للمرءِ أن يعي ضعفَه ويحـس بـضرورةِ ارتباطِه الدائمِ با . ليس الإقتداء با تعبيراً خُلُقياً بسيطاً, إنما هو ارتباطٌ جامع للإنسان الذي يسر بمحبةِ ا ويسعى إلى الإقتداءِ بخالقِه وإلهه, حتى لو بتعابير عاجزةٍ, مثلما يحاولُ الولد الإقتداء بأهلِه. إذا لم يشابه إقتداء المؤمن إقتداء الولدِ لا يكون بالنعمةِ الإلهيةِ أهلاً للكرامةِ ولا يثمر ثمراً حقيقيا. بالارتباطِ با يتقبلُ الإنسان نعمةَ ا ويتحلى "بأخلاقِ ا ."[293] وحتى لو لم يكن الإقتداء با ضمن قوى الإنسان الطبيعي, فإنه ممكن بنعمةِ ا .[294] فنعمةُ ا لا تتجلى من خلال

---

[290] غريغوريوس اللاهوتي, الكلمة 14, 26- 27, مجموعة الآباء اليونانية 35, 892- 893.

[291] (متى 5: 45)

[292] انظر أوريجنس, إلى يوحنا 20, 17.

[293] انظر إغناطيوس الأنطاكي, الرسالة إلى أهل مغنيسية 6, 2, إلى بوليكربوس 1, 3.

[294] "لا تعجب من أن بشرا يقوى على التمثل بالله." إلى ديوغنيتوس 10, 4.

الإعلان فحسب. بل من خلال مقدرةِ البشرِ على الاستجابةِ لهذا الإعلان أيضا. "لأن ا هو الذي يعملُ فيكم ليجعلَكم راغبين وعاملين على إرضائه."[295]

الإقتداء با وبالمسيح

في المسيحيةِ يتحققُ الإقتداء با بصفِته إقتـداء بالمـسيح. فالإقتـداء بالمسيح هو إقتداء با , لا لأن المسيح مقتدٍ بالآب فحسب,[296] بل لأنه "صورةُ ا الذي لا يرى"[297] وإله تام واحد مع الآبِ في الجوهر.

والحق, أن الأناجيلَ الأربعةَ لا تتحدثُ عن الإقتداءِ بالمسيح, بـل عـن إتباعِ المسيحِ أو التلمذةِ له. وسبب ذلك يعود إلى قربِ التلاميذِ مكانياً وزمنيـاً من معلمِهم. أما رسائلُ العهدِ الجديدِ فتتحدثُ عن الإقتداءِ بالمسيحِ أكثـر مـن إتباعِه.إننا نفهم ذلك لأن المسيح في الزمن الذي كُتبت فيه الرسائلُ لم يتصرفْ كشخصٍ تاريخي, بل كربٍ المجد. بيد أن إتباع المسيحِ والتلمذةَ لـه يحمـلان معنى الإقتداءِ به ويكتملان به. فإتباع المؤمن للمسيحِ في التاريخِ يعِد دخولَـه إلى مجدِه الأبدي.[298] وتلاميذُ المسيحِ التاريخي هم في الوقـتِ نفـسِه تلاميـذُ الرب الناهضِ من بين الأموات. فمجد الرب مرتبطٌ بـسيرته علـى الأرض. والإقتداء به لا يتضمن سيرتَه على الأرض, بل يفترضها.

لقد تحدثَ الرسلُ وآباء الكنيسةِ وكتابها عن التمثل با تارةً وعن التمثل بالمسيح طوراً مشيرين إلى الشخصِ ذاتِه. فلما تحـدثَ بـولس عـن إقتـداءِ المؤمنين با وضعه في أطرِ التبني بحسب النعمة. والمؤمنون "كأولادٍ أحباء"

[295] (فيليبي 2: 13)

[296] إغناطيوس الأنطاكي, الرسالة إلى أهل فيلادلفيا 7: 2.

[297] (كولوسي 1: 15)

[298] (يوحنا 14: 3)

يدعون إلى التمثل با   الآب.[299] هذا التمثلُ يعبر عنه أساساً كسيرٍ في طريـق النور.[300] وينطبقُ أيضا على التمثل بالمسيح بالإندراج فـي جـسدِ المـسيح أسرارياً, أي في الكنيسة. المسيحيةُ تُعلم, وفق إقليمس الإسكندري, "التـصرفَ بقوةِ التمثل با ."[301] والنيصصي يحـدد المـسيحيةَ بأنهـا "تمثـلٌ بالطبيعـةِ الإلهية."[302] والقديس باسيليوس يقولُ إن شرطَ المسيحيةِ هو التمثـلُ بالمـسيح "وفق مقياسِ التجسد."[303] وأخيراً يعتقد بأن التمثلَ بالمسيح تعبير تلقـائي عـن محبةِ المؤمن له فيقول: "من أحب المسيح تمثل به في كل شيءٍ على حـسب طاقتِه."[304]

إن تجسد كلمةِ ا   الكامل والحق جعلَ إقتداء الإنسان المتغربِ واتحاده به مستطاعين.[305] بمقولةِ التجسدِ دعا الرسولُ بولس المسيحيين إلـى التمثـل بالمسيح, مثلما تمثلَ هو به ووصفهم كمقتدين به وبالمسيح.[306] والمسيح نفـسه دعا تلاميذَه أولاً إلى أن يتعلموا منه وأن يوجهوا حياتَهم في هذا الاتجاه.[307]

---

299 (أفسس 5: 1)

300 (أفسس 5: 8, يوحنا 8: 12)

301 البسط 1, 11, 52.

302 إلى أرمونيون 4, مجموعة الآباء اليونانية 45, 244.

303 القوانين المطولة 43, مجموعة الآباء اليونانية 31, 1028.

304 فصول في المحبة 4, 55, مجموعة الآباء اليونانية 90, 1060.

305 انظر ليوندوس البيزنطي, ضد نسطوريوس وأفتيخيوس 2, مجموعة الآباء اليونانية 86, 1349.

306 (1 كور 1: 1, 1 تسا 1: 6)

307 انظر متى 11: 29, يوحنا 13: 5.

لقد أظهر المسيح الإله الكاملُ والإنسان الكاملُ للبشرِ "خُلُق" ا , وحافظ أمام أبيه على خُلُق الإنسان الكامل. عندنا في شخصِ المسيح ظهور "الخُلُـق" الإلهي من جهةٍ وإبراز الخُلُق الإنساني من جهةٍ أخرى. ولأن للمسيح مشيئتين طبيعيتي—إلهية وإنسانية—ولأن الناسوت خضع للاهوت فقـد أعطـى لكـل مسيحي نموذج الطاعة. هكذا يعرفُ المرء في شخصِ المسيح الخُلُـقَ الـذي يحق . وإلى هذا الخُلُق يدعى الإنسان إلى إنمائه في حياتِه.

أسم المسيحي

يدعى المسيحي بصفتِه شريكاً في اسمِ المسيح إلى تمثل خصائصه, لئلا يحملَ هذا الاسم عن رياءٍ, بل عن استحقاق. في سيرةِ القديس كريـسكندوس (15 نيسان) يجري حوار قصير بين القديسِ وبين حاكمِ المنطقة, فيسألُ الحاكم القديس أن يذكر اسمه ووطنَه فأجاب بأنه مسيحي.[308] ويحللُ النيصصي فـي كتابِه عن "الكمال ومن هو المسيحي" معنى الصفةِ مسيحي فيقـول: "بمـا أن السيد شاركنا في أول الأسماءِ وأعظمِها وأكثرها ألوهة, حتـى أن المـسيحيين تقاسموا اسم المسيح, فكل الأسماءِ التي تُوضح هذه التسميةَ يجب أن تُرى فينا, حتى لا تكون تسميتُنا كاذبة, فنشهد للاسمِ بسيرتنا. الكيان لا يكون بالتسمية, بل بطبيعتِنا. وهو يعرفُ من خلال المعنى المناسبِ للاسم."[309]

حتى يستحق الإنسان الاسم المسيحي عليه أن يغير وجه الناسوتِ الذي يحملُه.فعلى كل مسيحي أن يميتَ فرديتَه حتى تتجلى فيه حياةُ المسيح. وهكـذا يتحققُ التشبه الحقيقي بالمسيح. وهو غايةُ الحياةِ المسيحية. يقول النيصـصي: "إننا نتمثلُ بأعمال المسيح قدر استطاعتِنا, أما ما لا نقوى عليـه فإننـا نُجِلـه

[308] انظر افسافيوس القيصري, تاريخ الكنيسة 5, 1, 20.

[309] مجموعة الآباء اليونانية 46, 256.

ونسجد له. فكل الأسماءِ التي تُفسر اسم المسيح يجب أن تُشرقَ في حياةِ كـل مسيحي, إما بالتمثل به أو بعبادتِه, إذا أراد رجلٌ ا أن يكون كاملا."[310]

التمثل بالمسيح والحياة في المسيح

لا يقتصر التمثلُ بالمسيح بالتمثل بنموذجٍ خُلُقي' إنما يمتد إلـى تمثـل الكيان الجديدِ الذي يكتسبه المؤمن كعضوٍ في الكنيسة. السمةُ المميزةُ للكنيـسةِ هي أنها تُعطي لأعضائها "الكيان من المسيح والتسميةَ منه."[311] يستحيلُ التمثلُ الكاملُ بالمسيح خارج الكنيسة, حيث يولد الإنسان الجديد في المسيح وينمـو به. هذا الإنسان يختلفُ كيانياً عن آدم القديمِ ونسلِه. فذريةُ آدم المائت تلد دائماً نسلاً مائتاً فانياً. أما كلمةُ ا الخالد الذي تجسد ولُد ويلد دائماً أولاداً خالـدين وغير فاسدين في الروح القدس.[312] فتمثلُ أبناءِ كلمةِ ا الخالدِ السرمدي بـه, الذي يفهم في الحياةِ في المسيح, يتم بنعمةِ الروح القدس في الكنيسة.

رفض العالم مسلمة أساسية

مسلمةُ التمثل بالمسيح رفض للعالم. في مصنفِه النسكي يقدم مسكيموس المعترفُ راهباً يسألُ شيخاً ناسكاً عن إمكانيةِ التمثل بالمسيح, فيجيب الناسـك ببساطة: "ما من بشرٍ يقدر أن يتمثلَ بالرب وهو مستعبد للعالم. أمـا الأقويـاء فيقولون: إننا تركنَا كل شيءٍ وتبعناك, وبذلك ينالون قدرةَ التمثل بـه والعمـل

---

[310] في الكمال, مجموعة الآباء اليونانية 46, 256,

[311] "إن بشرا مائتا فانيا ولد ويلد بالمرأة أبناء مائتين فانين. والكلمة الخالد غير الفاني ولد ويلد دائما من العذراء ذلك المولود في الروح القدس." سمعان اللاهوتي الحديث, الأخلاقيات 1, 10, 160. المصادر المسيحية الجزء 122, 262.

[312] انظر نيقولا كباسيلاس, الحياة في المسيح 7, مجموعة الآباء اليونانية 150, 721.

بكل وصاياه."[313] من تسيطر عليه مادةُ العالمِ يعجز عن الإقتداءِ بالمسيح, أمـا من يترك كل شيءٍ في سبيل المسيح يحصلْ على قوةِ التمثل به والمشاركةِ في حياتِه. الحياةُ الجديدةُ التي يقدمها المسيح تكون حيث يرى العالم عادةً الـدمار والتلاشي. لذلك كان إنكار العالمِ مسلمةَ التمثل الحقيقي بالمسيح.

عندما أراد اسحقُ السرياني أن يعطي مقياساً للتحقق من درجةِ التوجـهِ إلى المسيح والتعلق بالعالمِ قال: "متى ترى أن شوقَ المسيح لا يسود حياتَـك, حتى أنك في كل أحزانِك تبقى غير مكترثٍ بالفرح الذي في المسيح, فاعلم أن العالم حي في داخلِك أكثر من المسيح. ومتى ترى أن المرض والفاقةَ أو زوالَ الجسدِ أو الخوفَ مما ينزلُ به الأذى تهز أفكارك وتُبعدك عن فـرح رجائـك بالرب فاعلم أن جسدك هو الذي يحيا فيك وليس المسيح. وببساطةِ القول, ما تتوقُ إليه هو الذي يحيا فيك ويتغلب عليك."[314]

الفكر المتواضع

حتى يحيا المسيح في المؤمن لا بد له من التحرر من الفكـر الـدنيوي الذي يغرب طبيعتَه وإلى إدراكِ ذاتِه الحقيقية وعلاقتِه با والآخرين. فطريقُ الأثرةِ سار عليها آدم القديم فتغرب عن ا وعن نفسِه. أما طريـقُ التواضـع فهي طريقٌ دشنَها آدم الجديد, أي المسيح, فكشفَ عن الإنسان الحقيقي وعـن قيمتِه الحقيقية. بخلافِ آدم القديم الذي تقدم بطابٍ شيطاني بأن يصبح مـساوياً . فالمسيح وهو "في صورةِ ا لم يعد مساواته اختطافاً, بل أخلـى ذاتَـه آخذاً صورةَ العبد."[315]إن إخلاء المسيح لذاتِه رمز لأسلوبِ حياةِ المؤمن فـي

---

[313] "من أراد أن يتبعني فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني, لأن الذي يريد أن يخلص حياته يخسرها, ولكن الذي يخسر حياته في سبيلي يجدها." (متى 16: 24–25)

[314] نسكيات اسحق, المقالة 25.

[315] (فيليبي 2: 6– 7)

العالم. إن لحياةِ المؤمن صفةَ التخلي عن الذات. وفكر الحياةِ المـسيحيةِ هـو الفكر المتواضع. أما التكبر, الذي إبليس أبوه, فهو سبب السقوطِ والابتعادِ عن ا . يشير أثناسيوس الكبير إلى أن الشيطان لم يسقطْ بسبب الزنى أو الـدعارةِ أو السرقةِ, إنما بسببِ الكبرياء.[316] الكبرياء هو من الشيطان, أما التواضع فهو من المسيح. من غيرِ التواضعِ لا يمكنُنا إنماء أيةِ فـضيلة. التواضـع وحـده يلخص فضائلَ كثيرة وينزلُ نعمةَ ا علينا.[317]

نموذج حياتي

تَتميز حياةُ المسيح على الأرضِ بالتواضـعِ وتُخـتَم بـالألمِ والمـوتِ والقيامة. فهي تُربينا على التواضع. حين كان طفلاً لم ينم على سريرٍ, بل على المزودِ في مغارة. ثم نشأ في بيتِ نجارٍ وأمٍ فقيرةٍ, فكان خاضعاً لها ولخطيبها. وكان يسمع ويصغي إلى ما كان غير ضروري له. لكنه كان يطـرح أسـئلتَه فيتعجب الجميع من حكمتِه. وخضع ليوحنا فَقَبِل بذلك سيد الكل المعموديةَ من عبد. لم يقاوم من ثار ضده, ولم يهدد أحداً, بل كان يسمح للقـوةِ الوقتيـةِ أن تُظهر عزمها, فوقَفَ أمام رؤساءِ الكهنةِ وكأنه مدان, فتحملَ الإدانة. ومع أنـه كان قادراً على إظهارِ زيفِ الافتراءاتِ فقد تحملَها صامتاً, فبصقَ عليه العبيد والمزدرون به. وأسلم نفسه للموت, لأقبحِ موتٍ بين البشر. وبعد هذا التواضع

---

[316] في البتولية 5, مجموعة الآباء اليونانية 28, 257.

[317] "التواضع عظيم وقوي, حتى إنه يجذب نعمة الله إلى النفس (الأب دوروثاوس, التعليم 2, مجموعة الآباء اليونانية 88, 1644.) ويوحنا السينائي كتب: "تواضع القلب أنبوب سماوي قادر على رفع النفس من قعر الخطايا إلى السماء." سلم الفضائل 25, مجموعة الآباء اليونانية 88, 1004.

أظهر مجده, فمجد في ذاتِه من شاركه في الخزي.[318] هكذا كانت حياةُ المسيح منهاجاً للتربيةِ الموافقةِ للفضيلةِ وقانوناً للبرِ ونموذجاً لحياةِ المؤمنين.

بدءا من المعموديةِ ينطلقُ تمثلُ المؤمن بالمسيح. فهـي, كمـا يقـولُ الرسولُ, تشبه بموتِ المسيح.[319] والمسيح الذي تألم وقام حقاً يعطي لمن هـم على صورتِه إمكانيةَ الشركةِ في الخلاصِ من خلال التمثـل بمثـالِهم.[320] إن التمثلَ بالآمِ المسيح هو الشرطُ الثابتُ والمؤشر الدائم للحياةِ المسيحية.[321]

الصورة والمجاز

تَحمِلُ آلام المسيح معنى عميقاً في حياةِ المؤمن. لكن يستحيلُ الاشتراك في قيامةِ المسيح وحياتِه بدون الاشتراكِ في آلامه.[322]فما آلام المسيح مجـرد حدثٍ موضوعي يكفي أن يقبلَه المؤمن حتى يخلص, إنما هو حـدثٌ إناسـي أساسي يدعى المؤمن إلى تمثلِه وعيشِه. يتحققُ الإقتداء بالمسيح مـن حيـث الصورةُ بقبول الشهادة. ولما تطلع المسيحيون في القرون الأولـى إلـى هـذا الإقتداءِ أسرعوا بفرحٍ إلى الاستشهاد. لذلك كتب إغناطيوس الأنطاكي الحاملُ

---

[318] باسيليوس الكبير, الموعظة 20, 6, مجموعة الآباء اليونانية 31, 536.

[319] (رومية 6: 3– 5)

[320] "إننا نفعل الأمور على صورة المسيح, لأننا أيقوناته." كيرلس الأورشليمي, التعليم الديني, 3, 1, مجموعة الآباء اليونانية 33, 1088.

[321] "فعل المعمودية إقتداء بشهادة المسيح في عهد بيلاطس والثبات فيها حتى الصلب والموت. فالإقتداء مستطاع من خلال الرموز والأشكال المقدسة, عند أولئك الذين أعلنوا إيمانهم بهذه الأمور رغم الأخطار. وذلك عندما دعاهم الوقت إلى ذلك." نيقولا كباسيلاس, الحياة في المسيح 2, مجموعة الآباء اليونانية 150, 557.

[322] "إن لم نؤثر, بملء حريتنا أن نموت معه, فحياته ليست فينا." إغناطيوس الأنطاكي, إلى أهل مغنيسية 5, 2. انظر كذلك نيقولاوس كباسيلاس, تفسير القداس الإلهي 4, مجموعة الآباء اليونانية 150, 380.

الإله إلى مسيحي روما الذين حاولوا أن ينقذوه من الاستشهادِ الوشيكِ قـائلا: "اسمحوا لي أن أكون مقتدياً بالآمِ إلهي."[323] وبعد أن توقفَ الاضطهاد سـعى المسيحيون وخاصةً الرهبان إلى التشبهِ بالآمِ المسيح تشبهاً مجازياً من خـلال حياتِهم اليومية. يشير القديس أثناسيوس الكبير إلى أن توقفَ الاضـطهادِ لـم يسمح لأنطونيوس ان يرضي شوقَه إلى الاستشهادِ في سبيل المسيح فعاد إلـى الصحراءِ "ليقدم في كل يومٍ شهادةَ الضمير."[324] وعندما رجا أحد الرهبان من الأب باخوميوس أن يصلي من أجلِه ليستحقَ أن يكون شهيداً فقال لـه: "أيهـا الأخُ, احتملْ جهاد الراهبِ بشجاعةٍ وطهارة, وابذُلْ الوسع في أن تكون حياتُك مرضيةً أمام الرب, فتكون في شركةِ القديسين في السماوات."[325]

إننا لا نستطيع أن ننظر إلى أيةِ مرحلةٍ من مراحل حياةِ المـؤمنين أو شكلٍ من أشكالِها على نحوٍ مستقلٍ عن صليبِ المسيح وآلامِه. فالمعموديةُ التي يشارك فيها المؤمن آلام المسيح هي مؤشر لحياتِه الجديدة. لعيشِ هذه الحيـاةِ يتَسلح المؤمن بسر مسحةِ الميرون ويتقوى بالاشتراكِ المتواصـل فـي سـر الشكر الإلهي.[326] هكذا تُعطي أسرار الكنيسةِ للمؤمن نعمةَ ا وشـركةً فـي الحياةِ الإلهيةِ وتجعلُه متشبهاً به, "حتى تتكون فيه صورةُ المسيح."[327]

ولادة المسيح الروحية

---

[323] إلى أهل رومية 6: 3.

[324] سيرة القديس أنطونيوس 47, مجموعة الآباء اليونانية 26, 912.

[325] De Sanctis Pachomio et Theodore Paralipomena, Chapter 8, Halkin 132.

[326] "المعمودية ولادة, والميرون له مكان القوة والحركة فينا, أما خبز الحياة وكأس سر الشكر فهما مأكل حق ومشرب حق."

نيقولا كباسيلاس, الحياة في المسيح 2, مجموعة الآباء اليونانية 150. 521.

[327] (غلاطية 4: 19)

حتى تتكون صورةُ المسيح في المؤمن يجب قبلَ كل شـيءٍ أن يولـد المسيح فيه. هذه هي الولادةُ الروحيةُ والصوفيةُ التي هي إعادةٌ لولادتِه التـي حدثت مرةً واحدةً وإلى الأبدِ في نطاق حيـاةِ المـؤمنين الشخـصية. يقـول مكسيموس المعترف: "إن كلمةَ ا الذي وِلد مرةً واحدةً وإلى الأبدِ في الجـسدِ يرغب دائماً في أن يولد بالروح حباً بالبشر في أولئك الراغبين فيها, وفي أن يصبح طفلاً فيهم فيتجلى في الفضائل."[328] وهنا يأخذُ المـؤمن. كمـا يقـول أوريجنس. مكانةَ مريم العذراء.[329] فا يلد المؤمن ولادةً مستمرةً حتى "يصبح إنساناً كاملاً, له قامة المسيح في ملئها."[330] وبكلامٍ آخر, لا تتم ولادةُ الإنـسان في الحياةِ الإلهيةِ مرةً واحدةً فقط, إنما تتكرر دائماً طوال حياتِه كلها.[331] أمـا تكون صورةِ ا في الإنسان فلا تدل إلا على تغيير صـورتِه بنعمـةِ ا .[332] وهكذا يشابه الإنسان ا فيصبح إلهاً بالنعمة. "الإنسان يـصبح إلهـاً, لأن ا هكذا شاء... فا في الإنسان والإنسان هو ا ."[333]

أبعاد كنسية

وأخيراً يجد التشبه بالمسيح أبعاده الحقيقيةَ ويصلُ إلى ملئه الجامع فـي سر الشكر الإلهي. فيه يقتدي المؤمن بالمسيح ويحيا ويتحرك في كل وجـودِه

---

[328] فصول مختلفة 1, 8, مجموعة الآباء اليونانية 90, 1181.

[329] انظر الموعظة في نشيد الأنشاد 2, 6.

[330] (أفسس 4: 13)

[331] "إنني لا أقول بأن الله يلد الإنسان الصديق مرة واحدة فقط, بل يلده دائما في كل عمل صالح." أوريجنس, الموعظة 9, في تفسير إرميه 4.

[332] سمعان اللاهوتي الحديث, الخلقيات 9, 246.

[333] إقليمس الإسكندري, المربي 3, 1, 1-2.

في الإطار الليتورجي. هكذا يتجلى التشبه بالمسيح كمـشاركةٍ فـي حيـاةِ ا المثاثِ الأقانيم. لذلك تأخذُ كل الأمور في سر الشكر الإلهي معنـى رمزيـا. الأسقفُ هو "صورةُ ا ," والشيوخُ هم "صورةٌ لمجمع الرسـل," والشمامـسةُ "خدمةُ يسوع المسيح."[334] ووفقاً لترنيمةِ الشاروبيم يمثـلُ المؤمنـون طغمـةَ الشاروبيم الملائكية. وهكذا يأخذُ التشبه بالمسيح بعداً كنسيا. فيندرج المـؤمن عضوياً في جسدِ الكنيسةِ وينمو كعضوٍ لا ينفصلُ عنه.

استنتاجات

لا يتم التشبه بالمسيح في التقليدِ الأرثوذكسي بمجردِ التشبهِ الخـارجي بحياتِه الأرضية, إنما بالعلاقةِ الروحيةِ العميقةِ به والمشاركةِ بحياتِـه اللـذين يتمان في الكنيسة. فالإقتداء بالمسيح يتم من خلال كمال المؤمن واندراجِه فـي الكنيسةِ وليتورجيتها. في الكنيسةِ يقتني المؤمن خُلُقاً إلهيا. فالتمثـلُ بالمـسيح الذي يبدأ في المعموديةِ وينمو في الجهادِ الروحي والانتصار علـى الخطيئـةِ يكتسب محتوى كنسياً ومعاديا. المؤمنون لا يتشبهون بالمسيح كشخصٍ تاريخي فحسب, بل كربٍ ممجدٍ صعِد إلى السماواتِ, واستوى عـن يمـين ا أبيـه. بالتشبهِ بالمسيح ينمو عند المؤمن الشعور بقوتِه وضعفِه في آنٍ واحـد. فهـو يشعر بالقوةِ التي يمنحها المسيح بهبةِ أسراره, وبالضعفِ القائمِ فـي طبيعتِـه المخلوقةِ والساقطة. الكمالُ الذي يصبو إليه المؤمن يتطلب اهتماماً يدوم الحياةَ كلها. "هذا هو الكمالُ حقاً. إنه لا يتوقفُ في النمو في أعظمِ الأمور صـلاحاً, ولا تحده أيةُ نهاية."[335] بالتشبهِ بالمسيح وبالشعور بالمسافةِ التي تفـصلُه عنـه ُينمي المؤمن الفضيلةَ ويتقدم في الحياةِ في المسيح. فيشعر من جهـةٍ بـسمو دعوتِه وباتضاعِه من جهةٍ أخر ى. "كلما اقترب القديسون من ا , رأوا أنفسهم

[334] إغناطيوس الأنطاكي, إلى أهل مغنيسية 6.

[335] غريغوريوس النيصصي, في الكمال 8, 1, مجموعة الآباء اليونانية 46, 285.

خطاة."[336] لذلك يتواضع قديسو الكنيسةِ ومؤمنوها تواضعاً لا حد له أمـام ا
وينسبون كل شيءٍ إلى نعمتِه وقدرتِه.

[336] الأب دوروثاوس, التعليم 2, 6, مجموعة الآباء اليونانية 88, 1645.

15 - الإقتداء بالقديسين

خلق القديسين

تَتِم شركةُ المؤمنين مع المسيح في الكنيسةِ بشفاعةِ القديسين. فعندما وجه بولس الرسولُ كلامه إلى مسيحي عصره قال: "اقتدوا بي مثلما أقتدي أنا بالمسيح."[337] ليس القديسون أبطالًا, إنما هم عبيد متواضعون. إنهم أعضاء في جسدِ المسيح, لا يبرزون فرديتَهم, إنما يلاشونَها حتى تظهر نعمةُ ا . إنهم يتحركون في نطاقِ حضورِهم الفردي ويقدمونه كنطاقٍ لظهورِ المسيح. فخُلُقُ القديسين هو خُلُقُ المسيح, وخُلُقُ جسدِه غيرِ المنفصل الذي هو الكنيسة. هكذا يكون الرجوع إلى فضيلةِ القديسين رجوعاً إلى فضيلةِ المسيح. متى وجدنا عند أحدِ القديسين الحكمةَ, وعند الآخرِ البر, وعند غيره القداسةَ, وعند الآخر الوداعةَ, فإننا نجد المسيح بخاصيةِ أعضاءِ جسدِه وتآلفه.[338] لذاك تحتلُ ذكرى القديسين مكانةً مهمةً في حياةِ كنيستِنا.

تكريم القديسين

يقولُ القديس باسيليوس الكبير: "إن الكنيسةَ تحث الأحياء على تكريمِ الذين سبقوهم في الفضيلةِ."[339] وفي تكريمِ الكنيسةِ قديسيها وتزيين كل أيامِ السنةِ بذكراهم يقاد كل أعضائهما إلى طريق الفضيلةِ والقداسة.[340] ولأن فضيلةَ القديسين تبدأ بالتواضعِ والتوبةِ فالمؤمن الذي شعر بعجزه عن التمثل

---

337 (1 كورنثس 11: 1)

338 انظر يوحنا كاسيان, شرائع الحياة المشتركة 5, 4, 3 .

339 في القدس ماما 2, مجموعة الآباء اليونانية 31, 592 .

340 "مديح الشهداء حث للحاضرين على الفضيلة." باسيليوس الكبير, في الأربعين شهيدا 2, مجموعة الآباء اليونانية 31, 592.

بهم في عظائمِهم وسموهِم قادر على التمثل بهم على الأقـل فـي تواضـعِهم وتوبِتهم.[341]

معنى التشبه بالقديسين

في حياةِ القديسين تظهر سماتُ الإنسان الجديدِ في المسيح وكأنها واقـع اختباري. فهم كأعضاء في جسدِ المسيح يجعلون حـضور المـسيح مـدانى ومختبراً في التاريخ ويظهرون صفةَ الإنسان الجديدِ في المسيح. ليس للتمثـل بالقديسين معنى استنساخ بعض النماذج الفردية, إنما معنى تقديم الذاتِ وحفـظِ المؤمن في جسدِ المسيح الواحدِ غير المنقسم. فحياةُ القديـسين تُقـدم الآفـاقَ اللامحدودةَ لحريةِ الخُلُق المسيحي. وهذا الخُلُقُ لا يتقنن في أشكالٍ وقـوانين, إنما يتجلى في حريةِ الخُلُق الشخصي, غير أن الخُلُـقَ الشخـصي الحقيقـي يفترض تشبهاً ومحاكاة. إذاً كان الشعور بضرورةِ التشبهِ والمحاكاة فرضـيةً للخُلُق الشخصي الحقيقي.

إن تأكيد الحريةِ مهم للإنسان المعاصر القلـق الثـائر. فالاضـطراب الداخلي والشك يخلقان في عصرِنا وضعاً خاصاً يتطلب أسساً حقيقيةً ومواجهةً مسؤولة. اليوم يحيا الإنسان مشكلةَ حريتِه, فهو يفتشُ عنهـا بإلحـاحٍ, لكـن طريق وجودِها شائك. لذلك كانت العودةُ إلى القديـسين مهمـةً جـدا. فهـم كمشاركين وأعضاء في جسدِ المسيح يظهرون بمواهِبهم المسيح غير المرئـي

[341] ينهي غريغوريوس بالاماس عظته في ذكرى الرسولين بطرس وبولس قائلا: "ونحن نتأمل في نهاية حياتهما علينا أن نتمثل بتصرفهما وعلى الأقل بنظام حياتهما القائم على التواضع والتوبة. فالفضائل الأخرى عظيمة سامية ولا تناسب إلا العظام, وربما عجز المرء عن أن يحتذي ببعض منها . لكن نظام التوبة يناسبنا أكثر منهم, لأننا نسقط في كل يوم, ولا رجاء لخلاصنا إن لم نكتسب التوبة الدائمة." مجموعة الآباء اليونانية 151, 361.

حسيا.[342] إن التشبه بالقديسين تشبه بالمسيح, وتلاحم مع جسدِه. إذا عاد المؤمن إلى القديسين واقتفى آثارهم تآلفَ مع خُلُقِهم واكتسب "خُلُقَ المسيح نفسه."

سير القديسين

يظهر إيمان القديسين وفضيلتُهم في سِيَرِهِم المتجسدةِ في خدمِهم الطقسية. وهذه السِير تشغلُ مكاناً مهماً في الكنيسةِ الأرثوذكسية. كل إهمالٍ لها يثير فينا تساؤلاتٍ عديدة. صحيح أن الإنسان المعاصر يجد صعوبةً في قبول ما هو غريب فيها وعجائبي. إنها تحوي مواداً تُثير عادةً ردةَ الفعل عند الإنسان المعاصر الذي يتمركز حول ذاتِه.لكنها تُقدم أيضا الأسلوب الصحيح للموقفِ الأساسي من الحياةِ التي يحتاج إليها الإنسان المعاصر المتغرب.

سير القديسين والأيقنة

تشابه سِيَر القديسين الأيقوناتِ الأرثوذكسية, لأنهم هم أنفسهم "أيقوناتٌ للسلوكِ وفق مشيئةِ ا , ولذاك نضعها أمامنا للقيامِ بالأعمال الصالحة."[343] كما أن الأيقوناتِ لا تصفُ مواضيعها وصفاً, إنما تُعبر عنها, هكذا فإن سير القديسين لا تؤرخُ الأحداثَ فحسب, إنما تُعبر عنها وتُفسرها. ليس هدفُها عرض الأحداثِ التاريخية, إنما الاقتراب من الحق الكامن وراءها. وكما أن القديسين يقدمون في الأيقوناتِ الأرثوذكسيةِ وكأنهم خارج العالمِ والمادةِ, إذ يوضعون في نموذجٍ عامٍ يوحي بالتقوى ويعبر عن الشكل المعادي للتأله, هكذا يؤكد في سير القديسين تاريخُهم على نحوٍ بياني من خلال تأكيدِ الشيءِ المعجِز وإعلاءِ حضور ا في حياتِهم وكأنه رمز الإنسان الجديدِ في المسيح. إن الأيقوناتِ تهدفُ, كما تهدفُ سير القديسين, إلى إعطاءِ معنى الخليقةِ الجديدةِ

---

[342] مكسيموس المعترف, فصول مختلفة 1, 8. مجموعة الآباء اليونانية 90, 1181.

[343] باسيليوس الكبير, الرسالة 1, 3. مجموعة الآباء اليونانية 32, 228.

الموجودةِ وراء الأمور الفانيةِ والزائلة. ما تُعبـر عنـه الأيقونـاتُ بـالألوان والأشكال تُعبر عنه كذلك سير القديسين بالألفاظِ والحروف.

الغاية

ولأن غايةَ سيرِ القديسين تقديم الإنسان الجديدِ في المسيح. فهي لا تهتم اهتماماً خاصاً بدقةِ الأحداث. إنها لا تهتم بحقيقةِ الوعي الفردي, إنما بـإبراز وحدةِ العناصر التي كانت مفككة, وذلك في جسدِ الكنيسةِ الواحدِ غير المنقسم. إنها سير أعضاءِ الكنيسةِ التي هي جسد المسيح نفسه. هذا الجسد يقدم لنا تنوعاً خاصاً, فمنهم قديسون يحملون أسماء معينة, وآخرون مجهولو الاسمِ وشـهداء وأبرار ومنافحون وغيرهم. فالجهاد والتعب والسهر والألم والاستشهاد أنمـاطٌ تتناولُ الألم الذي يحياه المرء ويعلم به في كل يومٍ في محيطِه الواسع. هكـذا تساعده نعمةُ المسيح على تغيير وجهِ الحياةِ في جسدِه الواحدِ أي في الكنيسة.

شركة القديسين

متى تأملَ الإنسان المعنى الكنسي العميق لحضور القديسين فهـم أنـه بدون الشركةِ معهم لا يستحيلُ التشبيه بالمسيح فقط, بل الحفاظُ الصادقُ علـى عقائدِ الكنيسةِ أيضا. فعقائد الكنيسةِ التي عاشها القديسون وسلموها إلى غيرهم يحفظها المؤمن من خلال شركتِه معهم والتشبهِ بحياتِهم في الكنيسة. بـالعودةِ إلى القديسين وبتذكر حياتِهم تتم الشركةُ مع المسيح. من المميز أن آباء الكنيسة يرجعون كثيرا أعمالَ المؤمنين إلى قديسي الكتابِ المقـدس أو إلـى المـسيح نفسِه, لكنهم يرجعون أعمالَ الكفرةِ إلى الأشـرار أو إلـى الـشيطان نفـسِه. فيشيرون بذلك إلى إمكانيتين وهما:

-الارتباط بالمسيح وبقديسيه, وهذا يتطلب مقتاً للشيطان.

-الارتباط بالشيطان وأعوانه, وهذا يتطلب مقتاً للمسيح وللقديسين.

من أجل اسمِ ا يحيا القديسون في العالمِ ويخضعون مشيئتَهم لمشيئته. لذلك يستحيلُ تقديم حياتِهم بدون الرجوعِ المباشر إلى ا . فترجمةُ حياةِ القديسين و تقديمها من خلال صورٍ تُعبر عما هو أزلي أو مفارقٌ لا يزيفان حقيقتَهم, إنما يضعانهم في أبعادِهم الحقيقية, فيكشفان حقيقةَ الإنسان وحياتَه. بهذه الطريقةِ يفهم المرء السبب العميقَ الذي وضع الأيقوناتِ الأرثوذكسيةَ في الواجهة. وتحت هذا التأثيرِ اعترف المرء بأهميةِ الأيقوناتِ فانجذب إليها وحاولَ أن يدنو منها. وهذا السبب نفسه يدفعه إلى الاقترابِ من سيرِ القديسين. فالعناصر الأساسيةُ الموجودةُ في الأيقوناتِ توجد كذلك في سيرِ القديسين. وما يجعلُ الأيقوناتِ معاصرةً هو نفسه يجعلُ سير القديسين معاصرةً أيضا. والمفرح أن هذه النصوص بدأت تجذب اهتمام المؤمنين. ولنقل الفائدةِ والبناءِ الروحي يجب أن توضع سير القديسين في مكانٍ مناسبٍ لها. فهي تتطلب استعداداً مناسباً وكذلك مشاعر روحية مناسبة لاستقصائها استقصاء صحيحا.

16-شركة الروح القدس

الحياة الجديدة

يفترض دخولُ الإنسان إلى ملكوت ا , الذي أظهره المسيح في العالم, ولادةً جديدة. هذه الولادةُ تتم بنعمةِ الروحِ القدس وتُمنَح بسر المعمودية. "مـا من أحدٍ يمكنه أن يدخلَ ملكوتَ ا إلا إذا ولد من الماءِ والروح."[344]

بالمعموديةِ التي هي تشبه بموتِ المسيحِ يموتُ الإنسان عـن الخطيئـةِ ويدخلُ حياةَ الروحِ القدس. هذه الحياةُ الجديدةُ تختلفُ تماماً عن الحياةِ الفاسدة. فالحياةُ العالميةُ تتجه إلى الموتِ, أما حياةُ النعمةِ فيعبر عنهـا كحيـاةِ حريـةٍ منتصرةٍ على الموت. لذلك كانت المعموديةُ التي يولد بها الإنسان فـي هـذه الحياةِ الجديدةِ هي بدء حياتِه الحقيقية. يقولُ باسيليوس الكبير: "المعموديةُ بـدء حياتي, ويوم ولادتي الثانية أول أيامي."[345] من السماتِ الأساسيةِ لهذه الحيـاةِ الجديدةِ هي الحريةُ التي يدخلُها حضور الروح القدس, "فحيـث يكـون روح الربِ, تكون الحرية."[346]

عمل الروح القدس

يجعلُ الروح القدس التجديد في المسيح ممكنا. وبنعمتِه يصير المـؤمن شريك موهبةِ المسيح وشريك قيامتِه. إن التشارك مع المسيح يكون محالاً بدون الروح القدس.[347] فالروح هو الذي يجعلُ المسيح حاضراً في العالم. وحضور

---

[344] (يوحنا 3: 5)

[345] في الروح القدس 10, 26, مجموعة الآباء اليونانية 32, 113.

[346] (2 كورنثس 3: 17)

[347] إيريناوس أسقف ليون, مقاومة النحل 3, 24, 1, و 1, 4, 1, مجموعة الآباء اليونانية 7, 966, 855.

المسيح في العالمِ يتجلى بقوةِ الروحِ القدس. [348] بشركةِ الروحِ القدسِ الواهـبِ نعم المسيح يصبح الإنسان شريكاً المثلث الأقانيم.[349]

الكره والرضى

تبدو الحياةُ الإلهيةُ وحياةُ العالم, وكذلك حياةُ الحسِ وحياةُ الروح, وحياةُ الكرهِ والرضى وكأنها قوى تتصارع. فما يسود الإنسان المتغرب عن ا حياةٌ ملؤها الحس الجسدي والكره. "لأني أعلم أن الصلاح لا يسكن فـي, أي فـي جسدي. فإرادةُ الخير هي بإمكاني, وأما عملُ الخير فلا. فالخير الذي أريده لا أعمله, والشر الذي لا أريده أعمله."[350] بنعمةِ الروحِ القدس وحـدها يـصبح الإنسان شريك الحياةِ الجديدةِ ومتقدما فيها. الروح القدس يحرر الإنسان مـن قسريةِ المكان والزمان, ويضعه في نطاقِ الحرية. وبكلامٍ آخر, الروح يغيـر وجه الحياةِ اليومية فيمسي مكانُها نطاقاً لحضور ا وزمانُها إمكاناً للمـشاركةِ في نعمةِ ا في المسيح.

تُقدم نعمةُ الروحِ القدس قوةَ التحرر من قسريةِ العالمِ الـساقطِ وتُـدخلُ البشر في حريةِ شركةِ ا . فالرب هو محرر البـشر, وروحـه روح حريـةٍ ورضى. من يتقبلْ نعمةَ الروح القدس لا يستعبده أسلوب معين للحيـاة, بـل يدخلُ في دائرةِ حريةِ ا . فاختلافُ المسيحي عن الآخرين ليس فـي نوعيتـه الخُلُقيةِ أو في خاصيته في العالمِ كإنسانٍ أسمى من الآخرين خلقيا, بل في كونه إنساناً مولوداً ولادةً ثانية, يحيا في معطياتٍ إناسيةٍ جديدةٍ تنتمي إلى "الخليقـة الجديدة."[351] التجديد الخُلُقي يجيء كمطلبٍ للتجديدِ الكياني. وعلى قدر ما يكون

---

[348] "الرب هو روح." (2 كور 3: 17)

[349] "عندما أتحدث عن المسيح, فإنني أتحدث عن الآب والروح القدس أيضا." يوحنا الذهبي الفم, التعليم الديني 4, 4.

[350] (رومية 7: 18– 19)

[351] (2 كورنثس 5: 17, غلاطية 6: 15)

عيشُ هذا التجديدِ الكياني قوياً, يكون التعبير عنه واضحاً في نطـاقِ الحيـاةِ الخلقية.

الشعور بالإيثار

هنا يطرح السؤالُ التالي: إذا كانت المعموديةُ محررةً للإنسان فلمـاذا لا يشعر منذ البدءِ بالحرية؟ الجواب عن هذا السؤال, كمـا وضـعه مـرقص الناسك, هو: "إن الإنسان يتحرر وفق موهبةِ المسيح ووفـق مـشيئتِه أيـضا, فحيثما يحب يمكثُ, وإن نال المعموديةَ إيثـارا."[352] ولأن الإنـسان مـستحقٌ لموهبةِ المسيح لذلك يبقى حراً ومحافظاً على شركتِه مع ا . ولكن متى توقف عن الحفاظِ على هذه الشركةِ, صار عاجزاً عن أن يضع رجـاءه حتـى فـي محافظةٍ سحريةٍ على حريته. فالإيثار في المسيح يستند إلى إرادةِ البشر الحرة.

الميزة المعادية

إن لشركةِ المؤمن مع ا ميزةً معادية. فمع أنها تتم في عالمٍ زائلٍ فانٍ فهي تنتمي إلى دائرةِ الخلودِ واللافناء. بالمعموديةِ يخرج الإنسان مـن العـالمِ الحاضر ويدخلُ في ملكوتِ ا . وموهبةُ الروحِ القدس تُعطَى للمؤمن في الحياةِ الحاضرةِ كعربونٍ لمشاركتِه في الحياةِ المستقبلة. هكذا حتى ولو كان المـؤمن في العالمِ الحاضر فإنه يصبح شريك حياةِ ملكوت ا ومواطن الخليقةِ الجديدة. لكن بما أنه يحيا في العالمِ الحاضر ويتأثر به فعليه أن تكون حياتُه خروجاً من العالم ومسرى إلى ا . فروح العالمِ التي يتخلى عنها المؤمن باتحـادِه بجـسدِ المسيح يجب ألا تحرك رغبتَه فيما بعد. "أيها الإنسان, إنك خرجتَ من مصر, فلا تطلب فيما بعد مصر وشرورها. ولا تذكر الطين والوحل. فالطين والوحلُ هما شؤون الحياةِ الحاضرة."[353] بنعمةِ الروحِ ينفتح أمام الإنسان بعد جديد. إنه

---

[352] في المعمودية, مجموعة الآباء اليونانية 65, 985.

[353] يوحنا الذهبي الفم, التعليم الديني 3, 23.

بعد الأبديةِ الذي يجعل كمالُه ممكنا. الكمالُ هو التقدم المستمر في حياةِ النعمة. وهو التحرر من ربطِ الفسادِ والموتِ والامتداد إلى نطاقِ حريةِ الروح القدس. من يتبع طريقَ الكمال يمتْ أحاسيس الإنسان القديمِ الذي تُفـسده "الـشهواتُ الخادعة,"[354] ويكتسب أحاسيس "الإنسان الجديد" الذي يحيا في شركةٍ مـستمرةٍ مع ا ويشارك في خلودِ الروح.

خبرة المعاد

ليست الشركةُ مع ا التامةُ بنعمةِ الروح القدس شأناً من شؤون الحيـاةِ المستقبلةِ فحسب, بل هي شأن من شؤون الحياةِ الحاضرة. فالفكرةُ القائلةُ بـأن المؤمن قادر في الحياةِ الحاضرةِ على أن يحافظَ على نعمةِ الـروح محافظـةً غير واعيةٍ هي على حد قول سمعان اللاهوتي الحديثِ فكرة مشينة حمقاء. فإذا كانت مواهب الروح القدس "تعملُ فينا من غير أن نعيهـا أو نُـدركها, فمـن الواضح أننا لن نحصلَ على الشعور بالحياةِ الأبديةِ وما يلازمها ولن تـستقر فينا, ونحن لن نرى نور الروح القدس لكننا سنبقى أمواتاً عميـاً ومـن غيـر إدراكٍ أو إحساسٍ في ذلك الوقت كما هي الحال الآن. وهكذا يبقـى رجاؤنـا باطلاً وطريقُنا فارغةً, لأننا لن تتولانا حاسةُ الحياةِ الأبديةِ حتى لو حان وقـتُ رقدةِ الموت."[355]

المثال الشركوي للمسيحية

تتكون الشركةُ الحقيقيةُ عند المخلوقين على صورةِ ا وفقَ أيقونـةِ ا الواحدِ المثلثِ الأقانيم غير المنفصلة. لكن تكون هذه الشركةُ البشريةُ فيتم فقط كثمرٍ لنعمةِ ا . فالمشاركةُ في نعمةِ ا اللامخلوقةِ توحد البشر وتغير وجـه شركتِهم فتجعلها على صورةِ الثالوثِ الأقدس. هنا يكمـن المثـالُ الـشركوي

[354] (أفسس 4: 22)

[355] سمعان اللاهوتي الحديث, الخلقيات 10, 508, 516.

للمسيحية. إن لم يرجع المثالُ الشركوي إلى صورةِ ا المثلثِ الأقانيم فيتعـذر علينا أن نصفَه بأنه مثالٌ مسيحي. بكلامٍ آخر, إن أسـاس الحيـاةِ الـشركويةِ والاجتماعيةِ يقوم في التعليمِ المسيحي على الشخص وليس علـى الموضـوع الجامد.

الخليقة الجديدة

لا ترتكز الحياةُ الجديدةُ في المسيح على علاقـاتِ البـشرِ الشخـصيةِ والشركوية فحسب, إنما تمتد إلى العالمِ كله. وهكذا يهللُ المنشد فـي الكنيـسةِ قائلاً بأن نور القيامةِ لا يشع إلى كل البشر فحسب, بل إلى الخليقةِ كلها أيضا: "الآن امتلأت كل الأشياءِ نوراً, السماء والأرض والعالم السفلي, فلتعيد الخليقةُ كلها لقيامةِ المسيح التي بها تتشدد."[356] لا يواجه المسيحي الآخـر فقـط, بـل يواجه الخليقةَ كلها وسطَ نور القيامة. وفي إطار تغيير وجهِ الخليقـةِ يكتـسب تجديد علاقاتِ البشر الاجتماعيةِ والشخصيةِ معنى حقيقيا.

الكنيسة

هذه الحياةُ الجديدةُ التي أظهرها ا في المسيح للعالمِ تُقدم علـى نحـوٍ مستمرٍ في الكنيسةِ بنعمةِ الروحِ القدس. بدون هذه النعمةِ يعجز المرء عن أن يثبتَ في المسيح وأن يحفظَ كلمةَ ا , أي يعجز عن عيشِ الحيـاةِ المـسيحية. فكلمةُ ا تُطبقُ من خلال مسلماتِ الحياةِ الجديدةِ التي تُمنَح في الكنيسة. قـدر ما يكون الإنسان عبداً للفسادِ والموتِ قدر ما يعجز عن قبول كلمةِ ا وعـن تحقيقِها في حياتِه. الحياةُ بحسب المسيح لا تُعاشُ بالمحافظـةِ الـشكليةِ علـى القوانين الخُلُقيةِ لتعليمِ الكنيسة, إنما بالتجديدِ الخُلُقي الذي يـتم بنعمـةِ الـروح القدس.

---

[356] يوحنا الدمشقي, قانون عيد الفصح, ترنيمة الأودية الثالثة.

ينحو الإنسان البعيد عن ا   إلى الانقسام والتصدع. وهـذا مـا يـسود أعضاء الكنيسة عندما تضعف عندهم الحياة الروحيـة. لـذلك ينبغـي علـى المؤمنين أن يجتهدوا دائما في المحافظة على "وحدة الروح برباط السلام."[357] بدون اجتهاد المؤمنين المتواصل يستحيل الحفاظ على الوحـدة التـي يـدخلها الروح القدس.

النعمة اللامخلوقة

إن نعمةَ الروحِ القدسِ لا تُقدم إلى أعضاءِ الكنيسة كهبةٍ مخلوقـةٍ, بـل كشركةٍ شخصيةٍ لامخلوقة. وهذا يعني أن المحافظةَ على نعمةِ الروحِ القدسِ لا تحملُ معنى امتلاكِ قيمةٍ موضوعية. فنحن نحفظُ نعمةَ ا   على مقدارِ ما نحفظُ الشركةَ مع ا . المؤمن هو شريك نعمةِ الروحِ القدسِ اللامخلوقة, وليس مجرد متقبلٍ منفعلٍ لمواهِبه المخلوقة. ومتى شارك المؤمن في نعمةِ ا   اللامخلوقـة وعاش كعضوٍ في الكنيسةِ حافظَ على العلاقةِ الشخصيةِ مع الآخر ومـع ا . وطبيعي أن يعبر المؤمن عن هذا الحدثِ في حياتِه اليومية. وعلى مقدارِ مـا ُيعبر عنه في حياتِه هذه فإنه يؤكد حقيقةَ هذه العلاقةِ وأصالتَها.

الطهارة الخلقية

والحق أن الروح القدس حاضر في كل مكانٍ وقريب من كل شـخص. أما الخاضع للخطيئةِ فيبتعد ابتعاداً مدارياً عن روح ا . "الخاطئُ يصبح بعيداً عن ا , لا من حيث المكان, بل من حيث الموضع."[358] ولا بد من المحافظـةِ على الطهارةِ الخُلُقيةِ حتى تظهر قوةُ الروحِ فينا. لذلك قال باسيليوس الكبيـر: "الروح حاضر في كل البشر, لكنه يظهر قدرتَه في أولئك الذين طهروا أنفسهم من الأهواء. أما الذين قد اضطربت أنفسهم بدنسِ الخطيئةِ فلن تظهر فيهم هذه

---

[357] (أفسس 4: 3)

[358] القديس فوتيوس الكبير, الأمفيلوخيا 170, مجموعة الآباء اليونانية 101, 865.

القدرة... إن الحياةَ المعيبةَ لا تتلاءم مع تقبل القدرةِ الإلهية."[359] الفساد الخُلُقي يظلم الإنسان ويغربه عن نعمةِ الروح القدس.[360] لذلك كان إنمـاء الفـضيلةِ مسلمةً ضروريةً للحياةِ المسيحية. بدونها لا يكون الإنسان إناء مقبولاً لنعمـةِ الروح القدس. "لذلك يحثُنا على الإسراع ويشجعنا على الجهـادِ القـوي, لأن موهبةَ النعمةِ تُقاس بالآمِ الذين يحصلون عليها. فنعمةُ الـروح تهـب الحيـاةَ الأبديةَ والفرح السماوي الممتنع التعبير عنه, والعشقُ الناشئُ عن الإيمان يهب بالالآمِ تقبلَ المواهبِ والتمتع بالنعمة."[361]

الشريعة والنعمة

الإيمان المسيحي واقع جديد يفترض نعمةَ الروح وتدآب المـؤمن مـع تجديدِه وكمالِه. فالكمالُ, بصفتِه إعلاء للوجودِ الحقيقي للإنسان, هـو حـدثٌ كياني وليس حدثاً خُلُقياً فقط. وهذا يتيسر لنا في الكنيـسةِ التـي هـي مكـان حضور الروح وعمِله. حيث تكون النعمةُ والحريةُ لن يكون لوجودِ الـشريعةِ أي معنى, لأن وضع النعمةِ أسمى من وضع الشريعة.[362] بالطبع, إن الكنيسةَ تستخدم الشريعةَ والوصايا لأسبابٍ تربوية. فهناك أيضا خطر سيطرةِ الـروح

---

[359] تفسير إشعيه, المقدمة 3, مجموعة الآباء اليونانية 30, 121.

[360] "الفاعلية والنعمة والقدرة الإلهية حاضرة في كل مكان, ولكنها غائبة عن غير المؤهلين لها. إنهم لن يشاركوا في الحصول عليها لعدم طهارتهم." غريغوريوس بالاماس, رد على اكيندينس 5, 27, 118.

[361] غريغوريوس النيصصي, القصد الإلهي, الجزء 8, 1.

[362] "من كان عنده الروح امحت فيه كل رغبة شريرة. ومن تحرر من الرغبات لا يحتاج إلى مساعدة الشريعة, لأنه صار أسمى بكثير من وصاياها. ومن لا يستشري غضبا لا يحتاج إلى سماع الوصية القائلة: "لا تقتل!" ومن لا ينظر بعينين فاسقتين كيف يحتاج إلى الوصية التي تعلم ألا يزني!؟ فمن يتحدث عن ثمر الشر لمن استأصله؟" يوحنا الذهبي الفم, تفسير الرسالة إلى أهل غلاطية 5, 6, مجموعة الآباء اليونانية 61, 672.

الشرعويةِ وامحاءِ روحِ النعمة. لذلك وجِد مبدأ التدبير المعروفِ والمحبوبِ في الكنيسةِ الأرثوذكسيةِ الذي هو صمام أمان. عملياً, تسود أحياناً الكنيسةَ الـ روح الشرعويةُ وتُقيد بشكلٍ خانقٍ حريةَ الروح, فتموتُ حياةُ النعمةِ وينسى عنـ دها المؤمنون التبني في المسيح.

التهذيبية

ما يوصلُ إلى هذا الوضع هو النظرةُ التهذيبيةُ للمـ سيحية, إذ تواجـ ه وكأنها تعليم خلقي جديد اصلح التعليم اليهودي, وتواجه وصايا المسيح وكأنهـ ا تشريع جديد. لكن المسيحيةَ ليست تعليماً خُلُقياً جديداً ولا إيديولجية جديدة, إنما بشارةُ تجديدِ العالمِ في المسيح. ما وصايا المسيح شريعةً جديدة, إنما مؤشراتُ الحريةِ التي يقود ظهور ملكوت ا في المسيحِ الإنسان إليها. هكـ ذا يـ ستحيلُ تطبيقُ وصايا المسيح بدون نعمةِ الروح القدس. فلا يستطيع الإنـ سان بقـ واه الخاصةِ أن يحيا المسيحيةَ وأن يعملَ بوصايا المسيح. هذه تُصبح ممكنةً بنعمةِ ا . لذلك دعي الإنسان إلى التآزر مع نعمةِ ا في عمِله التجديـ دي. بـ دون التآزرِ البشري لا تتوفر للمرءِ في نعمةِ ا منافع.

الإنسان الروحاني

ما يميز التقليد الكتابي والابائي هو أن نعمةَ الروحِ القدسِ تُقدم وكأنهـ ا عنصر يحدد وجوده. فمن لا يملك نعمةَ الروح القدس يوجهه فكره الجـ سدي, ولذلك نصفُه بأنه إنسان جسداني. أما الإنسان الجديد في المسيحِ وشريك نعمةِ الروحِ القدسِ نصفُه بأنه روحاني.[363] يشير إيريناوس إلى أن الإنسان الكامـ لَ له نفس حصلت على روح ا واتحدت بجسدِه المجبول علـ ى صـ ورته.[364] والقديس بالاماس يقول: "الإنسان الروحاني يتألفُ من ثلاثة عناصـ ر: نعمـ ة

[363] انظر مثلا, يوحنا 3: 6, 1 كورنثس 2: 12– 16.

[364] دحض النحل, 5, 6, 1, مجموعة الآباء اليونانية 7, 1137.

الروح السماوية والنفس العاقلة والجسد الأرضي."[365] إن نعمةَ الروحِ القـدس التي يقبلُها المؤمن في معموديتِه تقوده إلى مجدِ الحياةِ المستقبلة. أمـا فقـدان النعمةِ فيساوي الهلاك الأبدي.[366]

لا يتميز الناس بطبيعتِهم, لأن طبيعتَهم المتقبلةَ لنعمةِ الـروح واحـدة. لكنهم يتميزون بموقفِهم الإيجابي أو السلبي مـن ا , أو باشـتراكِهم أو عـدم اشتراكِهم في نعمتِه. هنا تتضح أهميةُ الحريةِ الشخصيةِ في كمـال الإنـسان. بدون الحريةِ الشخصيةِ يتوقفُ الإنسان عن أن يكون إنـسانا. فخلاصـه يـتم بموافقتِه الحرةِ وبتآزره مع النعمةِ الإلهية.

الحرية والقدرية

لقد أثار تعليم الوجوديةِ الملحدةِ عن حريةِ الإنسان المطلقـةِ الاهتمـام بالحقيقةِ الإناسيةِ التي تجاهلها الغرب من خلال إيمانِه بالقدريةِ المطلقة. هـذا التعليم يصلُ إلى تطرفٍ آخرٍ يكذب اختباريا. والحق أن الإنسان لم يحكَم عليه بأن يكون حراً, فهو ليس حراً حريةً مطلقة. الإنسان ينتمي إلى عـالمٍ أوسـع. وجوده لا ينتمي إلى ذاتِه فحسب, إنما إلى محيطِه أيضا. فحـضور الآخـرين يفرض تلقائياً حداً لحريته الشخصية. ووراء المجتمعِ والقيودِ الاجتماعيةِ تُوجد الطبيعةُ والقيود الطبيعية. لكن في هذه الأطر يملك الإنـسان إمكانيـةَ الـسمو الخلقي. في كل لحظةٍ من لحظاتِ حياتِه هو قادر علـى اختيـار الإمكانيـاتِ المختلفةِ التي تنفتح أمامه. لكن نهايةَ حياتِـه تبقـى وراء إمكانيـةِ اختيـاره وتتلخص في الفسادِ والموت.

---

[365] "في الدفاع عن الزاهدين زهدا مقدسا . 1, 3, 43 .

[366] "حتى انك إذا أقصيت نعمة الروح الموجودة هنا , وانتقلت من هذا العالم من غير أن تحفظها سالمة, فإنك ستهلك تماما حتى لو قمت من بين الأموات." يوحنا الذهبي الفم. الموعظة في الرسالة إلى أهل رومية 13, 8, مجموعة الآباء اليونانية 60, 519.

بخلقِ الإنسان على صورةِ ا ومثالِه يتحدد منظـور وجـودِه. وهـذا التحديد يوافقُ تشابهه مع ا . لكن هذا التشابه لا يفرضه ا فرضـاً وكأنـه مصيره القسري. فهو قادر على أن يقبلَ أو يرفض بحريةٍ ما قدمه ا له. أما القسريةُ الاجتماعيةُ أو الطبيعيةُ فلا تُزيلُ حريةَ الإنسان النسبية. فمتى ارتـبطَ الإنسان بما قدمه ا استطاع أن يفهم وجوده من خلال تنوعِ مواهبِ الـروحِ القدس واشتراكِه في حريةِ ا المطلقة. أما إذا قاوم هذا الاتجـاه رافـضاً أن يعيشَ بقربِ ا وضع نفسه أمام العماءِ وأحس بالغثيان الوجودي.

يؤكد الكتاب أن الإنسان لا يستطيع أن يقدم لنفسِه الحريةَ المطلقة, بـل إنه مجبر على الاعترافِ إما با أو بالشيطان رباً له.[367] إذا قاوم المـرء ا والغايةَ التي حددها له اصبح كائناً شيطانياً, فخضع للشرير ولقـواه المـدمرة. لكن إن أصبح عبداً وتحرر من الشيطان وجد المعنى الحقيقي لحياتِه والغايةَ الواقعيةَ لوجودِه. "أما الآن بعدما تحررتُم من الخطيئةِ وصرتم عبيداً , فـأنتم تجنون ثمر القداسةِ وعاقبته الحياة الأبدية."[368]

[367] (متى 6: 24)

[368] (رومية 6: 22)

الجزء الثاني

الإنسان والآخر

نظرة عامة

البعد الاجتماعي للحياة الخلقية

يرتبطُ سلوك الإنسان وحياتُه ارتباطاً وثيقَ العرى بسلوكِ الآخرين وحياتهم وبقوانين المجتمع الذي يحيا فيه وكذلك بالمحيطِ الطبيعي الذي يحيا فيه. وتأخذُ أيضا حياةُ الإنسان وعلاقاتُه بالآخرين وبالعالم معناها من الإيمان الذي هو التآلفُ مع ا . ومتى أقصينا البعد العمودي عن الحياةِ الاحتماعيةِ فقد البعد الأفقي معناه أيضا, ووصلَ إلى التفككِ والانحلال. وهذه الظاهرةُ تكون ملموسةً في عصرنا الحاضر على نحوٍ خاص.

يحيا المسيحي, كأي إنسانٍ آخر, في محيطِه الاجتماعي والطبيعي, لكنه ينتمي عضوياً إلى الكنيسة. وهذه الخاصيةُ المرتبطةُ بإيمانٍ خاصٍ تخلقُ في حياتِه رؤيةً جديدة. به تكتسب حياةُ المؤمن معنى جديداً ذا محتوى اجتماعي ولاهوتي في آنٍ واحد. فالمحتوى الاجتماعي لا يفهم بدون المحتوى اللاهوتي, والمحتوى اللاهوتي يكون نظرياً بدون المحتوى الاجتماعي.

العلمنة والفردية

إن العلمنةَ (أو الدنيوة) التي بدأت تسيطر بعد عصر النهضةِ قد أقصت البعد العمودي عن الحياةِ الإنسانية.فاستُبدِلَ البعد الديني بنظرياتٍ معلمنةٍ ظهرت كإيديولجياتٍ أو مدنٍ فاضلة. فضغطت على الحياةِ الإنسانيةِ وأبقتها قائمةً على مستوى الأمور الفوريةِ والمباشرة. وفي الوقتِ نفسِه أغفَلَت المفاهيم الفرديةُ (أو الفردانية) البعد الأفقي للحياةِ البشرية. وكذلك أهملت الأخلاقُ نفسها الكثير من مداها الواسع وواجهت الإنسان كفردٍ لا عمقَ له ولا مدى. وهذه النظرةُ الأحاديةُ الجانب لم تتأخر في أن تُصبح ماديةً حسية. ولكن بنمو التحليل النفسي والحياةِ والبيئةِ والعلومِ

الاجتماعية التي كشفت المدى البشري في عمقِه واتساعِه وارتباطاتِه وعلاقاتِه الغنيـة بمجتمعِه ومحيطِه فقد تغيرت الأمور تغيراً مهما.

اتساع العمق والمدى

إننا نجهلُ الجزء الأكبر من حياةِ الإنسان الداخلية. فهناك جـزء واعٍ وجـزء كبير غير واعٍ من القوى والنشاطاتِ الإنسانية. وهكذا يتضح أن محاولةَ تفحـصِ أو تنظيمِ جزءٍ واحدٍ منهما هي محاولةٌ حسيرةُ البصر. فلحياةِ الإنسان الاجتماعيةِ أبعاد لا محدودة. وكثيراً ما نُرجع علاقاتِنا الاجتماعيةَ إلى شكلين: موضوعي وذاتـي. وقـد يظهر كل من الشكلين الموضوعي والذاتي على نحوٍ منغلق. لكن ما من بـشرٍ فـي المجتمعِ إلا ويكون ذاتاً وموضوعاً في آنٍ واحد, لا بل إن علاقتَه بالآخرين ليست لها صفة ثنائية فحسب, إنما لها صفةٌ ثلاثية. فكل علاقةٍ شخصيةٍ لها دائماً بعـد ثالـثٌ. والواقع أن الإنسان يبقى معتمداً على محيطِه ومتأثراً به تأثراً كبيرا. وفـي حياتِـه لا يفهم كفردٍ منعزلٍ, إنما كعضوٍ في مجموعةٍ واسعةٍ, يتأثر بها ويـؤثر فيهـا بأفكـاره وأعمالِه وتصرفاتِه. فالمعلوماتُ التي يتقبلُها من قطاعـاتٍ مختلفـة, مثـل الأسـرة والمدرسة والكنيسة والمذياع والتلفاز والإعلام وكل الوسائل التكنولوجية الحديثة تحدد شخصيتَه.

والمحيطُ الطبيعي الذي يحيا فيه المؤمن يؤثر في حياتِه كلها تـأثيراً مباشـراً. فالمناخُ والتربيةُ والوضع الطبيعي والتكنولوجي تؤثر في شخصيته وضميره. إذا مـا تجاهلنا هذه العناصر نتجاهلُ الإنسان نفسه ونتغاضى عن أبعادِ حياتِه الواسـعة.[3] إذاً, الإنسان يحيا في محيطٍ واسعٍ تتكون فيه شخصيتُه. وفي هذا التكون يساهم هو نفـسه في وجودِه وحياتِه. وهذا ما شدد عليه منذ البدءِ التعليم المسيحي. ففي الكتابِ المقدسِ والتقليدِ الكنسي عندنا شهاداتٌ عديدةٌ. وأهم شهادةٍ هي الاعترافُ بالخطيئـةِ الجديـة. التي تربطُ الفرد بالإنسانيةِ كلها. وإضافةً إلى ذلك, يكـون اسـتبطان الأخـلاق فـي المسيحيةِ أساسياً, وتأكيد المسؤوليةِ تجاه الآخرِ أساسياً أيضا. في الموعظةِ على الجبل

يعلن الرب عن التعليمِ الخُلُقي ويرجع أعمالَ الإنسان إلى حركـاتِ الـنفسِ الداخليـةِ ورغباتِها. وفي هذا المجال, يجدر بنا أن نذكر كتاب "الراعي هرماس" الـذي يـسبر حركاتِ النفسِ الباطنية ويدين خطايا الفكر. وفي التعليمِ الابائي نجد اهتمامـاً خاصـاً بحياةِ البشرِ اللاواعية التي هي امتداد لحياتِهم الواعية.[369] فتُوضع مثلاً الطهارةُ أثناء النومِ مقياساً لطهارةِ الحياةِ الإنسانية.[370]

إن جامعيةَ طبيعةِ الشخصِ الاجتماعية تكشفُ عن طبيعةِ الكنيسةِ نفسِها. ففيها يرتبطُ الأعضاء بجسدِ المسيح الواحدِ اللامنقسم. وهذا الارتباطُ شركةٌ شخصيةٌ وتوجه مشترك في حياةِ الجسدِ الواحد. وأعضاء هذا الجسدِ هم أيـضا "أعـضاء لبعـضِهم البعض" في أطرِ وحدةٍ ثالوثية.[371] ومن هنا تأخذُ حياةُ المؤمن معناها العميق كعـضوٍ في العائلةِ والوطن, وكذلك في كل الأشكال الاجتماعيةِ عامة.

يكون تأثير المسيحيين على نظام الحياة الاجتماعية ممكنا من خلال الكنيـسة. فتجديد العالم الذي أعلنته الكنيسة يظهر في تجديدها للأنظمة التي تتلقاها مـن العـالم وتستخدمها في حياتها. وإذا لم تقدر الكنيسة أن تحل مشاكل العالم, التي هي مـشاكل أعضائها أيضا, في إطار جسدها الخاص, فهي لن تقـدر أن تحلهـا فـي المجتمـع الإنساني الواسع. وهنا يطرح السؤال التالي: "إذا فسد الملح, فماذا يملحه؟"[372] والنظرة التي تقول بإمكانية إيجاد حل مسيحي للمشاكل الاجتماعية بمعزل أية محاولة لحلها في جسد الكنيسة يصعب تبريرها لاهوتيا.

---

[369] انظر باسيليوس الكبير, في الصلاة 3, مجموعة الآباء اليونانية 32, 1240.

[370] "إن عدم التأثر بخيالات الأحلام الليلية إشارة إلى الطهارة الخلقية." السلم 15, مجموعة الآباء اليونانية 88, 881.

[371] "فالمواهب الروحية على أنواع, ولكن الروح الذي يمنحها واحد. والخدمة على أنواع, ولكن الرب واحد. والأعمال على أنواع, ولكن الله الذي يعمل كل شيء في جميع الناس واحد." (1 كور 12: 4- 6)

[372] (متى 5: 13)

أخلاق اجتماعية

إن وجود أخلاق اجتماعية خاصة أو مـستقلة كهـذه مجهـول فـي التقليـد الأرثوذكسي. وعلاوة على ذلك, فهذه الأخلاق لا تهدف إلـى كمـال الإنـسان فـي الصلاح, إنما إلى الحد من الشر والمحافظة على بر اجتماعي نسبي. وبذلك تنقاد حتما إلى تأقلم اجتماعي يستحيل معه أن تكون متفقة مع حقيقة الإنجيـل. فمـا الأخـلاق المسيحية أخلاقا شرعوية مألوفة, إنما هي أخلاق النعمة والحرية. فتأثيرها في العـالم لا يتم من خلال تكيفها معه, إنما من خلال الحفاظ على خاصيتها وعيشها في العـالم. لا يمكن للأخلاق المسيحية أن تتحول إلى شريعة دنيوية, إنما تبقى محافظـة علـى تحرير الشخص من الحتمية الشرعوية والاجتماعية. بهذه الطريقة تؤثر تأثيرا فـاعلا في المجتمع نفسه وفي الشريعة.

لقد أدى تقديم الأخلاق المسيحية تقديما مستقلا, وقد تم لأسباب عمليـة. إلـى إهمال بحثها في نطاق حياة المؤمنين الاجتماعية. فتركـت الأمـر إلـى الأخـلاق الاجتماعية ومن ثم تم البحث فيها من خلال مقاييس أخرى. لكن الروح الأرثوذكسية لا تبرر هذا الانفصال. فالأخلاق الاجتماعية تكون بعدا متصلا بـالأخلاق المـسيحية اللامنقسمة, بحيث أن مبدأ البر والحق يدخل في وسطها. وهذا المبدأ لا يمس علاقـة الإنسان الشخصية فحسب, بل يمس مجمل العلاقات والأنظمة الاجتماعية. فالمـشكلة الرئيسة لا تكون في نصرنة الأنظمة التي قد تنتهي بنوع من تقديس لها, لكن بتحرير المرء من قواها المدمرة. هذه المواضيع, وكذلك المشاكل الخاصة بها, تنتمي إلى أطر الأخلاق المسيحية اللامنقسمة, التي تتأسس وتعاش في الكنيسة.

محتوى الجزء الثاني

في الجزء الثاني سنتناول البعد الأفقي الأخلاق المسيحية, المـرتبط بعلاقـات البشر الشخصية والاجتماعية. وهنا سنتحدث عن موقع الكنيسة في العالم وعن موقـع المسيحي في الكنيسة, وسنقدم النتائج الخلقية النابعة منها في سبيل حياته. ومـن ثـم

سننظر إلى موقف المؤمن من الآخرين في العمل والأنظمة الاجتماعية المختلفة. فـي هذا الإطار سنتحدث عن الحياة الزوجية والرهبانية وعن المشاكل المرتبطـة بهمـا. وبعد ذلك سندخل في بحث الموقف المسيحي من الدولة, التي تهدف إلى تنظيم الحياة الاجتماعية العامة, وكذلك في بحث المشاكل المختلفة التي تخلقها للمسيحي كعضو في الدول العالمية. وأخيرا سنحاول وصف الموقف المسيحي من المـشاكل الاجتماعيـة المعاصرة وأساليب حياة الإنسان المعاصر.

1-موقف الكنيسة وتوجهها في العالم

الكنيسة والعالم

قال القديس مكسيموس المعترف إن الكنيسة "أيقونة العالم كله المكـون من المنظورات واللامنظورات."[373] ومن هذه الزاوية يكون كل فصل بـين الكنيـسة والعالم غامضا. فالكنيسة تخرج من ا وتتجه إليه. ومصدر العالم هو من ا , ولـه صلة به.[374] أما العالم فيجهل معنى وجوده وغايته. الكنيسة تعيد العالم إلى منظـوره الصحيح. ففيها يجد العالم استحقاقه وغاية وجوده.

إن العالم بصفته واقعا مستقلا هو سجن للإنسان. وإذا لم يتجاوز المرء العالم, فإنه سيكون عبدا له ودمية للحتمية الكونية. أما الكنيسة فتحرر الإنسان مـن العـالم وحتميته وتقوده إلى حرية الروح. لذلك تفقد حياته معناها خـارج الكنيـسة. ولكـن تكتسب حياته فيها معنى ساميا وغاية رفيعة. فأعضاء الكنيسة من العالم يخرجون, إلا أنهم في الملكوت يكتتبون.[375] وهذا يعني أن لهم ميزة معادية, كميزة الكنيسة تمامـا. لذلك كان إنماء الروح المعادية ضرورة جوهرية, تمليها الكنيسة على المؤمنين. وهذه الروح المعادية البارزة في التقليد الأرثوذكسي ساعدت الكنيسة في أن نبقة منفتحة من غير أن تتحول إلى إيديولوجية دنيوية.

الكنيسة والإيديولوجية

الإيديولوجية هي نوع من اللاهوت المعلمن. فهي تطالب بالوصول إلى مـلء الحق في أطر الأمور الفورية والمباشرة. وهكذا تقيـد حريـة الـشخص وتخـضعه للحتمية. أما المنظور المعادي للكنيسة فينكر القيمة المطلقة لشؤون العـالم وأفكـاره ويطالب ملء الشركة وراء حدود الأمور الفورية والمباشرة. الإيديولوجيـة لا تـسمح

---

[373] مكسيموس المعترف, المسارة 2, مجموعة الآباء اليونانية, 91, 668 .

[374] "به وله خلق الله كل شيء ." (كولوسي 1: 16)

[375] "أما نحن فموطننا في السماء ." (فيليبي 3: 20)

للبشر بإندراجهم الكامل في الكنيسة. بهذا المعنى لا يمكن لأية إيديولوجية أن تتفق مع المسيحية. ومع ذلك فقد تكون باعثا لتجاوزها والبحث عن الحق إذا ما قدمت للبـشر الحق تقديما جزئيا. أما الكنيسة في بعدها المؤسساتي فقد تزيف المسيحية أو تخونهـا, إذا تحولت إلى مؤسسة بعيدة عن جوهر الإيمان ونفحة الـروح, أو حافظـت علـى عبادتها محافظة جافة وتحولت حقيقتها إلى حرف ميت أو إلى إيديولوجية دنيوية. وقد تضل الإنسان أو تعيقه في الدخول إلى ملكوت ا . وهنا ينطبق على من يـنهج هـذا النهج ما وجهه المسيح إلى علماء الشريعة والفريسيين: "فلا أنتم تدخلون, ولا تتركون الداخلين يدخلون."[376] فجماعة كنسية ميتة أو متغربة لا تقدر أن تقود البـشر إلـى الحياة, لا بل إن رجاء الحياة يموت ويتغرب في جماعة كهذه.

تبقى الكنيسة الحية بمنظورها المعادي مفتوحة أمام الجميع, ومتحررة من كـل شيء. فهي تقبل كل شيء وتغيير وجهه, حتى لو كان الموت نفسه. أما التخلي عـن المعادية فقد تتحول الكنيسة إلى مؤسسة تقليدية, ويتحول إيمانهـا إلـى إيديولوجيـة بسيطة. فلا تتم تسوية بريئة, كما تظهر المسيحية نفسها زائفة. وهذا ينطبـق علـى الحالات التي يبذل فيها مجهود قوي لتظهر المسيحية أنها مزدرية بالعـالم الحاضـر, وأنها تُدخل انتظارا سلبيا لعالم آخر.

عمل الكنيسة في العالم

لا يتطلب التوجه المعادي وجود لا مبالاة بمنط العيش وبمشاكل العـالم, إنمـا يجعل التقويم المسؤول لهذه المشاكل ومواجهتا ضروريين في ضوء المعنى والغايـة من الحياة. فالعمر هو زمن عيش الإيمان والشهادة له فـي العـالم.[377] المـسيحيون

---

[376] (متى 23: 13)

[377] "يقيم المسيحيون في العالم كما تقيم الروح في الجسد. الروح منتشرة في أعضاء الجسد كله انتشار المسيحيين في مدن العالم... النفس منحصرة في الجسد, لكنها تضبطه. والمسيحيون مُوثقون في سجن العالم, لكنهم يضبطونه." الرسالة إلى ديوغنيتس 6.

الحقيقيون لا ينغلقون على أنفسهم ولا يكرهون العالم, لأن ا دعاهم إلى العمل مـن أجل خلاصه وتجديده, وإلى الشهادة لمحبة ا فيه. لكنهم لا تـشبهون بالعـالم, لأن تأثيرهم الفعال في العالم يكون مستحيلا. فشركة الصليب والقيامة هي ميزة لمـسرى المؤمنين في العالم. والمعنى العميق للتاريخ لا يكتشف إلا بمنظور الصلب القيامـة, الذي هو منظور الكنيسة. في هذا العالم المعلمن تدعى الكنيسة إلى ممارسة تأثيرهـا الخلاق في البشر من خلال تعليمها وحضورها في العالم. وإذا واجهت الكنيسة مشاكل العالم في جسدها مواجهة صحيحة, فإنها ستكون قادرة علـى مـساعدة العـالم فـي مواجهتها.

ولعل المسيحيين الحقيقيين قلة في العالم. وهذا لا يقلل من تأثيرهم الخلاق فيه. فالأكثرية لا تغيير الحياة الاجتماعية, إنما الأقلية. ولتحقيق ذلك لا بد من وجود أقليـة متماسكة ومتفقة في الرأي. وإذا ما بثت الكنيسة روح المحبة فإنها تكون قد أضـفت من روحها على المجتمع المعاصر. القوانين الاجتماعية للتنظيم لا تقدر أن تخاطـب كل بشر مخاطبة شخصية. أما البوادر الإيثارية فتقدر أن تملأ علـى افـضل وجـه الفراغات التي تخلقها القوانين اللاشخصية. وإذا ما حافظت الكنيـسة علـى حريتهـا واستقلالها عن المناهج الاجتماعية والسياسية استطاعت أن تساهم في إصلاح القوانين الاجتماعية على أساس محبة البشر واحترام حريتهم.

المهمة التبشيرية

يترادف المعنيان: الكنيسة والتبشير. فيوم الخمسين, يوم ميلاد الكنيسة, هو يوم انضمام العالم إلى الكنيسة. وقول الرب: "اذهبوا وتلمذوا كل الأمم."[378] ينطبـق أولا على الرسل, ومن ثم على كل المسيحيين المتمين إلى جسد الكنيسة.وكذلك ينطبق قول بولس الرسول عن نفسه: "الويل لي إن كنت لا أبشر"[379] على كل مـؤمن بمفـرده.

[378] (متى 28: 19)

[379] (1 كور 9: 16)

مهمة التبشير تفترض خروج الجماعة من ذاتها. يعسر إتمام التبشير, بصفته علاقـة لشركة الإيمان ونقله, بدون أن تخرج الجماعة من ذاتهـا, كمـا تـستحيل العلاقـة الاجتماعية أيضا. مهمة المؤمنين هي أن يكونـوا ملـح الأرض ونـور العـالم.[380] فالانغلاق على الذات بروح الاكتفاء واللامبالاة بالعالم لا يسيء إلى العالم فقط, بل إلى المؤمنين أنفسهم. والشهادة للإيمان لا تهدف إلى إنارة العالم فقط, بـل إلـى إحيـاء المؤمنين الذين يؤدون هذه الشهادة. فالتبشير لا ينقل الخبر السار إلى العالم فحـسب, إنما يجدد حياة المؤمن الداخلية.

إذا, البشارة خدمة أساسية في الكنيسة. وهي مؤشر لمستوى الكنيسة الروحي. ونموه يظهر الغنى الداخلي والحيوية الروحية. إن عمل الكنيسة لا يتم فقـد بتنـشيط البشارة, بل بحضورها أيضا. فمتى عاشت الكنيسة محتـوى إيمانهـا أدت الـشهادة المسيحية. فحضور الكنيسة لا يناسب فقط الحالات التي يكون فيها التبـشير معطـلا, كما كانت الحال في زمن الاضطهاد, إنما كذلك في حالات تكون فيها البشارة مكثفـة, والروحانية ناقصة.

مشاكل التبشير

إن التبشير وحضور الكنيسة في العالم تحف بهما مخاطر ومشاكل عديدة. هذه المشاكل ترتبط إما بإعلان الكنيسة عن البشارة أو بمدى قبول العالم لهـا. فمـشاكل التبشير يجب أن تواجه بدون مخاتلة وبإيثار حقيقي, ومشاكل تقبل العالم لـه يتطلـب درس المعطيات الموضوعية في كل حالة, كما يتطلب على الأخص تجنب اسـتعمال البشارة كإيديولوجية تخدم الأهداف الغريبة عن روحها ومحتواها. وهـذا الاسـتعمال خطير جدا في مناطق يتيقظ فيها الوعي القومي والتفتيش عن مناهج لدعم المـساعي القومية والاجتماعية. ولكن المشكلة الأساسية في العمل التبشيري هو انعدام الوحـدة المسيحية.

---

[380] (متى 5: 13)

التقليد والتجديد

تحطمت وحدة المسيحيين بالانشقاقات, فصار بها العالم المسيحي منقسما إلى وحدات إيمانية متعددة. لكن الكنيسة الأرثوذكسية تعي نفسها أنها محافظة على وحدة الكنيسة. وهذه الوحدة يجب أن لا تفهم فهما جامدا, بل يجب فهمها فهما ديناميا, تماما كما نفهم التقليد. فالتقليد يوجه الكنيسة ولكن الكنيسة أيضا توجهه. فهو ليس بعيدا عن جسد الكنيسة, إنما يوجد في جسدها ويتحرك بها. إذا لم نر التقليد من خلال هذا البعد الدينامي, فإننا نصل حتما إلى فصل المسيحية عنه وإلى ضعف في الإيمان.

يزعم البروتستانتيون أن الكنيسة بحاجة إلى الإصلاح المستمر " Ecclesia semper reformanda " إي أن الكنيسة تحتاج إلى تغير مستمر كي تحافظ على هويتها. وإذا لم تتغير فلن تستطيع أن تحافظ على هويتها. وإذا رفض التغير التقليد الكنسي, فلن يسبب نموا عضويا, إنما يبدل جوهر الكنيسة تبديلا أساسيا.

الكنيسة الأرثوذكسية هي كنيسة التقليد, والتقليد لا يماثل في جوهره المحافظة. فهو حركة وحياة, أما المحافظة فموت وسكون. ولكن عندما لا تستطيع الكنيسة أن تعبر بحرية عن حياتها فإنها تلجأ إلى المحافظة. وفي هذه الحالة تكون المحافظة حلا ممكنا. لكن المحافظة لا تتمثل بالأرثوذكسية, أو تعد الأرثوذكسية مثالا لها, كما يظن الكثيرون. الأرثوذكسية تقليدية وفي حالات استثنائية تكون محافظة. ولكن أن يتحول الاستثناء إلى قانون هو تزييف لخاصية الأرثوذكسية.